

ميجي

قوى بشرية قادت التغيير

إعداد
مشروع ميجى
هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية

دار الشروق

ميجى

This book was produced under the Special Program for Arabic Translation and Publication of Japanese Books, which is conducted by the Japan Foundation in collaboration the Association for 100 Japanese Books.

Meiji1:Henkaku o Michibiita Ningenryoku
by NHK Meiji Project

Originally published in Japanese by NHK Shuppan, Tokyo.
This Arabic language edition published in 2008
by Dar El Shorouk, Egypt
in cooperation with the Japan Foundation,
by arrangement with NHK Shuppan, Tokyo.

الطبعـة الأولى ٢٠٠٨

رقـم الإيداع ٥٩١٩/٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2350-9

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

ميجى

قوى بشرية قادت التغيير

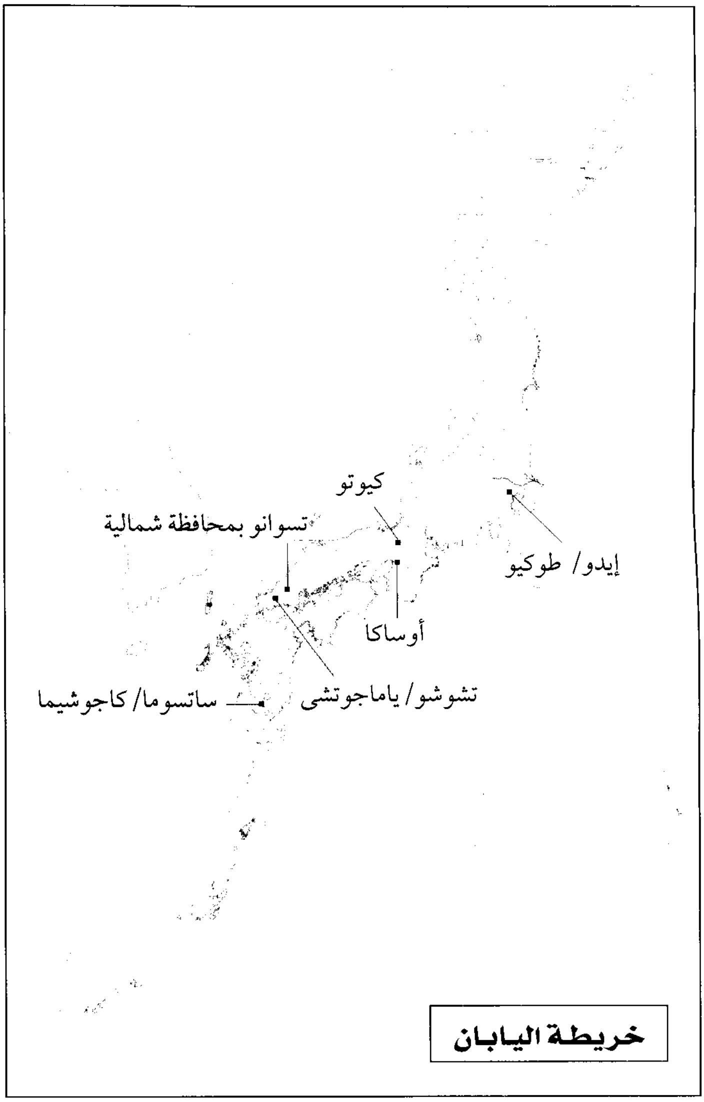
إعداد
مشروع ميچى
هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية

ترجمة
د. عصام رياض حمزة

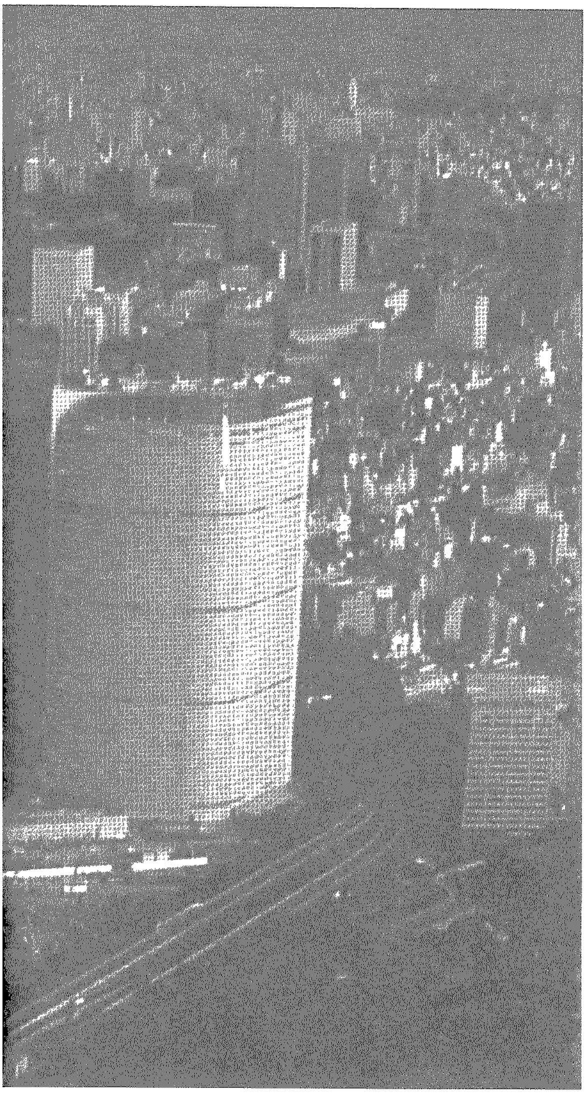
دار الشروق



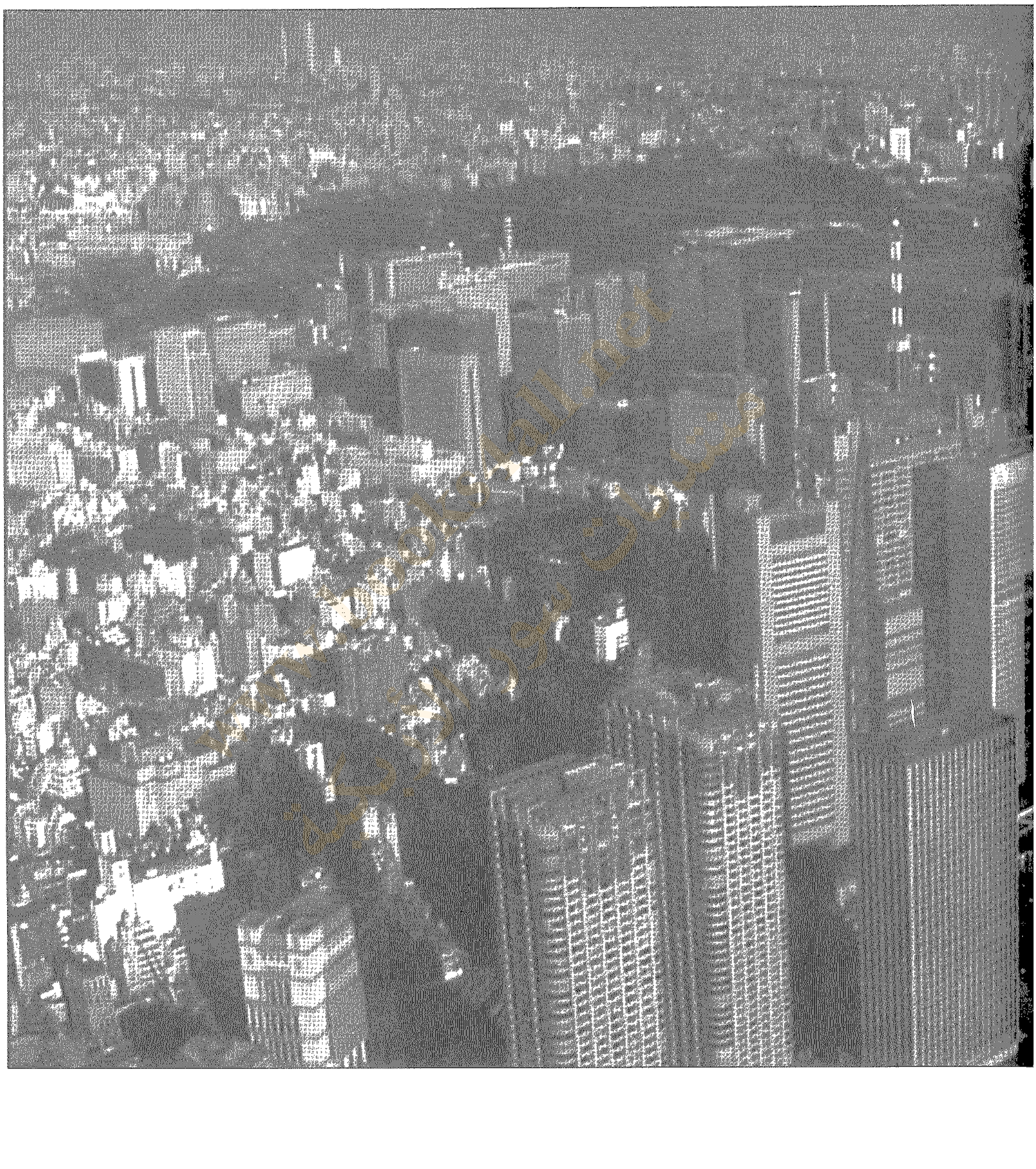
برج الساعة فى الشارع الرابع بحى «جينزا» فى طوكيو فى عصر ميچى (أعيد تجسيده بالكمبيوتر جرافيك)


كيوتو
تسوانو بمحافظة شمالية
إيدو/ طوكيو
أوساكا
تشوشو/ ياماجوتشي
ساتسوما/ كاجوشيما
خريطة اليابان

المحتويات



منذ مائة وبضع عشرات من السنين،
ومن قلب الفوضى،
بدأت اليابان صناعة بلد جديد.
إنها يابان ميجى ——
كانت دولة فتية،
حديثة النشأة،
تحمل الكثير من الإمكانات.
كيف كان الناس يفكرون؟
وكيف صنعوا تلك الدولة؟
اليوم، تقف اليابان المعاصرة
فى منعطف هام؛
وها هى ترهف السمع لصوت الأجداد
فى عصر ميجى
حتى تستشرف
معالم بناء دولة جديدة.



مقدمة المترجم

«ميچى» كلمة لها وقع خاص فى قلوب اليابانيين، فعندما يسمعها اليابانى تتداعى إلى ذاكرته مخيلات شتى، تختلف فى نفس كل فرد حسب ما يحفظه فى نفسه لتلك الفترة من تاريخ اليابان، فقد كانت فترة حافلة بالحراك السياسى والاجتماعى، وغنية بالتجارب الإنسانية، مزدحمة بالتيارات الثقافية القادمة من الخارج، وتلاطم أمواج مدها مع أمواج الشطآن فى الخلجان بين صخور الأرخبيل اليابانى. فترة قد يراها البعض زاخرة ببناء صروح الدولة اليابانية الحديثة الفتية، ونقطة انطلاقها لتتبوأ مركز الريادة فى آسيا القرن التاسع عشر، وقد يراها البعض ولاسيما فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حقبة سيطرت فيها النزعة العسكرية وبدأت فيها اليابان سلسلة حروبها فى آسيا، مما أدى بها إلى الدخول فيما يسمى «بحرب الباسيفيك» أثناء الحرب العالمية الثانية، لا لشىء إلا دفاعًا عن مكتسباتها فى آسيا. وقد نجد البعض يبحث عن مبررات لسياسات اليابان فى عصر ميچى، بينما يقف البعض الآخر موقف اللائم والحانق على من مضوا باليابان لتنزلق فى غمار الحرب العالمية الثانية، وما عاناه شعبها فيها من ويلات.

إلا أن ما يهمنا نحن فى عالمنا العربى الآن أن نقف أولًا على مقومات النهضة اليابانية الحديثة، ونتعرف على الوسائل والطرق التى استطاع بها اليابانيون بناء دولتهم والمضى قدمًا فى طريق التحديث دون أن يفقدوا هويتهم الثقافية، بل إنهم قد أفادوا من تراثهم الثقافى الذى أدخلوا إليه العديد مما أنتجته الحضارة الغربية، ولكن بطرق وأساليب تناسب مجتمعهم، بل وتحقق لهم ما كانوا يرمون إليه من طموحات كانوا يضعونها فى مشروعهم لبناء يابان غنية اقتصاديًا، قوية عسكريًا، حتى يمكنها الحفاظ على استقلالها، ولا تقع فريسة للاستعمار الأوروبى الذى كان قد توغل فى

الشرق الآسيوى، واحتل الكثير من الدول، حتى إن بعض الأقاليم التابعة للصين - تلك الدولة المحورية العظمى،كانت قد احتلت من قبل الأوروبيين.

وما يهمنا أن نعرفه أيضًا هو ما كان لدى اليابان قبل ميچى من استعدادات ومقدمات انتهت بها للنجاح فى تجربة التحديث؛ وتلك الملابسات والظروف التى هيأت اليابانيين، ودفعتهم للانطلاق بسرعة كبيرة ليحققوا فى أربعين عامًا، ما قد يستغرق أممًا أخرى قرنًا أو أكثر لتحقيقه، وربما لا تستطيع إلا أن تحقق بعضًا منه؛ وقد لا يكون على نفس الدرجة من الإتقان أيضًا.

ما قبل ميچى:

كان عصر «توكوجاوا» هو العصر السابق لميچى، وقد سمى بهذا الاسم نسبة إلى «توكوجاوا إياسو» (١٥٤٢ - ١٦١٦م)، الذى استطاع عام ١٦٠٣م، أن يمسك بمقاليد الحكم فى اليابان ويحصل من الإمبراطور على لقب «شوجون» بمعنى «أمير الجيوش»، ويبدأ فى تأسيس نظام حكم تميز بالاستقرار، إذ أنهى ما عرفته اليابان قبله من حروب أهلية دفع البلاد إليها ذلك الصراع بين أمراء المحاربين على ضم أكبر مساحة من الأرض ليحقق أمير منهم السيطرة على البلاد ويصير الحاكم المطلق فيها. وقد استطاع «تويوتومى هيديوشى» (١٥٣٦ - ١٥٩٨م) سلف توكوجاوا، أن يحافظ على الاستقرار الداخلى للبلاد لمدة خمسة عشر عامًا، إلا أنه على الصعيد الخارجى أرسل جيش اليابان، والمؤلف من قوات أمراء المحاربين لغزو شبه الجزيرة الكورية، وخاض حروبًا ضد الصين من أجل السيطرة على الأراضى الكورية؛ وكان لنقل الصراع العسكرى خارج اليابان دوره فى تحقيق السلام داخليًا. لكن ما لبث أن عاد شبح الصراعات والحروب ليطل برأسه مرة أخرى بعد وفاة هيديوشى، حتى استطاع توكوجاوا أن يسيطر على الأمور وينجح فى إرساء دعائم دولة مستقرة استمرت حوالى ٢٥٦ عامًا.

١

كان من السمات التى اختص بها نظام الحكم فى عصر توكوجاوا، تناوب أبناء «إياسو» الثلاثة الحكم هم وأحفادهم من بعده، وأن يكون الحاكم على رأس نظام

هرمى الشكل ينتهى بأكثر من ثلاثمائة أمير أو «دايميو» يحكم إقطاعية استقطعها له إياسو نفسه؛ وتكون مساحتها، وثرواتها الاقتصادية، وموقعها من العاصمة معايير لتقدير الحاكم لولاء الأمير، أو لبلائه معه فى تأسيس دولته، وفى معظم فترات عصر توكوجاوا كان حكم تلك الإقطاعيات يتوارث فى الأسرة الواحدة، إلا إذا حدث ما يدعو إلى عزل أمير وحرمان أسرته من إقطاعيتها، وتعيين أسرة أخرى بدلًا منها؛ وهناك حالات معدودة حدث فيها ذلك؛ أما طيلة ما يزيد على قرنين ونصف قرن من الزمان، كان الاستقرار والسلام عنوانى ذلك العصر؛ وقد ساعد على ذلك، ما يمكن أن نسميه من ضبط حركة المجتمع، بتقسيمه إلى أربع فئات هى الساموراى (المحاربون)، والفلاحون، والصناع، ثم التجار، ووضعها فى ترتيب رأسى من حيث أهميتها لنظام الحكم الجديد، وجاءت فئة الساموراى على رأس المجتمع، فقد كانت هى الفئة التى تكون القطاع الإدارى فى الدولة، ابتداءً من مؤسسة الحاكم العام «أمير الجيوش» ومن فيها من وزراء ومستشارين، مرورًا بأمراء الإقطاعيات وكل من حولهم من مساعديهم، وإدارييهم الذين يقومون على شئون الإدارة المحلية من إشراف على شئون المقاطعة ككل اقتصاديًا، واجتماعيًا، فقد كانت كل إقطاعية تتمتع بنوع من الاستقلالية تشبه ما للولايات تحت الحكم «الفيدرالى»؛ وبذلك اكتسبت فئة الساموراى عبر عقود عصر توكوجاوا خبرة لا بأس بها فى العمل البيروقراطى من خلال تجربتها الذاتية فى حدود إقطاعياتها المحلية، أو على مستوى مؤسسة الحكم فى «إيدو» عاصمة أسرة توكوجاوا. وبما أن عصر توكوجاوا كان عصرًا للسلام، وقد خلا من الحروب، فلم يكن هناك مجال ليبرز فيه المحاربون مهاراتهم القتالية، ليحصلوا على مكافآت وهبات من غنائم الحروب، فاستعاضوا عن ذلك بإحراز التقدم فى مجال الإدارة والحكم فى إقطاعياتهم، مما خلق تنافسًا بين الإقطاعيات، وكان العلم هو الفيصل فى تحقيق هذا التقدم، فجاء حرص كل مقاطعة على إنشاء مدرسة خاصة بها يكون دورها إعداد الكوادر البشرية التى تستطيع النهوض بشئونها، ويكون معلمو تلك المدرسة مستشارين للحاكم، وبيت خبرة فى الحكم والإدارة، وعمل الساموراى بدورهم على إعداد الأجيال التالية لهم، فكانت هناك تلك المدارس الصغيرة الملحقة بالمعابد البوذية، أو بالأحرى تلك الحجرات الصغيرة فى المعابد التى خصصت ليقوم المحاربون بتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والحساب، بل والأخلاق وآداب السلوك. كما كان الساموراى أيضًا يقومون بدور

الشرطة فى حفظ الأمن والنظام داخل حدود الإقطاعيات، وأيضًا حراسة البوابات على حدود الإقطاعيات وينظمون الدخول والخروج.

ربما كان المشهد الأخير الذى أشهر فيه الساموراى سيفه، حين أراق دماء مواطنيه فى إحدى الجزر الجنوبية بعد ثلاثين عامًا من حكم توكوجاوا، حين كلفت الحكومة أمراء الإقطاعيات فى الجنوب بتأليف جيش لإخماد ذلك التمرد الذى حدث فى منطقة «شيمابارا» عام ١٦٣٨م. كان فلاحو تلك المنطقة قد تحصنوا بأسوار قلعتهم احتجاجًا على قرار الحكومة بمنع اعتناق المسيحية، وطرد المبشرين البرتغاليين والأسبان الذين كانوا قد عرفوا طريقهم إلى اليابان فى منتصف القرن السادس عشر، حيث اعتنقها كثيرون، خاصة فى المناطق الجنوبية من الأرخبيل اليابانى بعدما كثر تردد سفن إسبانيا التى حملت العديد من مبشرى المجمع اليسوعى.

استطاع الجيش الذى كان على رأسه أحد وزراء الدولة، إخماد التمرد بعد مذبحة عنيفة قتل فيها ما يزيد على العشرين ألفًا من أهل المنطقة.

هذا ما كان من أمر فئة الساموراى أما الفئات الأخرى، فقد أخذت تتبلور لها سماتها كلما تقدمت بها سنون عصر توكوجاوا، بعد أن طبقت الحكومة بكل صرامة سياسة العزلة الاختيارية على الجزر اليابانية كلها.

٢

يعرف عصر توكوجاوا أيضًا بعصر العزلة، حيث كانت فى الفترة من عام ١٦٣٩م حتى عام ١٨٥٣م. عزلت حكومة توكوجاوا الجزر اليابانية وسكانها عن العالم الخارجى لما يزيد على قرنين من الزمان، فقد كانت الكشوف الجغرافية مقدمة لاحتلال الأوروبيين لمناطق عديدة من أفريقيا وآسيا، وقد استطاع البرتغاليون الوصول إلى بعض أراضى الإمبراطورية الصينية واحتلوها، مما أزعج حكام اليابان كثيرًا، ورأوا أن المبشرين اليسوعيين ورسالتهم ما هى إلا تمهيد لاحتلال الأوروبيين لجزرهم، وأنهم حتى يحافظوا على استقلالهم لابد من إغلاق حدودهم عليهم، وطرد أى سفينة أجنبية مهما كان نوعها، ومنع دخول أى أجنبى إلى الأرخبيل اليابانى.

إلا أنهم أرادوا فى نفس الوقت أن يظلوا على دراية بما يجرى فى العالم الخارجى،

فسمحوا للصين، ولهولندا بأن يكون لكل منهما ما يمكن أن نسميه اليوم بمكتب تمثيل تجارى فى جزيرة صغيرة فى أقصى الجنوب، وكان لتلك المكاتب التجارية دور هام فى حصول حكام اليابان على المعلومات والمعارف اللازمة عن أحوال العالم من خلال ما كان يصلهم من تقارير سنوية أو دورية أحيانًا من تلك المكاتب. وكان نتاجًا لذلك أن نشأ ما يعرف «بالعلوم الهولندية»، إذ من خلال ترجمة تلك الأدبيات الهولندية، تكونت طبقة من الساموراى الذين أتقنوا تلك اللغة وبرز العديد منهم ومن غيرهم من المهتمين بالعلوم الطبيعية والطب، الذين اتصلوا بالمعارف الأوروبية من خلال دراستهم للمترجم عن الهولندية فى تلك العلوم والمعارف.

ويرى معظم الدارسين الغربيين للتاريخ اليابانى، أن فترة العزلة تلك قد أدت إلى تأخر اليابان عن ركب الحضارة الغربية، وأنها لولا تلك الفترة لكانت اليابان قد لحقت بقاطرة التحديث قبل ميجى بقرن من الزمان. لكن هذه الفترة على الرغم من بعض الظروف الاقتصادية القاسية التى عانت منها فئات المجتمع الأخرى فى خلال زمن العزلة، مثل الفلاحين والصناع والتجار، نتيجة لتوقف حركة التجارة الخارجية مع العالم، مما أثر سلبًا على حياتهم فى جوانبها المختلفة، فقد كانت حالة العزلة تلك لها مزايا عدة لم يكتشفها اليابانيون إلا عندما اضطروا إلى الانفتاح على الخارج، حيث وجدوا أنهم مستعدون لتلقى ذلك المد الغربى بدرجة وإن لم تكن على مستوى الندية، فإنها لم تكن بذلك الضعف والتخلف الذى كانوا يتصورونه عن أنفسهم.

لقد كانت تلك الفترة ضرورية لليابانيين حتى يكتشفوا ذاتهم ويعرفوا أماكن ضعفهم فيقوموها، ويصقلوا ما لديهم من خصوصية ثقافية. وقد ساعد على ذلك ما يعرف فى تاريخ الفكر اليابانى «بحركة الدراسات القومية». تلك الحركة التى بدأت فى النصف الأول من القرن السادس عشر، فى نفس الفترة التى قررت فيها اليابان أن تنغلق على نفسها؛ إذ بدأت الحكومة فى تشجيع البعض من أهل العلم باللغة، على تنقية اللغة اليابانية من كل المفردات ذات الأصول غير اليابانية، وتطورت الدراسة إلى كلاسيكيات الأدب اليابانى منذ القرن الثامن الميلادى، وذهب الأمر بأصحاب تلك الحركة إلى حد أنهم صاغوا من الأدبيات اليابانية الخالصة، أيديولوجية قومية، أذكت فى الشعب اليابانى تلك النزعة القومية، التى تأسست على مفاهيم ومعتقدات ذات مرجعية أسطورية من الأدبيات اليابانية مفادها أن الشعب اليابانى سليل للآلهة التى خلقت الكون، وأن البيت الإمبراطورى من سلالة إلهة الشمس «أماتيراسوا»،

وأن اليابان كلها بلد مقدس، فقد كانت مهبط الآلهة حين نزلوا إلى الأرض. وعليه، فهم يمتازون عن كل أولئك الغربيين البرابرة الذين يحاولون التحرش ببلادهم من حين لآخر. تطورت هذه المفاهيم والمعتقدات بعد ذلك عبر ما يزيد على قرن من الزمان، ووجدت لها أنصارًا ومؤمنين فى مختلف فئات الشعب اليابانى، ولعل ما حدث فى نهاية عصر إيدو من حراك سياسى كان من أهم تياراته الالتفاف حول البيت الإمبراطورى، وهو ما تبلور فى تحول فعلى أسفر عن قيام نظام حكومة ميجى.

كانت فترة العزلة، والانغلاق على الذات، فرصة للثقافة اليابانية الخالصة حتى تنصهر عناصرها، وتنقى من كل ما قد يكون امتزج بها من شوائب، بل إنها استطاعت أن تخرج لنا كل عناصر الجمال فيها، وكل ما اختصت به من سمات الإبداع التى تميزها عن كل الثقافات الآسيوية الأخرى التى تشترك معها فى حبيبات الطمى الأولى قبل التشكيل والانصهار. فقد ظهر لنا المسرح اليابانى بكل أنواعه التى نعرفه بها اليوم بعد أن تخلص من كثير مما شابه فى فترات سابقة، كذلك كل الفنون الأخرى مثل «الإيكيبانا» فى عدد من مدارسها، وفن طقوس الشاى فى بعض مذاهبه، كما تحددت ملامح فن الرسم والتصوير اليابانى، وظهرت مميزاته واضحة جلية. لكن أهم ما ميز تلك الفترة هو انتشار التعليم بين فئات الشعب اليابانى، وقد زاد عدد المتعلمين زيادة ملحوظة خاصة فى نصف القرن الأخير من عصر توكوجاوا، مما زاد من رواج تلك النوعية من الصحف التى كانت تطبع على ألواح خشبية تحفر عليها الحروف والصور وتلون بالأحبار المختلفة.

وقد لعبت تلك الصحف دورًا لا ينكر فى تكوين الرأى العام الذى كان متلهفًا لمعرفة ما يجرى فى البلاد من أمور، وإن كانت تلك الصحف لم تجد لها رواجًا إلا فى العاصمة «إيدو» ذات المليون نسمة آنذاك، إلا أنها كانت تتسرب إلى المقاطعات الأخرى، التى كان قادة الرأى فيها على درجة كبيرة من الوعى والرغبة فى المشاركة فى صنع الأحداث. ولعل من أشهر ما نشرته تلك الصحف، صورة الأدميرال «ماثيو بيرى» (١٧٩٤ ـ ١٨٥٨م)، حين جاء بأربع سفن من أسطول شرق الهند الأمريكى فى شهر يوليو من صيف عام ١٨٥٣م، ليرسو فى خليج «أوراجا» بالقرب من العاصمة اليابانية، ليسلم رسالة من الرئيس الأمريكى آنذاك يطلب فيها فتح الموانئ اليابانية أمام سفنهم وتزويدها بالماء والمؤن، وإقامة علاقات ود وصداقة بين البلدين. رسمه

المصور اليابانى على هيئة منفرة،إذ صوره بربريًا همجيًا ذا ملامح قاسية وعيون كبيرة، وأنف ضخم يعلو فمًا كبيرًا، وهى ملامح لم يألفها اليابانيون فى البشر، وأطلقوا على سفنه الأربع اسم «السفن السوداء».

٣

أحدث قدوم السفن السوداء الأمريكية بالقرب من العاصمة اليابانية، ضاربة بكل قوانين العزلة الصارمة عرض الصخور، هزة قوية فى المجتمع اليابانى، لم تستقر به إلا بعد «إصلاح ميچى»؛ فقد وجدت حكومة توكوجاوا أنه لا مفر من استقبال «بيرى» وتسلم الرسالة التى جاء بها، ووعدوه بالرد عليها بعد عام، وظنوا بذلك أنهم قد قاموا بمراوغة سياسية، فقد خشى الساسة اليابانيون أن تهاجمهم السفن الحربية الأمريكية بما عليها من عتاد حربى متطور، فاق كل ما كان لديهم من تصورات استلهموها من قراءاتهم الهولندية، فإن حدث أى صدام مسلح، سيكونون هم الخاسرين، وسيصيبهم لا محالة ما أصاب الصين فى حربها ضد إنجلترا حين منعت تجارة الأفيون فى بلادها، فهاجمهم الإنجليز واستمرت الحرب عامين (١٨٤٠ـ١٨٤٢م) صارت بعدها الصين شبه مستعمرة، واضطرت إلى عقد اتفاقيات مجحفة مع الدول الأوروبية.

هكذا اضطرت الحكومة العسكرية أن تنهى بيدها قرار العزلة التى فرضتها لما يزيد على قرنين من الزمان، حفاظًا على استقلال جزرها، وقبلت مرغمة أحد الأمرين، وهو عقد معاهدات مجحفة، غير متكافئة مع الأمريكيين، فقد جاء بيرى فى العام التالى ومعه الدبلوماسى «توماس هاريس» (١٨٠٤ ـ ١٨٧٨م) ليكون أول قنصل أجنبى يقيم على الأرخبيل اليابانى، فعقد معاهدات تجارية مع حكومة توكوجاوا التى اضطرت أن تفتح موانيها أمام إنجلترا، وفرنسا، وهولندا، وروسيا الذين طالبوا بالمعاملة بالمثل مع أمريكا ووقعت معهم الحكومة معاهدات مماثلة، إلا أن أمريكا وقعت أيضًا اتفاقية بأن تكون الدولة الأولى بالرعاية. ولم تسمح الحكومة لرعايا تلك الدول بالدخول إلى البلاد، بل خصصت لهم بعض المناطق المحيطة بالموانئ الخمس التى سمحت لسفنهم بالتردد عليها، وحظرت عليهم التعامل مع الشعب، إلا أنه لم يمض غير وقت قصير حتى صار لهؤلاء الأجانب امتيازات فى مناطقهم، وأخذت الحكومة تفقد سيطرتها على ما يحدث داخل تلك المناطق، ولم تستطع أن

تفرض عليهم ما كان يجب أن تحصله من رسوم جمركية. ونجح الكثيرون منهم فى شراء البضائع اليابانية من خيوط حريرية وذهب، وأطنان من الأرز ـ الغذاء الرئيسى للشعب اليابانى ـ بأضعاف السعر الذى تشتريه الحكومة من القائمين على تجارة الجملة داخل البلاد، مما أحدث خللًا اقتصاديًا كبيرًا فى الأسواق الداخلية، وزاد سخط الشعب اليابانى على الحكومة، التى لم تستطع تأمين الحياة اليومية لمواطنيها فى الداخل، بعد أن أخفقت فى سياستها الخارجية أمام الضغوط الغربية.

أثارت سياسات الحكومة اعتراضات كثيرة، وزادت من عدد المناوئين لها حتى من بين حكام الإقطاعيات أنفسهم، الذين صاروا من أصحاب تلك الأفكار السلفية ذات المرجعية الأسطورية، والتى رأت فى البيت الإمبراطورى ملاذها الذى يمكن لكل اليابانيين أن يلتفوا حوله ليدافعوا عن استقلال بلادهم الذى بدأ إخفاق حكومة توكوجاوا فى الحفاظ عليه واضحًا، وصار تراجعها إلى الخلف متسارعًا مع أقل ضغط من الأجانب، فقامت حركة سياسية تدعو إلى طرد الأجانب واحترام مكانة الإمبراطور، ما لبث أن اجتمع حولها العديد من الساموراى وطبقات الشعب الأخرى، بل ونجح بعض شباب الساموراى فى الإمساك بزمام الحكم فى مقاطعاتهم، ودفعوا بتلك الحركة إلى أن تدعو إلى إسقاط الحكومة العسكرية، ونجحوا فى أن تختفى عبارات طرد الأجانب من شعارات الحركة، بعد أن تعرضت سواحل بعض المقاطعات إلى طلقات المدفعية الإنجليزية، وعملوا من جانبهم على اتخاذ المنهج الواقعى فى التعامل مع الأجانب، وسعوا لمعرفة سر قوة تلك الدول الأوروبية، وحرصوا على ألا ينجرفوا وراء شعارات ترتفع إلى السماء دون أن تكون لها دعائم على أرض الواقع. وشجعت الحكومة العسكرية ذلك الاتجاه فأرسلت البعثات المؤلفة من عناصر متنوعة من شباب الساموراى وحكمائهم إلى أمريكا وأوروبا للدراسة والبحث، وأعطت بذلك الفرصة لجيل جديد من الشباب الواعى ليأخذ دوره فى إحداث الإصلاح والتغيير.

إلا أن الحراك السياسى والاجتماعى فى الداخل ظل فى تصاعده واحتدم الصراع بين المناوئين والحكومة، حتى وصل إلى حد الصدام المسلح بين جيش الحكومة وقوات المقاطعات المتحالفة ضدها، وصار استقلال اليابان كلها مهددًا، إذ كان أى تدخل عسكرى خارجى سيوقع البلاد تحت سيطرته واحتلاله.

وهنا بادر الشوجون «توكوجاوا يوشينوبو» (١٨٣٧ ـ ١٩١٣م) ويأتى ترتيبه الخامس عشر بعد مؤسس الأسرة توكوجاوا إياسو، بإصدار قراره فى ديسمبر عام ١٨٦٧م، بإرجاع السلطات السياسية إلى البيت الإمبراطورى. انتهز المناوئون الملتفون حول الإمبراطور هذه الفرصة، وأعلنوا بدورهم عودة الحكم الإمبراطورى المباشر إلى اليابان، واستعادة كل الأراضى والإقطاعيات من أسرة توكوجاوا، وتجميع كل السلطات فى يد ما عرف «بالحكومة الجديدة» والتى جاءت بالإمبراطور الجديد «موتسوهيتو» (١٨٥٢ ـ ١٩١٢م) الذى كان فى الخامسة عشر من عمره، لتلتف حوله الحكومة والشعب، وأطلقوا على عصره الذى استمر حتى عام ١٩١٢م اسم «ميچى». وبدأت معه اليابان عصرًا جديدًا فى بناء دولتها الحديثة التى كانت لها مقوماتها المتميزة فى الانتقاء من تراثها ما يمكن أن تبنى عليه نظمها الجديدة التى تناسبها، وتدفعها إلى الأمام لتحقيق أهدافها السامية.

٤

قد يكون من الطبيعى أن يحاول البعض المقارنة بين بعض محاولات التحديث التى شهدتها بلادنا فى عصور مضت، لكن الموضوعية والحياد العلمى، يلزمنا أن نقف على حقيقة التجربة اليابانية بكل جوانبها أولاً، ثم ننظر فيما كان لدينا من تجارب قد تتشابه فى قليل منها مع ما قام به اليابانيون، ربما كان ذلك التشابه فى طريقة الالتقاء بالغرب، أو فى الإطار الخارجى للتعامل معه، أما فى التفاصيل وما يختص بطريقة التفاعل مع الآخر، وما أخذوا منه، وما لم يأخذوا، وما فعلوا بما أخذوا وكيف استمروا بعد ذلك؟ فقد تم ذلك كله بمشاركة واعية من فئات الشعب المختلفة وفى إطار من التوجه العام الذى قاده المفكرون وقادة الرأى الذين كانوا هم أنفسهم مشاركين فى صنع القرار، وكيف استطاعوا أن يجمعوا كل تلك الفئات فى منظومة واحدة؟ وعلى الجانب الآخر، كانت لدينا تجربة لم يكتب لها الاستمرار ربما لأنها قد حرمت من كل تلك المقومات، ولأنها ارتبطت بفترة لم تكن فيها كل تلك المشاركة التى كانت لفئات الشعب اليابانى، ولذلك سرعان ما انتهت طموحاتها عند أول اصطدام لها بالمصالح الغربية، ولم تستطع إعادة بناء نفسها من الداخل، لأن

الداخل لم يكن هو الهدف منذ البداية، ولم يكن ينظر إليه على أنه الأساس الحقيقى للنهضة فى بلادنا.

على كل حال، هذا أمر قد تتطرق إليه دراسات أخرى واعية لابد أن تتوافر لديها المراجع الكافية، ولا تقف اللغة حائلًا أمام الإلمام بها حتى نقف على ما تحويه من تجارب الآخر ولذلك نقدم هذا الكتاب ليقدم لنا بدوره بعضًا من التجربة اليابانية فى بناء الدولة الحديثة، ويلقى الضوء عليها، لنرى كيف استطاعت اليابان فى السنوات الأولى لعصر ميچى، إعداد الكوادرالبشرية، التى قادت المجتمع اليابانى كله نحو الإصلاح والتغيير؛ وأحدثت مجموعة من الإصلاحات فى كل المجالات. تلك الإصلاحات هى التى يعرفها المؤرخون بـ «إصلاح ميچى» ويشير الجميع إليها بكلمة واحدة صارت مصطلحًا ذا دلالات كبيرة هو «ميچى».

أ.د. عصام رياض حمزة

* شكر خاص للأستاذ/ فوچى شوجو بجامعة أوساكا، لصادق تعاونه.

في البداية
ماذا نتعلم اليوم من «ميچى»؟

منذ مائة عام، وفى العام الثامن والثلاثين من عصر ميچى (١٩٠٥ م)، انتصرت اليابان فى حربها مع روسيا، فأعطت للعالم بذلك صدمة قوية. فقد كان حدثًا أثبتت فيه اليابان، التى كانت حتى ذلك الحين تعتبر دولة صغيرة ضعيفة من دول الشرق، أنها تستطيع وفى فترة وجيزة أن تتحول إلى دولة حديثة تقف فى مصاف الدول الغربية القوية.

وبعد مرور قرن من الزمان ——

تقف اليابان المعاصرة عاجزة عن استشراف مستقبلها بوضوح، وهى مثقلة بالعديد من المشكلات، مثل قلة المواليد وارتفاع متوسط الأعمار، وقلة القوى العاملة، وانخفاض القدرة التنافسية، وانهيار دور المدارس.

ماذا يجب علينا الآن أن نفعل؟

ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال؛ ولكن يابان ميچى التى استقبلت فترة التغيير مثلما نحن فيه الآن، أنجزت الكثير من الإصلاحات، الواحد تلو الآخر، فلا شك أنها ستكون لنا معلمًا على الطريق إن عرفنا الخطوات التى أنجزت فيها تقدمًا سريعًا فى فترة وجيزة.

إذا، ماذا كانت ماهية ذلك التغيير الذى حققته اليابان فى عصر ميچى؟

كان ذلك هو التساؤل الذى بناء عليه قامت هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية بإنتاج حلقات خاصة بعنوان «ميچى». وكان الغرض من البرنامج هو تلمس ما يمكن الاسترشاد به اليوم، من خلال تتبع مراحل التغيير فى عصر ميچى.

كيف يمكن لنا أن نتناول صورة اليابان التى استطاعت تغيير وضعها من بلد قديم مكون من إقطاعيات فى عصر «إيدو»[1]، إلى دولة رأسمالية حديثة بطريقه يسهل فهمها بصريًا على الشاشة؟

ولحل تلك المشكلة، ابتكرت وسيلة جديدة.

وهى ما تعرف بجرافيك الكرتون Graphic Animation، وهى التى تعيد تجسيد المشاهد التى انمحت باستخدام CG أو الكمبيوتر جرافيك، مسترشدين على ذلك بالصور والخرائط التى تبقت لدينا من عصر ميچى.

حاولنا فى البرنامج استعادة صور لأماكن عديدة ترمز للتغييرات التى حدثت فى عصر ميچى، مستخدمين هذه الوسيلة.

وكانت إحدى هذه المحاولات هى استعادة صورة الشارع المبنى بالقرميد من شوارع حى «جينزا» المبنى بالقرميد.

وكانت النتيجة أن تجلى أمامنا سر التغيير الذى حدث فى عصر ميچى مجسدًا فى أشكال عدة، فى ذلك الحى الذى قيل عنه أيضًا أنه واجهة العرض الزجاجية للانفتاح الحضارى.

وإذا لخصنا ذلك السر فى عبارة واحدة، يمكننا أن نقول إنه ذلك التغيير الجسور للمجتمع، والقدرة المدهشة على التوفيق والملاءمة التى تعيد صياغة التقنيات الغربية بما يتفق مع المناخ اليابانى، ويتوافق مع الظروف الواقعية لليابان.

مثال على ذلك، برج الساعة المرتفع فى التقاطع الموجود فى الشارع الرابع. فقد بدأ اليابانيون فى استخدام التقويم الشمسى مع دخولهم فى عصر ميچى، وصاروا يدبرون شئون حياتهم، ويوزعون يومهم على أربع وعشرين ساعة، وكان وجود هذا المبنى أمامهم رمزًا على التحول فى الإحساس بالزمن.

بجوار متجر الساعات، يوجد محل المركبات الخفيفة ذات العجلتين التى يجرها

(١) عصر إيدو: (١٦٠٣ـ ١٨٦٨م)، وهو العصر الذى حكمت فية أسرة توكوجاوا اليابان، وسمى بعصر إيدو منذ أن اتخذ توكوجاوا إياسو مؤسس الأسرة، من مدينة صغيرة تسمى «إيدو» موقعًا لبناء قلعته، ويطلق عليه أيضا عصر توكوجاوا، والذى انتهى بقيام دولة ميچى الحديثة. (المترجم).

السائقون «چينريكشا». لقد ابتدع الناس فى عصر ميچى أشياء أضافوا إليها خصائص ومميزات يابانية مع الثقافة الغربية، مثلما فعلوا مع تلك المركبات.

أيضا ذلك الترام الذى يقطع الشارع الكبير ذهابًا وإيابًا، هو أيضًا مركبة اجتمعت لها أطراف التقنية الميكانيكية فى بدايات القرن العشرين.

لم تكن المدينة بشوارعها ومبانيها فقط هى التى تغيرت.

التعليم أيضًا تغير.

حاولنا فى البرنامج إعادة تجسيد مشاهد الحصص والدروس فى أوائل عصر ميچى.

كان المشهد الذى ظهر أمامنا هو صورة لعدد كبير من الأطفال فى حجرة الدراسة، يتلقون دروسهم على الطريقة الجديدة، بدلًا من الفصول الملحقة بالمعابد البوذية «تيراكويا» فى عصر إيدو.

وتلك الطريقة الجديدة هى «تدريس نفس المقرر لكل الطلاب على حد سواء فى نفس الوقت». فقد كان الأطفال فى الفصل الملحق بالمعبد البوذى، يجلس كل منهم فى المكان الذى يحلو له، ويمر المعلم بين الطلاب فيوجه كل منهم منفردًا، أما فى الطريقة الحديثة، فكل الأطفال يجلسون متجهين نحو السبورة، ويقف المعلم بمفرده فى مواجهتهم، ويعلمهم نفس المعلومة مجتمعين فى نفس الوقت. ويتضح ذلك الفارق جليا إذا ما قارنا صورة مرسومة لأوضاع فصل ملحق بمعبد فى عصر إيدو، بصورة لمشهد دراسى فى عصر ميچى.

لقد أفاد اليابانيون فى عصر ميچى من حجرات الدراسة التقليدية الملحقة بالمعابد كأساس، فوضعوا عليه النظام الغربى، وجعلوا من الممكن إكساب عدد كبير من الأطفال المعارف الجديدة بكفاءة واقتدار.

هناك أيضًا أشكال أخرى عديدة للتغيرات التى حدثت فى اليابان خلال عصر ميچى، اتضحت أمامنا بعد إعادة تجسيدها باستخدام الكمبيوترجرافيك.

مثل إدخال التقنيات المتقدمة للسكك الحديدية وغيرها، وبناء المصانع الكبرى.....

التنظيم الحديث للضرائب والأراضــى، ووضع الدستور، وإقــرار النظام البرلماني.....

عديد من الظواهر التى توضح التحول من دولة إقطاعيات فى عصر إيدو إلى دولة حديثة تنزلج فى اتجاه الغرب. وقد تحقق كل ذلك فى فترة وجيزة.

كيف صار ذلك ممكنا؟

وكيف كانت حكمة التغيير وحصافته؟ وكيف كان التوفيق والملاءمة؟

الآن، واليابان فى مرحلة انتقالية، هناك من يوصى بضرورة الالتفات إلى عصر ميچى الذى كان نقطة الانطلاق لليابان الحديثة.

إنه الدكتور/ بيتر فرناند دراكر، عالم الإدارة والمقيم فى مدينة كليرمونت بولاية كاليفورنيا بأمريكا.

نادى الدكتور/ دراكر فى الستينيات من القرن الماضى بأهمية الإدارة، وعرف باهتمامه المبكر بالنمو الاقتصادى اليابانى ذى المعدلات المرتفعة. وقد ألف العديد من الكتب التى حققت أفضل مبيعات، ومنها: «الإدارة»، و«عصر التفكك»، وصدر له مؤخرًا «المجتمع القادم»، وهو يحظى بإعجاب الكثيرين من رجال الإدارة اليابانيين.

وقد اهتم الدكتور/ دراكر فى عدد من مؤلفاته بالتغيير اليابانى فى عصر ميچى، وقال إن هناك الكثير مما يجب تعلمه من ذلك التغيير. وقد استجاب الدكتور/ دراكر - والذى يعد من القلائل العارفين بالشأن اليابانى - لرغبتنا فى أن يتحدث إلى اليابانيين عن «أهمية عصر ميچى»، وقبل بتسجيل لقاء معه استمر يومين، وهو وقت أطول من المعتاد.

الدكتور/ دراكر من مواليد عام ١٩٠٩ م، فقد بلغ السادسة والتسعين من عمره هذا العام (٢٠٠٥ م)، إلا أنه ما زال فى صحة جيدة، منضبط العقل، لم يظهر تعبًا، وظل يعبر عن آرائه فى ميچى وفى اليابان فى نبرة لا تخلو من حماسة.

جرى الحديث فى مسارات كثيرة، من سر التغيير فى عصر ميچى، إلى الإرشادات والدلائل اللازمة لليابان المعاصرة.

وقد ركز الدكتور دراكر فى حديثه على أن عصر ميچى يحمل معنى هاما للغاية، ليس لتاريخ اليابان فحسب، بل أيضًا لتاريخ العالم.

يقول بيتر دراكر:

لقد صنع عصر ميچى بحق «تاريخ العالم»، فقبل ميچى كان الغربيون يتحكمون فى العالم تحكمًا كاملًا. وهنالك بدأت يابان ميچى فى الظهور كدولة غير غربية لأول مرة تملك قوة عسكرية ضاربة، وقوة اقتصادية قوية.

كما أن اليابان فوق ذلك، كانت الدولة الوحيدة غير الغربية التى حققت التحديث.

أما الدول الأخرى التى تلت اليابان بعد ذلك، فقد ظهرت بعد حرب الباسيفيك (أثناء الحرب العالمية الثانية).

فالصين الآن تنهض وتتخذ سبيلها لتكون دولة عظمى، وبدأت الهند أيضًا فى إيجاد مكان هام لها فى المجتمع الدولى.

وبذلك يكون ميچى قد غير جذريًا تاريخ العالم، ويمكننى القول بأنه قد حول ما كان قبله من مجرد «تاريخ للغرب» ليكون «تاريخا للعالم» بمعنى الكلمة.

هناك شخص آخر يظهر اهتمامًا بالإرشادات والدلائل التى تعطيها اليابان فى فترة ميچى، إلى اليابان المعاصرة؛ إنه السيد/ كاتو شوئيتشى، الناقد ذو المعرفة العميقة بكل من الثقافتين اليابانية والغربية.

كتب السيد/ كاتو المولود فى عام ١٩١٩ م فى كتابه «ثقافة اليابان المعاصرة والمجتمع» الذى يتناول فيه طريقة تحديد موقع اليابان الحديثة من تاريخ الحضارة، ويحلل كيف أن اليابان بعد إصلاح ميچى أدخلت إليها الحضارة الغربية وتعاملت معها. كما كتب أيضًا العديد من المقالات التحليلية التى اتخذت من حقبة ميچى مادة لها مثل: «فوكوزاوا يوكيتشى»[1] و«تلخيص نظرية الحضارة».

---

(١) فوكوزاوا يوكيتشى (١٨٣٤-١٩٠١ م): مفكر، واحد من رواد التعليم الحديث فى اليابان، رافق الوفود والبعثات التى أرسلتها حكومة توكوجاوا إلى أوروبا وأمريكا ثلاث مرات. بعد قيام حكومة ميچى، لم يقبل العمل فى الوظائف الحكومية، واتجه إلى العمل المدنى فأنشأ عام ١٨٥٨ م مدرسة خاصة

من بين الأمور العديدة التى يجب تعلمها من ميچى، يهتم السيد/ كاتو بصفة خاصة «بالروح الاستقلالية».

يقول كاتو شوئيتشى:

إن ما يجب أن نتعلمه من ميچى، هى تلك الروح الاستقلالية.

لم تكن فترة ميچى فيما قبل الحرب اليابانية الروسية، فترة غزو ولم تكن ذات نزعة توسعية، بل كانت تستهدف نوعا من الاستقلال.

فطلب المساواة ليس نزعة للتوسع، ولا دعوة للعدوان والهجوم. ولكن لأن المساواة من الطبيعى أن تكون موجودة وجوبًا، فأعتقد أنها كانت تستهدف الاستقلال كحق كل دولة فى المساواة.

وأعتقد أيضًا أن الاعتداد بالذات كان هناك، فقد كان ذلك الجزء الخاص باستهداف الاستقلال مع حمل إرث الثقافة اليابانية، موجودًا فى العمود الفقرى لميچى.

سوف نقوم بإصدار البرنامج التليفزيونى الخاص «ميچى» فى ثلاثة كتب، وهذا هو الكتاب الأول، الذى سنتلمس فيه إرشادات تنفع اليابان اليوم، ونحن نتناول عصر ميچى فى نظرة عامة شاملة، مع التركيز على ما قاله العالمان الكبيران: دراكر، وكاتو اللذان يمثلان الشرق والغرب عن «حكمة التغيير والابتكار».

وذلك كما يلى:

أولا: فى الفصل الأول، نحدد الميزة الأساسية للتغيير فى عصر ميچى والتى أشار إليها كل من دراكر وكاتو مجتمعين وهى«الجمع بين القديم والجديد»، وهى طريقة خاصة فى التغيير.

نحلل طريقة الجمع بين القديم والجديد تلك من ثلاث زوايا: الاهتمام بالتعليم، وتفعيل العنصر البشرى، واستقلالية الثقافة، وذلك فى الجزء من الفصل الثانى حتى الفصل الخامس من هذا الكتاب.

صغيرة، صارت نواة لأشهر الجامعات اليابانية الخاصة بعد ذلك وهى جامعة «كيو». شارك فى جماعة «العام السادس من ميچى» وساهم من خلال إصداراتها فى نشر أفكار التنوير والانفتاح على الغرب من أهم أعماله: «أحوال الغرب»، و«دعوة إلى العلم»، و«مدخل إلى نظرية الحضارة»، و«نظرية الخروج من آسيا»، و«مذكرات العم فوكوزاوا الشخصية». (المترجم).

تلى ذلك فى الفصل السادس، دراسة لخصائص هؤلاء الناس من عصر ميچى الذين جعلوا ذلك التغيير ممكنا، إنها تلك المقدرة العالية غير العادية على إدراك الواقع، والمهارة فى طريقة ترتيب الأولويات.

ومن ناحية أخرى، يتناول الفصل السابع من جديد تغير اليابان فى عصر ميچى، وما جاءت به نتائجه، كأجراس إنذار للعصر الحالى.

وفى النهاية، يحلل الفصل الثامن قضايا اليابان المعاصرة فى نقاط أربع هى: تناقص عدد السكان، وارتفاع متوسط الأعمار، والمنافسة الدولية، ونظام التعليم. ويسعى فى طلب الاسترشادات الممكنة من تغيير ميچى للمساعدة فى حل تلك القضايا.

كما نزور فى الفصل الثانى «كيوتو» العاصمة القديمة، وفى الفصل الرابع نزور مدينة «تسوانو»، أو كيوتو الصغيرة كما يطلقون عليها فى منطقة «سانئن»، باعتبارهما من الأماكن التى ظهرت فيها خصائص التغيير بشكل عملى فى عصر ميچى، وهى: «بناء الجديد فوق القديم»، ونبحث فيها عن ملامح من ميچى باقية حتى الآن.

كل من كيوتو و تسوانو مدينتان تحملان المظهر القديم لليابان. هاتان المدينتان اهتمتا بالتعليم فى العصر الجديد، وقد تولدت فيهما موجة التغيير، فهما بحق جمعتا بين القديم والجديد، وهما لهذا ظاهرة غنية بالإرشادات والدلائل.

بالمناسبة، فالسيد/ دراكر يعطى اهتمامًا خاصًا لإحدى شخصيات عصر ميچى.

إنه «شيبوساوا إيئيتشى».

فقد كان شيبوساوا ينتمى لطبقة الفلاحين، إلا أنه اختير ليكون بين العاملين فى حكومة «الباكُفو»[1] وبعد قيام ميچى، أصروا على أن يعمل فى حكومة ميچى الجديدة. وقد قام بتقديم العديد من المقترحات والآراء لتطبيق الإصلاح وتحقيق التغيير، ثم تحول بعد ذلك إلى عالم الأعمال، فأنشأ، وساهم فى إنشاء أكثر من خمسمائة شركة كما يقولون. وكان أول ما أنشأه «البنك الأول» الذى كان أول بنك فعلى وحقيقى ينشأ فى اليابان.

---

(١) الباكُفو: اسم كان يطلق على سلسلة الحكومات العسكرية التى حكمت اليابان من القرن الثانى عشر، حتى قيام حكومة ميچى عام ١٨٦٨ م، وكان آخرها حكومة توكوجاوا. (المترجم).

وكما يقول دراكر: فان شيبوساوا إيئيتشى هو الشخص الذى يرمز إلى العصر المسمى بميچى، والذى نجح فى أن يجمع بين القديم والجديد.

يقول دراكر:

إن ميزة العصر المسمى ميچى هو استخراج القدرات الدفينة التى كانت تحملها اليابان القديمة بمهارة، ولكن ذلك يظهر متمثلا فى أسلوب حياة شيبوساوا إيئيتشى الإنسان.

تعلم شيبوساوا اللغة الفرنسية، وأقام فى أوروبا، وبحث فى النظم الفرنسية والألمانية، ثم وافق بين تلك النظم الأوروبية، وبين ما كان قائمًا بالفعل من نظم يابانية.

إنه شىء فريد بحق، فلا يوجد بلد آخر، أو أناس آخرون أنجزوا مثل ذلك الإنجاز.

ومن هنا، وفى هذا الكتاب، وبخاصة فى الفصلين الرابع والخامس اللذين يتناولان تفعيل العنصر البشرى، نتتبع آثار شيبوساوا، وكذلك آثار «يامانوبيه تاكيؤ»، الذى اكتشفه شيبوساوا.

تحول يامانوبيه تاكيؤ من «ساموراى» فى إقطاعية تسوانو إلى رجل تقنى، فهو الرجل الذى وضع الأساس للثورة الصناعية فى اليابان، كمدير لشركة «أوساكا» للغزل والنسيج.

شيبوساوا ويامانوبيه يجسدان معًا تغيير ميچى، وسوف نحل رموز أسرار التغيير من خلال مسلكيهما كقضية إنسانية أكثر قربًا منا.

وستكون سعادتنا بالغة إن استطعتم التعرف على حكمة التغيير والابتكار النادرة المثال. إنها قدرة الناس فى عصر ميچى على التغيير والتى يرمز لها شيبوساوا.

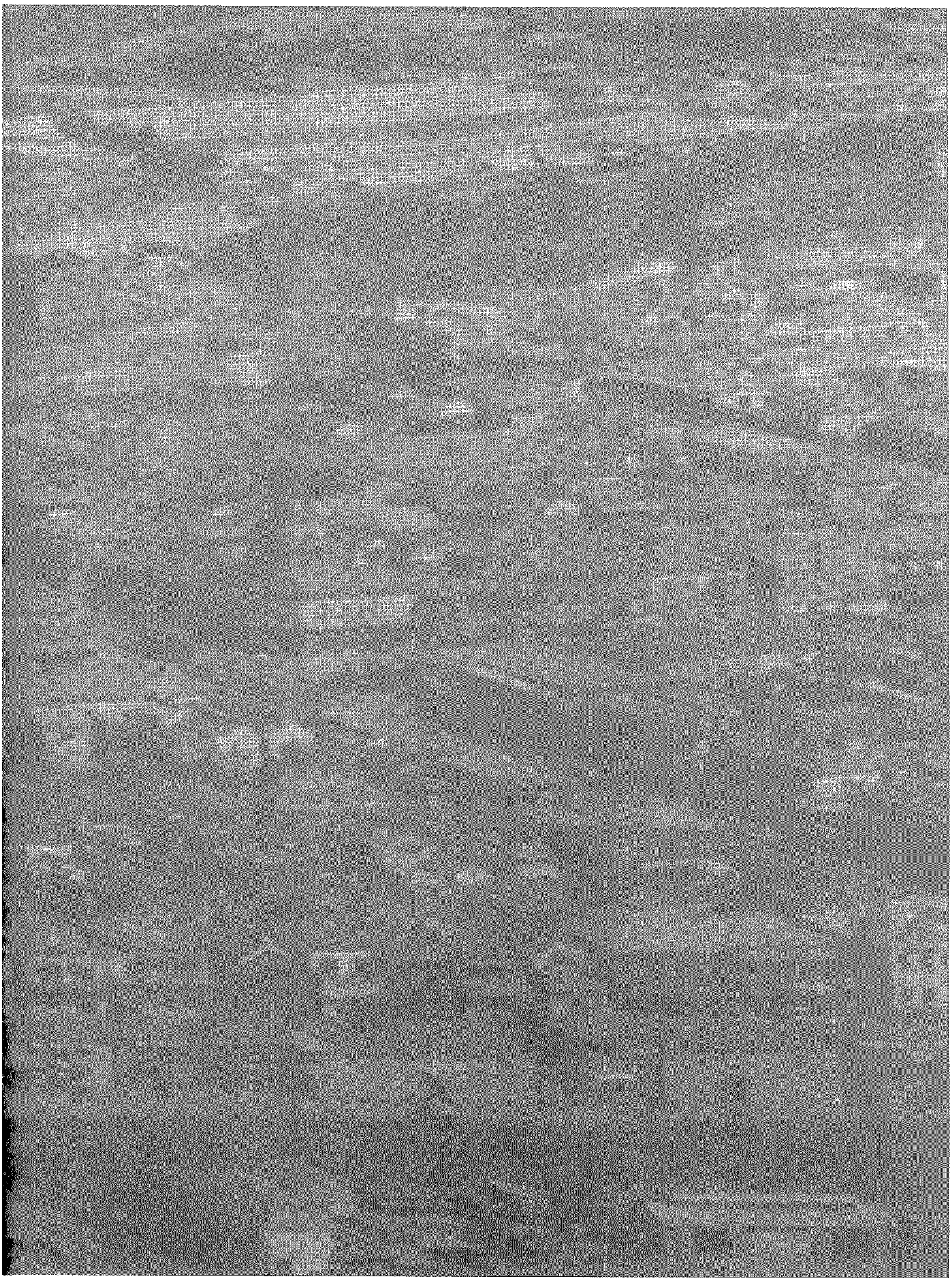
يقول دراكر:

إن اليابانيين الذين يمثلهم شيبوساوا، أدخلوا الأشياء الجديدة من الخارج ثم أعادوا تصنيعها حتى تتناسب معهم، وهم فى ذلك يملكون موهبة مدهشة، لا يستطيع أن يقلدهم فيها الآخرون.

فأنتم أيها اليابانيون البلد الوحيد، والشعب الوحيد الذى استطاع أن يوازن بين ما لديه من ثقافة قديمة ذات خصوصية، وبين الثقافة الغربية الحديثة.

ولا يوجد مثال آخر فى تاريخ العالم لمن قام بمثل ذلك.

إن ذلك ما نسميه «ميچى».



مشهد لحى جينزا فى طوكيو، فى الثلاثينيات من عصر ميجى



الفصل الأول

خصائص يابان ميچى

صناعة الجديد بالإفادة من القديم

يشترك العالمان دراكر وكاتو بداية فى الإشارة إلى عناصر نجاح التغيير فى يابان ميچى.

إن مميزات تغيير ميچى الذى قد رأينا لمحة منها فى مبانى حى جينزا، وهى «الحفاظ على خصائص الثقافة اليابانية فى الأساس التقليدى الباقى، والإفادة من مزاياها، وإدخال ما هو جديد من الغرب».

عن هذه الميزة الأساسية نستشهد بأفكار العالمين:

أولا: الدكتور دراكر.

يقول دراكر:

إن العصر المسمى بميچى، هو عصر فريد، ومن أكثر عصور التاريخ المختلفة إثارة للاهتمام. ولا يوجد مثال لما حدث فيه فى أى بلد آخر.

فقد تم بناء اليابان الجديدة بإدخال أفكار وتقنيات ونظم دول أجنبية، وإعادة بنائها على أسس يابانية قديمة.

لقد مرت اليابان فى تاريخها الماضى بما يشبه تغيير ميچى عدة مرات. ففى عصر

«هيَّان»[1] أقامت دولة بطريقة مشابهة. ومرت أيضا بتجربة مشابهة فى بداية عصر الحروب الأهلية[2] ثم كان ميچى التجربة الثالثة.

وقد حدث نفس الشىء أيضًا بعد حرب الباسيفيك، ولكن يمكننى القول إن ميچى كان هو التغيير الأكبر بينها جميعًا.

إن ما يجعل يابان ميچى فريدة فى تاريخ العالم، هو محاولة بناء المجتمع الحديث والنظم الحديثة على أسس يابانية تقليدية.

ومنذ عصر ميچى حاولت عدة دول نامية أن تفعل مثل ما فعلته يابان ميچى ولكنها لم تستطع.

ذلك أن التحديث فى الهند أو الصين اعتمد على تدمير تقاليد الماضى.

لك أن تتخيل أن فى الهند اليوم من يجعلون من الإنجليزية لغتهم الأولى ويبلغ عددهم حوالى (٢٠٠) مليون شخص: هؤلاء جميعًا انفصلوا تمامًا عن المجتمع الهندى التقليدى، ويعيشون داخل مجتمع الاقتصاد الحديث.

ويمكننى أن أقول إن هؤلاء الناس يرفضون الهند بشكل أساسى، وحتى فى الصين فالظروف أيضًا تتشابه فى معظمها مع الهند.

اليابان فقط هى التى نجحت فى بناء مجتمع حديث فوق ما تسلمته من عصور سابقة.

فى واقع الأمر، لقد كان ميچى هو السبب فى انجذابى نحو اليابان منذ أكثر من سبعين عامًا. عندما عرفت بالمصادفة عن العصر الذى يسمى ميچى، كنت لا أزال شابًا وأعيش فى إنجلترا، وقد بهرنى ميچى تمامًا.

ولأقدم مثالًا بسيطًا على إقامة الحداثة فوق التقاليد. فأنتم أيها اليابانيون قمتم بتحويل نظام الإقطاعيات وحكام الإقطاعيات فى عصر إيدو، إلى مجموعات

---

(١) عصر هيَّان (٧٩٤ـ١١٩٢م): أعادت فيه اليابان تأسيس الدولة على النظام والقانون. (المترجم).

(٢) عصر الحروب الأهلية (١٤٧٧ـ١٥٧٤م): تسبب صراع أمراء الإقطاعيات فى نشوب حروب استمرت قرابة القرن، حتى استطاع أودا نوبوناجا (١٥٣٤ـ١٥٨٢م) أن يسيطر على زمام الأمور ويوحد البلاد تحت إمرته. (المترجم).



بيتر دراكر: عالم فى الإدارة

ولد فى ڤيينا عام ١٩٠٩م، تخرج فى جامعة فرانكفورت بألمانيا. يشغل الآن منصب أستاذ بمرحلة الدراسات العليا فى جامعة كليرمونت بالولايات المتحدة الأمريكية. له تأثير كبير على عالم رجال الأعمال، خاصة فى فلسفة وطرق الإدارة. له العديد من المؤلفات منها «عصر التفكك»، و«الإدارة»، و«الذى يتحكم فى الغد».

من الشركات توارثت نظام عصر إيدو. فى هذا النظام يعترف للمقاطعة باستقلالية واسعة فى الإدارة كأحد مكونات النظام، وتدين فى نفس الوقت بالولاء الكامل لحكومة الباكْفو. كل شركة من الشركات، ومجموعات الشركات فى اليابان توارثت هذا النظام.

لقد نجح هذا النظام نجاحًا باهرًا، ولا نرى له مثيلًا فى التاريخ.

ويمكننا أن نقول الشيء نفسه حتى عن المؤسسات العامة وليس الشركات الخاصة فقط. فمنذ الخمسينيات وحتى أوائل الستينيات من القرن الماضى، عملت لفترة ليست بالطويلة مستشارًا لبعض هيئات التنظيمات المحلية فى اليابان، وكان مما ترك لدى انطباعًا قويًا فى تلك الفترة، أن التنظيمات المحلية اليابانية على الرغم من أنها ذات تشكيل وتنظيم حديث للغاية، إلا أنها فى نفس الوقت تقليدية إلى أبعد الحدود.

وهذا فى حد ذاته شيء فريد للغاية.

من ناحية أخرى يحلل السيد/ كاتو المراحل التى تبلورت فيها شعار «روح يابانية وتقنية غربية» فى عصر ميچى كما يلى:

يقول كاتو:

إن المدهش فى الأمر أن عصر «توكوجاوا» كان تأثير الدول الأجنبية، والتأثير الخارجى عليه محدودًا للغاية لبضع مئات من السنين. إلا أنه قبل أن يبدأ إصلاح ميچى بفترة قليلة، بدأ فى الانفتاح على العالم، عندئذ، وحين بدأ إصلاح ميچى، كان فيه ذلك المضى فى طريق التحديث على غرار النموذج الغربى، وبدأت أشياء كثيرة تدخل إلى البلاد تباعًا.

فى البدايات الأولى، كانت هناك العديد من الآراء والأفكار التى نادى بها الناس: فمنهم من كان يحمل أفكارًا تدعو إلى اتباع النمط الغربى بشكل مغال فيه، وأفكار تدعو إلى الانتقاء والاختيار، وأنه من الأفضل ألا يتم التغريب فى كل شيء كيفما اتفق، بل كان هناك من يعترض على ذلك بحجة أن ذلك التحديث، وذلك النمط الغربى لا يتفقان واليابان ويريد أن يسعى إلى أبعد حد لإزالة مثل تلك الأمور.

ينسحب ذلك أيضًا على ما يتعلق بنظم المجتمع كلها. بل يمكن أن يقال كذلك فيما يتعلق بمجالات أكثر تحديدًا، مثل الخزف والفخار، أو اللوحات الفنية، أو العمارة والبناء. وكلها مجالات لها تقاليدها الفنية التليدة، وذات خصوصية شديدة التميز. فكان من أصحاب تلك المجالات من ينادى بالتخلص مما هو غربى، ويريد المضى قدما بالتقاليد اليابانية الخالصة وفقط.

كان مثلهم كثيرون، ولكنهم بمرور الوقت، أى فى حوالى العشرينيات من عصر ميجى، بدأوا يتفقون شيئًا فشيئًا؛ أخذوا ينقسمون إلى أنماط ثلاثة، وإن لم تكن قسمتهم بينها بالتساوى، بل نرى أنه كان هناك توجه عام نحو الاتفاق تدريجيًا حول خط واحد كاتجاه عام.

وحين ننظر كيف انتهوا إلى ذلك، نجد أن الأفكار التى كانت تدعو إلى اتباع النمط الغربى وحده لم تنجح رغم كل المحاولات. وعلى الجانب الآخر، كان الداعون إلى تغليب النمط اليابانى الخالص قلة قليلة من الشعب، إذ أصبح من الصعوبة بمكان تحقيق ذلك. فعلى سبيل المثال: تتغير المدن، وتتغير وسائل المواصلات، وتتغير الأطعمة، أما الملابس والأزياء فتأخرت قليلًا، ومع ذلك كان من الصعب الحفاظ على كل ما هو يابانى خالص، فقد كان التأثير الغربى فى سبيله للوصول إليه. لكن إذا كان هناك من يتمتع بخصوصية كاملة، كأن يكون فنانا كبيرًا ذا حياة ثابتة مستقرة، من الممكن أن يستمر على يابانيته الخالصة دون تأثير، ولكن بشكل عام يصير ذلك مستحيلًا.

وهكذا أصبح النمط الوسطى هو الأساس؛ أى أن الرأى القائل بأن يكون الأمر اختياريًا بدرجة ما، والذى يدعو إلى الاحتفاظ بنصف غربى ونصف يابانى تقليدى صار قويًا.

عندئذ تظهر آراء تجعل من ذلك الأمر فى حد ذاته نظرية، ولعل أكثر تلك الشعارات شهرة هو شعار «روح يابانية وتقنية غربية». من الناحية التقنية، كانت السكك الحديدية، والمبانى الكبيرة، من تلك الأشياء التى ظهر فيها التأثير الغربى أولًا.

بناء أشياء جديدة فوق شيء قديم.

أو إدخال التقنية الغربية مع الإفادة من التقاليد اليابانية.

تلك الطريقة، كانت هى العامل الرئيسى الذى جعل اليابان تحقق فى عصر ميجى تغييرًا سريعًا، وتتحول إلى دولة حديثة تقف فى مصاف الدول الغربية الكبرى.

يرجع هذا أيضًا إلى أن اليابان فى الأصل تختلف عن دول أخرى وقعت تحت الاحتلال، فى أنها حاولت أن تتعلم من الغرب بشكل إيجابى، ولم يكن ذلك فى مجرد استعارة لمنتجات الحضارة الغربية واستعمالها، بل فى استيعابها وهضمها ثم إعادة طرحها وقد اكتسبت خصوصيتها الثقافية.

ترى ما هى المراحل التى مر بها ذلك التغيير؟

فى سبيلنا للبحث عنها، سنعيد عقارب الساعة إلى الوراء؛ إلى خمسة عشر عاما قبل قيام ميجى، إلى وقت وصول الأدميرال «بيرى» بسفنه الحربية فى نهاية عصر إيدو، ونسلط الضوء على تلك الطبقة الدنيا من الساموراى، التى صارت بعد ذلك العنصر الرئيسى فى التغيير.

فى بدايات ميجى، كانت اليابان تواجه أوضاعًا تهدد استقلالها.

كانت البداية فى العام السادس من عصر «كائيه» (١٨٥٣م) فى الحقبة الأخيرة من عصر إيدو، حين قاد الأمريكى بيرى ما يعرف «بالسفن السوداء»، ووصل إلى السواحل اليابانية.

حيث نجح بيرى فى أن يجعل اليابان تفتح حدودها معتمدًا فى ذلك على قوة عسكرية تم تحديثها لتكون ساحقة مدمرة. بعد ذلك قامت اليابان بعقد ما يعرف بالمعاهدات غير المتكافئة مع أمريكا ودول غربية أخرى مثل إنجلترا، وروسيا، وهولندا.

وترجع تسمية هذه المعاهدات بغير المتكافئة إلى سببين رئيسيين.

الأول هو أن اليابان لا تستطيع تحديد نسبة الضرائب التى تفرض على البضائع الواردة، بمعنى أنه لم يكن لها حق السيادة الجمركية.

والآخر هو أنه لم يكن لليابانيين حق محاسبة الغربيين الأجانب على الجرائم التى يقترفونها، أى أنه كانت لهم امتيازات أجنبية.

بعد انفتاح البلاد، خصصت مناطق فى أماكن عدة فى أنحاء اليابان سميت بمناطق الأجانب. والآن، عندما نشاهد الصور المتبقية والمحفوظة فى «متحف وثائق فتح الموانئ» فى «يوكوهاما»، ندرك أنه فى أجزاء من اليابان أقيمت مدن طرازها يجعل من يراها يظن أنها قطعة من الغرب.

فى تلك الأثناء، كانت إمبراطورية « شين»[١] فى الصين البلد المجاور، قد هزمت فى حرب الأفيون[٢] ضد إنجلترا، وبدأت السير فى طريق يؤدى بها لأن تكون شبه مستعمرة وصارت اليابان أيضًا معرضة لخطر أن تكون مستعمرة للدول الغربية مثل إمبراطورية شين.

إذا ظلت اليابان هكذا كما هى عليه، فمن المحتمل أن تصبح مستعمرة. تحت تأثير ذلك الشعور بالخطر، وقعت اليابان فى اضطراب داخلى كبير حول المسار الذى كان يجب على اليابان أن تسلكه فى ذلك الوقت.

ثم، ومن داخل ذلك الاضطراب، بدأت شريحة من صغار الساموراى فى قاع طبقة المحاربين تطل برأسها، وتبرز على السطح، وتصبح العنصر الفاعل فى التغيير. يقيم السيد/ كاتو ذلك الشعور بالخطر الذى كان لدى الشريحة الدنيا فى طبقة المحاربين فى أواخر عصر توكوجاوا، ورغبتهم القوية لإحداث تغيير، وأيضًا ما كان لديهم من قدرات عالية.

يقول كاتو:

إن الذين قاموا بإصلاح ميجى، هم شباب من الشريحة الدنيا فى طبقة المحاربين

---

(١) إمبراطورية «شين»: Ching (١٦١٦ـ ١٩١٢): إحدى أشهر الامبراطوريات الصينية. اتخذت من بكين عاصمة لها. ازدهرت فى عهد حكامها الأوائل، إلا أنها بدأت تضمحل وتنهار فى عهد حاكمها الثانى عشر. (المترجم).

(٢) حرب الأفيون (١٨٤٠ـ ١٨٤٢): نشبت بين إنجلترا والصين فى عهد إمبراطورية شين، حين منعت الأخيرة استيراد الأفيون وانتهت بعد عامين بهزيمة الصين، التى اضطرت بعدها لتوقيع معاهدات غير متكافئة مع الدول الغربية الكبرى آنذاك. مثل معاهدة نانكين التى اضطرت بمقتضاها أن تفتح خمسة من موانيها أمام السفن الأجنبية، وتدفع تعويضًا ماليًا لإنجلترا، وبذلك صارت الصين دولة شبه مستعمرة. (المترجم).

الذين سعوا للتغيير والإصلاح لم يكونوا من ذوى المناصب العليا فى نظام الإقطاعيات العسكرية الحاكم ولم يكونوا من طبقة أخرى، كانوا من الطبقة الحاكمة، فقد خرجوا من طبقة المحاربين.

كان لديهم نوعان من الشعور بالخطر، شعور بخطر داخلى، وشعور بخطر قادم من الخارج.

كان الشعور بالخطر الداخلى، نتيجة للانهيار الاقتصادى فى ظل النظام الحاكم، والذى ارتبط بتكرار انتفاضات الفلاحين وتمردهم طوال عصر توكوجاوا.

نحن نعلم عدد الانتفاضات فى كل عام، ولهذا يمكننا ملاحظة ازديادها المفاجئ فى نهاية حقبة توكوجاوا. لقد سبق وكانت هناك فترة فى العصور الوسطى تزايدت فيها تلك الانتفاضات، وشهد عصر توكوجاوا كذلك العديد منها؛ إلا أنها كانت كثيرة وقوية للغاية، لذلك فقد كان الشعور بالخطر قويًا جدًا أيضًا، خوفًا من أن يتقوض نظام الإقطاعيات من جراء تلك الانتفاضات.

الانتفاضة لها قوة التدمير. إنها تمرد وعصيان ضد النظام. إلا أن الانتفاضات لا يكون لديها تصور أو اقتراح لنظام آخر بديل، تحاول إقامته ليحل محل النظام الذى تعارضه أو تتمرد عليه. ليس لديها ذلك البديل على الإطلاق.

كانت دوافعها هى وجود بعض ملاك الأراضى القساة الظالمين، أو التعسف فى جباية الضرائب منهم، وكان أكثر ما يمكن أن تطالب به الانتفاضات هو تغيير الملاك وجامعو الضرائب، أو تأجيل الضرائب وإرجاؤها عاما آخر.

كانت فى معظمها تطالب بتخفيف أو إلغاء الضريبة على الأطيان، ولكنها لم تطالب بإلغاء النظام، أو إحلال نظام آخر بدلًا عنه، وأن يكون هذا النظام البديل هكذا، أو أن يكون بشكل ما، أو بطريقة معينة.

ومن هنا لا يمكن أن نطلق عليها تغييرًا. إنه تمرد يائس، وعصيان بلا طائل أو أمل. إلا أن الانتفاضات ازدادت واتسع نطاقها منذ نهاية عصر توكوجاوا، وحتى أوائل ميچى.



السيد/ كاتو شوئيتشى: ناقد، ومؤرخ للحضارة

ولد فى طوكيو عام ١٩١٩ م، تخرج فى كلية الطب جامعة طوكيو، حاصل على درجة الدكتوراه فى الطب. ذو معرفة واسعة وحس متميز فى إلمام كبير بالثقافات اليابانية والصينية والغربية، وله العديد من النقد المتميز والأنشطة الإبداعية. من مؤلفاته: «مقدمة فى تاريخ الأدب اليابانى»، «مجموعة كتابات كاتو شوئيتشى»، «مجموعة حوارات كاتو شوئيتشى»، «خواطر مرسلة فى الغروب »، وغيرها كثير.

كانت كبيرة كقوة مدمرة، وأعتقد أنها بلغت الحد الذى يمكنها معه أن تهدم المنظومة التى صنعها نظام الإقطاعيات العسكرى.

ولكن كانت فى الشريحة الدنيا لطبقة المحاربين إرادة ليست فقط لهدم نظام الإقطاعيات العسكرى بل للعمل على إقامة شىء جديد. كانت إرادة تسعى لتغيير النظام القائم، وإبداله بنظام آخر تصنعه.

بتلك النية والإرادة، كان الساموراى فى شرائحهم الدنيا فى بدايات إصلاح ميجى، يتحدثون مع بعضهم البعض، ويدعون إلى إقامة نظام بديل لذلك النظام الذى حاولت انتفاضات الفلاحين هدمه. فكانوا يسعون لوضع نظام آخر بديل لما كان قائمًا آنذاك.

أما الشعور الثانى بالخطر، فكان خارجيًا.

كان عصر توكوجاوا عصر عزلة. وكانت السفن الهولندية والصينية فى زمن إمبراطورية شين مستثناة من ذلك ولكن بعدد محدد لكل منهما كل عام. لقد حددوا عدد السفن، وكانت تمنح لها تصاريح بالتجارة. كما كانت هناك علاقة أيضًا مع شبه الجزيرة الكورية. أما غير ذلك من الدول فقد أغلقت البلاد دونها جميعًا.

لكن كثيرًا ما كانت تظهر سفن لإنجلترا وروسيا وغيرهما من الدول الغربية قرابة السواحل اليابانية غير عابئة بقرار العزلة اليابانى. كانت قد بدأت تظهر فى أوائل القرن التاسع عشر تقريبًا، ثم أخذت أعدادها تتزايد من النصف قرن التالى، وحتى حوالى منتصف القرن التاسع عشر؛ وكان آخرها سفن بيرى، وما كان من دخول سفنه الحربية الأمريكية إلى خليج طوكيو (خليج إيدو فى ذلك الوقت) بعد ذلك.

قبيل قدوم بيرى، كانت الدول الأوروبية، وبريطانيا بصفة خاصة تفاوض الصين لتجعلها تفتح البلاد أمام سفنها. ولما لم تنجح فى ذلك، كانت المواجهة العسكرية بينهما فى حرب الأفيون، حيث هزمت الصين، ونفذت بريطانيا ما أرادته بالقوة العسكرية واحتلت « هونج كونج».

كانت الطبقة المثقفة التقدمية من صغار المحاربين، والتى قادت إصلاح ميجى، على دراية ووعى بذلك، وكان لديها شعور بالخطر إن هم جلسوا صامتين، أن

يحدث لهم ما حدث للصين، ومثال على هذا: «ساكوما شوزان»[1] وتلميذه «يوشيدا شووين»[2].

خلاصة القول، إن اليابان اضطرت لفتح البلاد، ولم يكن أمامها إلا أن تقبل، لكن شروط فتح البلاد كانت فى الوقت نفسه تشتمل على بنود مجحفة. فقد أجبرت على قبول ما يعرف بالمعاهدات غير المتكافئة.

فعلى سبيل المثال، لم يكن فى استطاعتها التحكم فى الجمارك، فقد نشأ ما يمكن أن نسميه عالم خاص بالأجانب داخل الدولة ولأنه فى واقع الأمر امتياز أجنبى، فلم يكن لليابانيين القدرة على محاسبة الأجانب إذا ما ارتكبوا جرائم داخل ذلك الحيز الجمركى.

ولهذا فقد كان الهدف الرئيسى للدبلوماسية فى حكومة ميچى، إصلاح وتعديل تلك المعاهدات.

وحتى تتجنب اليابان خطر الوقوع تحت الاحتلال الأجنبى وتحافظ على استقلالها، كان لابد من أن تفعل شيئًا حيال ذلك؛ وتحت تأثير ذلك الشعور القوى بالخطر، كان لابد من الإصلاح.

ولما كان إصلاح ميچى، حاولوا الحفاظ على الاستقلال، بأن أقدموا فى إيجابية هذه المرة على تحقيق التحديث على النمط الغربى.

لقد كان هدف الإصلاح هو الحفاظ على الاستقلال قدر المستطاع، وكان

---

(١) ساكوما شوزان (١٨١١ـ١٨٦٤م): مفكر، وعالم فى فنون القتال. من طبقة المحاربين فى مقاطعة ماتسوشيرو بمنطقة شينشو. درس الهولندية وبعض علوم الغرب. ألّم بفنون المدفعية، نادى بضرورة الإسراع فى تأمين السواحل والدفاع عنها. اغتيل على يد جماعة متطرفة. من أعماله «ثمان طرق للدفاع فى البحر». (المترجم).

(٢) يوشيدا شووين (١٨٣٠ـ١٨٥٩م): أحد شباب المحاربين فى مقاطعة تشوشو، درس علوم الحرب على يد ساكوما شوزان، وتعلم عنه علوم الغرب الهولندية. كان على دراية بالشئون الخارجية بالقدر الذى كانت تسمح به حالة العزلة. حاول التسلل على إحدى السفن الحربية الأمريكية عام ١٨٥٤م والخروج من اليابان، إلا أنه قبض عليه فى ميناء شيمودا، وأودع السجن. أسس مدرسة خاصة عرفت باسم «شوكا سونچوكو» صار تلاميذها فيما بعد من ذوى الشأن فى حكومة ميچى. قبض عليه وتم إعدامه فى إيدو وهو فى التاسعة و العشرين. (المترجم).

ذلك أيضًا تحت تهديد عسكرى. لذلك صار الهدف هو بناء «دولة غنية وجيش قوى».

لقد أبدت طبقة صغار المحاربين (والتى صارت العامل المحرك فى التغيير) قدرة مدهشة حقا على الفهم والاستيعاب. ويمكننى القول إنه كانت لديهم القدرة على اختيار الخطة المناسبة من بين عدة خطط ممكنة لتغيير الأوضاع.

فعلى الرغم من أنه لم تكن لديهم إلا معلومات قليلة، إلا أنهم استخلصوا منها أهم ما فيها، واستنبطوا بمهارة الشكل الجديد للدولة الحديثة. وبهذا المعنى أعتقد أنه كانت لدى قادة ميجى قدرة مدهشة على الفهم والإدراك والتخطيط.

عندما ولدت حكومة ميجى فى نهاية الاضطرابات، اختارت اليابان عن عمد، وبمحض إرادتها الطريق الذى أدخلت منه الثقافة الغربية، وهى ثقافة ذلك الطرف الذى كان يزيد من الضغوط عليها آنذاك.

كان من الممكن أن تقع بهذه الطريقة وتصبح مستعمرة. وتحت وطأة ذلك الشعور بالخطر، كان السبيل الذى اختاره صغار المحاربين والذين صاروا الطبقة الجديدة التى تقود المجتمع، هو ألا يكتفوا بنظرة العداء للغرب، بل أن يكتشفوا فيه نقاط تفوقه فحاولوا إدخال تقنياته إلى اليابان.

يرى السيد/ كاتو أن هناك اختلافًا كبيرًا بين ما كانت عليه إمبراطورية شين فى الصين والتى كانت معرضة أيضًا لخطر أن تصبح مستعمرة، وبين اليابان وهى معرضة لنفس الخطر. وهذا الاختلاف يتمثل فى نقطتين هما: وصول طبقة صغار المحاربين لتمسك بمقاليد الحكم، وما أظهرته تلك الطبقة من قدرة عالية للغاية على الفهم والإدراك.

يقول كاتو:

صغار المحاربين هم الذين أمكنهم التحرك بتلك الإيجابية فى اليابان، أما معظم من كانوا على قمة طبقة المحاربين فكانوا بلهاء، كان الغافلون الأغبياء بينهم أكثر عـددًا من النابهين الأذكياء. بل كانوا جامدين محافظين يتوارثون مناصبهم حتى إن

من ذهب إلى أمريكا ممن كانوا على القمة قبل وفد «إيواكورا»[1] لم يكونوا ذوى نفع.

قبل قيام إصلاح ميجى مباشرة، كانت الأوضاع فى اليابان فى نهاية عصر توكوجاوا تهتز اجتماعيًا، ولهذا استطاع صغار المحاربين أن يأخذوا المبادرة (سلطة القيادة). كان ذلك واضحًا فى مقاطعتى «ساتسوما» (محافظة «كاجوشيما» الحالية)، و«تشوشو» (حاليا محافظة «ياماجوتشى»).

أما فى الصين، فلم يكن الأمر كذلك، فحتى بعد أن لقيت الهزيمة فى حرب الأفيون، لم تكن إمبراطورية شين قد اهتزت بعد، لأنهم كانوا يعتقدون أنه بالرغم مما حدث، ما زالت الصين هى مركز العالم كما كانت من قبل.

فكانوا حتى هذه الفترة، يرون أن ظهور «البرابرة» على حدودهم أمر تكرر مرات عديدة من قبل، وليس بالمستغرب. لهذا ظنوا أن تلك المرة هى إحدى تلك المرات، ومن الأفضل أن يطردوهم أيضًا.

لقد هزموا من بريطانيا فى حرب الأفيون، إلا أن الصين كبيرة، حتى بعد أن هزموا فى هونج كونج، لم يشعروا إزاء ذلك إلا بأنه حادث عارض أصابهم فيه سوء الحظ.

أى أن نظام إمبراطورية شين لم يتعرض ككل للاهتزاز. فظل العظماء والكبار عظماءً كبارًا فى أماكنهم، ولم يفهموا أو يدركوا شيئًا بالمرة. بالطبع كان هناك فى الصين بلا شك من أدرك وفهم، إلا أنهم لم يستطيعوا أخذ المبادرة والانطلاق نحو الإصلاح، وهذا هو الأمر الأهم.

إذا ما تحدثنا عن موضوع «دوله غنية وجيش قوى»، ففى الصين أنفقت إمبراطورية

(١) وفد إيواكورا: أرسلته حكومة ميجى لتفقد الأوضاع فى أوروبا وأمريكا فى نوفمبر ١٨٧١م، وعاد إلى اليابان فى سبتمبر ١٨٧٣م. كان من أهدافه الإعداد والتفاوض من أجل تعديل المعاهدات غير المتكافئة، ودراسة الأحوال السياسية والاجتماعية والنظم الإدارية فى الدول الغربية، كان برئاسة النبيل إيواكورا تومومى (١٨٢٥ـ١٨٨٣م) وهو من أشهر الساسة فى عصر إيدو ثم ميجى. ضم الوفد ما يقرب من مائة شخص من بينهم كثيرون من موظفى الدولة، وشباب موفد للدراسة، وكان من بينهم أيضًا أول فتاة تبتعث للدراسة فى أمريكا وهى «تسودا أوميكو» (١٨٦٤ ـ١٩٢٩م) وكانت آنذاك فى السابعة من عمرها. (المترجم).

شين الميزانية المخصصة لشراء سفن حربية على أمور البذخ والرفاهية، إلا أن المشكلة الأساسية الأولى هى أنه بعد أن هزمت فى حرب الأفيون، أرادت أن تشترى من الخارج سفنًا حربية كالتى تمتلكها بريطانيا.

أما فى اليابان، فلم يكن شراء السفن الحربية هو أول ما بدأ به صغار المحاربين فور أن أمسكوا السلطة.

بالطبع اشتروا سفنًا حربية، لكن الأمر لم ينته بشراء السفن الحربية، فقد كان أول ما تحمسوا له هو محاولة شراء مهارة بناء السفن الحربية، وهذا فارق أساسى.

أما عن طريقة حصولهم على مهارة بناء السفن الحربية، فبالطبع حدث ذلك بإرسال طلاب إلى بريطانيا على الفور، ليتعلموا فيها تقنية بناء السفن، ولكن قبل ذلك يتأتى فى الأساس نظام التعليم، والمقدرة الصناعية. أى تدريب الشباب والإعداد لتخريج فنيين فى الجيل التالى يستطيعون صناعة السفن. فى نهاية عصر توكوجاوا، كان المحاربون التقدميون يدركون ذلك بالفعل.

لهذا فإن ما قامت به حكومة ميجى فى البداية، كان من بينه مشكلة الضرائب على الأطيان، وما إلى ذلك من إصلاحات فى النظام المالى، إلا أنها فى صدد بناء «دولة غنية وجيش قوى»، دفعها اهتمامها بإنشاء «الجيش القوى» إلى أن تشترى سفنًا حربية، وتستعين بمعلمين أجانب، وقادة عسكريين أجانب، وقامت بتكوين جيش حديث، عملت على تدريبه، وعملت كذلك فى نفس الوقت على تطوير القدرة الصناعية التى يمكنها دعم الجيش الحديث.

فى القرن التاسع عشر، كانت إنجلترا هى أكثر دول العالم تقدمًا، ومنذ قدوم «السفن السوداء» زار عاصمتها «لندن» العديد من اليابانيين.

فى السجلات القديمة لجامعة لندن، أسماء لبعض اليابانيين مدونة بالحروف الرومانية. من بينها اسم «شونسكيه إيتو»، إنه «إيتو شونسكيه»، وهو نفسه «إيتو هيروبومى»[1] الذى أصبح بعد ذلك أول رئيس للوزراء. إيتو هيروبومى، و«إينوويه

(١) إيتو هيروبومى (١٨٤١ ـ ١٩٠٩ م): من أشهر الساسة فى عصر ميجى. ولد بمقاطعة «تشوشو» (محافظة ياماجوتشى حاليًا)، درس على يد يوشيدا شووين وهو صغير، شارك فى حركة إسقاط حكومة توكوجاوا

كاؤرو»[1]، وغيرهما من الشخصيات التى صارت من أهم رجالات حكومة ميچى كانوا ممن درسوا فى الغرب فى فترة شبابهم الأولى.

يقول كاتو:

عند التخطيط للتحديث على النموذج الغربى، كان لابد من اختيار جهة الابتعاث، واختيار المعلمين. واليابان فى عصر ميچى تختار أن تتعلم على يد أفضل معلمى العالم فى كل المجالات.

فقد أرسلت معظم ضباط البحرية إلى بريطانيا.

وأرسلت معظم ضباط القوات البرية باستثناء قليل منهم إلى ألمانيا.

وفى مجال القانون، جعلت اللغة الألمانية هى اللغة الأجنبية الأساسية فى كلية الحقوق فى الجامعة الحكومية. وعليه كان الأساتذة من الألمان.

وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت كلية الطب فى جامعة طوكيو الإمبراطورية، وأنا أعلم ذلك عن تجربة، عندما يلتحق بها طلاب ممن درسوا الألمانية فى المرحلة الثانوية، كانوا يدرسون العلوم الطبية على الطريقة الألمانية مستفيدين من لغتهم الألمانية.

الرسامون إلى فرنسا، والموسيقيون إلى ألمانيا أو النمسا.

لم تكن طريقة اختيار المعلمين غريبة، بل كانوا جميعًا يختارون اختيارًا صحيحًا، فقد اختار اليابانيون أفضل المعلمين فى ذلك العصر ليدرسوا على أيديهم.

العسكرية. بعد قيام حكومة ميچى، كان الشخصية المحركة والفعالة لوضع أول دستور للدولة الحديثة فى اليابان عام ١٨٩٠ م. صار رئيسًا للوزراء أربع مرات. أنشأ حزبًا سياسيًا إبان الحرب اليابانية الصينية، وصار حاكمًا عامًا لكوريا عام ١٩٠٥ م بعد احتلال اليابان لها، اغتيل على يد واحد من أعضاء حركة استقلال كوريا فى مدينة هالبين. (المترجم).

(١) إينوويه كاؤرو (١٨٣٥ ـ ١٩١٥م): من أشهر الساسة فى عصر ميچى. اشتهر باسم «مونتا»، كان محاربًا فى مقاطعة تشوشو، شارك فى حركة إسقاط حكومة توكوجاوا العسكرية. صار من الشخصيات الرئيسية فى حكومة ميچى، تولى وزارة الخارجية، وحاول إلغاء المعاهدات غير المتكافئة، إلا أنه فشل. كانت له أدوار بارزة فى الشئون المالية الاقتصادية. كما شارك إيتو هيروبومى فى حزبه. (المترجم).

فى العام الرابع من ميچى (١٨٧١م) قام عدد من الشخصيات الرئيسية فى الحكومة مثل «إيواكورا تومومى»، و«أوكوبو توشيمينشى»[١] و«كيدو تاكايوشى»[٢] بزيارة لبعض الدول الغربية. عاد الوفد الذى رأى بعينيه تقنية الآلات المتفوقة، ونظام الاقتصاد الرأسمالى، وغير ذلك من جاذبية الحضارة الغربية المتقدمة بشكل ساحق، وقد اعتصرته الرغبة فى ضرورة إعداد تقنيات ونظم مثل ما لدى الدول الغربية بأسرع ما يمكن.

يقول كاتو:

لم يسبق لمعظم من كانوا فى وفد إيواكورا أن خرجوا وسافروا إلى الغرب. كانت تلك هى زيارتهم الأولى.

وهناك كتاب شهير عن تلك الرحلة كتبه شخص يدعى «كوميه كونيتاكيه»[٣] عندما نقرأ ما كتبه كوميه، نكتشف أن ما سجله اليابانيون فى رحلتهم تلك للخارج كان دقيقًا وشاملًا، وأن فهمهم ومقدار إدراكهم للمشكلات والقضايا كان عميقًا بدرجة قلما نجد لها مثيلًا.

وفى تقديرى أن تقرير وفد إيواكورا هو أحد الأعمال الرائعة بين ما كتبه اليابانيون من تسجيل لرحلاتهم حول العالم فى المائة عام الأخيرة منذ عصر ميچى.

هكذا قام رجالات ميچى بنقل التقنية الأجنبية بإيجابية شديدة، ولكنهم من ناحية

---

(١) أوكوبو توشيميتشى (١٨٣٠ـ ١٨٧٨م): سياسى من مقاطعة ساتسوما (محافظة كاجوشيما حاليًا)، ساهم فى إسقاط حكومة توكوجاوا. شغل مناصب هامة فى حكومة ميچى الإصلاحية، كان نائبًا لرئيس بعثة إيواكورا إلى الغرب. شغل منصب أول وزير للداخلية فى الحكومة مما جعله صاحب السلطة الفعلية فى البلاد فى فترة الاضطرابات الأولى، اغتيل على يد أحد الساخطين على سياساته. (المترجم).

(٢) كيدو تاكايوشى (١٨٣٣ـ١٨٧٧م): سياسى من مقاطعة تشوشو قاد تحالفًا مع مقاطعة ساتسوما لإسقاط حكومة توكوجاوا، شغل مناصب هامة فى حكومة ميچى وقاد الجناح التقدمى فيها، ساهم فى تطبيق العديد من الإصلاحات الهامة. كان نائبًا ثانيًا لرئيس بعثة إيواكورا. (المترجم).

(٣) كوميه كونيتاكيه (١٨٣٩ـ١٩٣١م): واحد من أعضاء «وفد إيواكورا»، صار مؤرخًا وعمل أستاذًا للتاريخ فى جامعة طوكيو، من أهم مؤلفاته «مذكرات الرحلة فى أمريكا وأوروبا»، «محاضرات فى علم قراءة المخطوطات القديمة» وغيرهما. (المترجم).

أخرى كانوا يدركون أن التعليم مهم للغاية حتى يمكنهم نقل تلك التقنية إلى المجتمع، ونشرها وتعميقها فيه. يشير السيد/ كاتو فيما يلى إلى أهمية التعليم فى عصر ميجى.

يقول كاتو:

كان التعليم الإلزامى أحد الأمور الهامة، وكانت حكومة ميجى سريعة للغاية فى تطبيق التعليم الإلزامى.

فقد فكرت الحكومة أنه إذا استطاعت فى المستقبل قبول أعداد كبيرة فى التعليم العالى، فسوف يمكن لليابان أن تمتلك القدرة على صناعة سفنها بنفسها. ومن لم يتلق تعليمًا عاليًا، سيكون بحارًا، وحتى هؤلاء لابد لهم من التعليم.

كما يقول السيد/ «إينوويه هيساشى»[1]: «لم تكن هناك لغة مشتركة»، لذلك فإذا ما صدر أمر بلهجة أحد الأقاليم، فلن يفهمها من هم من مناطق أخرى.

وبهذا ظهرت لغة خاصة بالجيش، واستخدمت فيما يشبه نوعًا من أنواع التفرقة أو التميز. إلا أنها كانت ضرورية، فإن لم توضع مصطلحات خاصة بالجيش، فلن يفهم الجنود ما يقوله قائدهم.

ولهذا طبق التعليم الإلزامى.

وتبع ذلك تكوين جيش من المجندين. وصار الجيش نفسه مؤسسة تعليمية. ومن ناحية أخرى، تم عسكرة المؤسسات التعليمية نفسها. وهكذا أصبح الجيش قادرًا على القيام بمهامه معتمدًا على هاتين المؤسستين.

فى ذلك الوقت، لم تطبق الصين التعليم الإلزامى، وإن كان النظام البيروقراطى متشابهًا، فقد كانت قمة النظام البيروقراطى هناك، باقية على ما فيها من فساد وتعفن. وهذا فارق جوهرى.

ربما كان الإصلاح الذى تم فى ميجى بشكل جذرى، مثالًا نادرًا فى العالم. وأعتقد أنه ربما كانت اليابان هى الوحيدة التى استطاعت ذلك فى تلك الفترة فى المجتمعات غير الأوروبية والأمريكية.

---

(١) إينوويه هيساشى (١٩٣٤م): أحد أهم الكتاب المعاصرين فى مجال الرواية والمسرح، يشغل منصب رئيس اتحاد الكتاب فى اليابان منذ عام ٢٠٠٣ م. (المترجم).

ينوه الدكتور/ دراكر، عالم الإدارة الأمريكى إلى أهمية التعليم فى عصر ميجى.

إلا أنه فى نفس الوقت يقول إن الأساس قد تم إعداده فى نهاية عصر إيدو، وأفاد ميجى من ذلك الأساس بشكل جيد.

يقول دراكر:

كان الاهتمام الشديد بالتعليم كأساس للتحديث ميزة أخرى من مميزات ميجى.

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ومازال الزمان فى عصر إيدو، حدث شكل من أشكال النهضة (الرينيسانس)، كانت «كيوتو» مركزًا له. فقد ازدهرت الآداب والفلسفة والتاريخ والفنون، وازداد الاهتمام بالتعليم، ونشأت العديد من المدارس.

فى حقيقة الأمر، يمكننى أن أقول إنه وبهذا المعنى، كان تحديث اليابان قد بدأ بالفعل قبل ميجى بستين عامًا.

في تلك الأثناء حدث فى اليابان إصلاح تعليمى كبير، إذ ظهر بين الناس من ينشئ فصولًا تعليمية خاصة.

فى تلك الفصول بدأ تعليم عديد من المعارف الغربية، وحتى الحساب، لم يكن هو ذلك الحساب على الطريقة الصينية، بل كان الحساب الهولندى، أى أنهم كانوا يدرسون الحساب الغربى.

كانت اليابان أول دولة تمحو الأمية فيها تمامًا. فحتى أوائل القرن التاسع عشر تقريبًا، كان معظم اليابانيين يستطيعون القراءة والكتابة. وهى فى ذلك تكون قد سبقت كثيرًا الدول الأوروبية.

ويمكننى أن أقول هنا، إن عصر ميجى وبشكل أساسى قد ورث حركة التعليم فى ذلك العصر.

كان لليابان فى عصر ميجى ميراث من عصر إيدو، هو نظام التعليم. وبفضل ذلك الأساس، استطاعت اليابان عندما انفتحت على العالم أن تستورد نظام التعليم الغربى، وتركبه على ما كان لديها بالفعل من نظام تعليمى.

أيضًا وبعد إصلاح ميجى، استطاعت بفضل ذلك أن تدخل إليها نظم الاقتصاد، والعلوم، والنظام البنكى فى سهولة ويسر.

أى أن التعليم كان هو نواة التحديث فى اليابان.

فى واقع الأمر، كان أبرز الناشطين فى عصر ميچى، هم أولئك الذين درسوا فى مدارس المقاطعات، ومن تعلم فى تلك الفصول التعليمية الخاصة فى الأقاليم.

يقول دراكر: نستطيع أن نرى فى كيوتو العاصمة القديمة، نموذجًا نمطيًا لما قام به اليابانيون فى عصر ميچى من دور فى مجال التعليم، مستفيدين بالأساس الذى وضع فى عصر إيدو.

كيف تم ذلك؟ سوف نبحث فى الفصل التالى حالة التعليم فى عصر ميچى من خلال أمثلة للحماسة من أجل التعليم فى «كيوتو».

الفصل الثانى
التعليم هو نقطة البداية
الرغبة الصادقة فى التغيير فى المدرسة الابتدائية فى كيوتو

كيوتو هى مركز الثقافة اليابانية التقليدية منذ القدم، ولكن نشأت على أرضها حركة تدعو إلى تعلم الثقافات الأجنبية بإيجابية.

يوجد فى كيوتو مبنى ذو شكل غريب يقع بالقرب من جسر «سانچو» الكبير، فعلى سطح إحدى المدارس الابتدائية يقبع برج مراقبة على الطراز اليابانى التقليدى. هذه المدرسة هى بعض ما تبقى مما عرف بمدارس «بانجومى» الابتدائية التى بنيت فى أوائل عصر ميچى.

بنيت مدارس بانجومى الابتدائية فى مدينة كيوتو، بعد أن ألغى التعليم فى حجرات الدراسة الملحقة بالمعابد البوذية. فمع بداية عصر ميچى تم تقسيم مدينة كيوتو إلى وحدات إدارية وأطلق اسم «بانجومى» على كل وحدة، وفى العام الثانى من ميچى (١٨٦٩م) بنيت فى كل وحدة مدرسة ابتدائية، ولهذا سميت تلك المدارس بمدارس «بانجومى» الابتدائية.

كان مجموعها ٦٤ مدرسة ابتدائية فى تلك الوحدات. فى البداية كانت تسمى حسب ترتيب بنائها، مثل المدرسة الابتدائية الأولى فى أعلى مدينة كيوتو. ومدرسة بانجومى الأولى فى أسفل كيوتو. ثم أصبحت كل مدرسة تحمل اسمًا خاصًا بها بعد ذلك.

وبالقرب من جسر سانچو الكبير، توجد مدرسة تسمى مدرسة «يوساى» الابتدائية، وقد تم الإبقاء على برج للمراقبة (كان يستخدم لمراقبة الحرائق إذا حدثت فى المدينة) أعلى سطح المدرسة إلى يومنا هذا. وبهذا يعتبر شيئًا ثمينًا نادرًا.

إذا وقفنا فى الجانب الغربى من جسر سانچو الكبير لنطل على ناحية الشرق. يمكننا أن نرى ذلك البرج البنى اللون المكون من طابقين على طراز عصر إيدو قابعًا فوق سطح ذلك المبنى، وقد اندس وسط المبانى الخرسانية فى المدينة التى تمتد على ضفتى نهر «كامو».

قررنا أن نقوم بزيارة لمدرسة يوساى الابتدائية مع واحد من خريجيها، وهو السيد/ أسادا نوبو، والذى يقوم بجهود للحفاظ على البرج.

قال السيد/ أسادا:

ـ يسمونه برج الطبول فى مدرسة يوساى الابتدائية، وقد بنى على شكل برج مراقبة النيران، والذى كان موجودًا من قبل فى المدارس الابتدائية الأخرى فى كيوتو، ولكن لم يتبق هنا غير هذا...... يمكن أن نقول إنه أثر ثقافى.

هذا الطريق من جسر سانچو الكبير وحتى مدرسة يوساى الابتدائية ذات البرج، وهو طريق التريض الذى اعتاد السيد/ أسادا السير فيه.

ـ إنه مكان هادئ، مكان جميل، يشعرك حقا أنك فى كيوتو، فى الخلف يوجد الجبل الشرقى الذى يأخذ إليه الأنظار، خاصة فى الأيام التى تتساقط عليه الثلوج.

كان ذلك اليوم من تلك الأيام النادرة التى تساقطت فيها الثلوج بكثافة على كيوتو. ومن قلب المشهد الثلجى الأبيض، كان البرج البنى فى مكانه، يبدو بارزًا كأنما انفصل عن ذلك المشهد.

فى هذا اليوم صبغ المكان كله حولنا بلون الثلج فتبدى البرج مميزًا.

لم يكن البرج ذا ارتفاع متميز مقارنة مع ما حوله من مبان، ففى العادة تغمره مجموعات المبانى فى المدينة بألوانها المتعددة، وقد لا ينتبه إليه الزائرون من خارج المدينة.

قال السيد/ أسادا:

ـ قديمًا لم يكن ثمة شىء فى تلك الناحية. وكان ذلك الارتفاع مناسبًا له تمامًا كبرج لمراقبة النيران.

كنا نستمع لحديث السيد/ أسادا ونحن نعبر الجسر. بعد مسيرة وجيزة وصلنا أمام باب المدرسة. لم يكن ما يدل على وجود أطفال بها مع أنه يوم عادى، وعندما سألناه قال لى:

ـ لقد تم إغلاق المدرسة فى شهر مارس من العام الماضى، حيث تم ضمها إلى مدرسة أخرى.

حضر مسئول المدينة خصيصًا، وفتح لى البوابة المغلقة، ودخلنا إلى المدرسة. بدت لنا فسيحة، ربما لعدم وجود الأطفال. يقف مبنى المدرسة على الجانب المقابل من الفضاء، وفى أعلاه يقبع برج الطبول.

ـ المكان هادئ فى غياب التلاميذ، بل المكان موحش حقًا.

قال السيد/ أسادا ذلك وهو يقودنا إلى داخل مبنى المدرسة. عندما صعدنا الدرج إلى الطابق الأعلى، وجدنا سلمًا نقالًا يتدلى من السقف، يبدو أنه يصعد بنا إلى حيث برج الطبول فوق سطح المبنى.

ألم تتغير المدرسة من الداخل عما كانت عليه قديما حين كنت تلميذًا بها يا سيد/ أسادا؟

قال السيد/ أسادا:

ـ لم تتغير أبدًا فهذا درابزين السلم كما هو، كنت أمتطيه وأنزلق عليه.... هاهاها.

عندما وصلنا إلى الطابق الأعلى، وفى زاوية فى منبسط الدرج، كان يتدلى من السقف سلم نقال.

قال السيد/ أسادا:

ـ من هنا كان يمكننا الخروج إلى حيث البرج...... المخرج ضيق قليلًا.

هل يمكننا الصعود؟

قال السيد/ أسادا:

ـ من المفترض ذلك...... منذ فترة كان هناك مكان أضير من الأعاصير، ولكنهم أصلحوه وجددوا أخشابه من الداخل.

سمعنا من السيد/ أسادا شيئًا غير متوقع، وهو أن برج الطبول هذا ما زال يستخدم ويقوم بدوره حتى الآن.

قال السيد/ أسادا:

ـ إنه يستخدم كمكان للمراقبة لوحدة الدفاع المدنى، فى المكان الذى فوقنا تمامًا.

إذا كان مستخدمًا حتى الآن، فلا خطر من ارتقائه إذن. قررنا أن نرجو السيد/ أسادا أن يرينا برج الطبول على الطبيعة من الداخل.

قال السيد/ أسادا:

ـ إذن فلنصعد إلى أعلى.

نرجوك.

ارتقينا السلم النقال الضيق. كان المكان يصعد عليه شخص واحد، صعد أحدنا فى إثر الآخر، دفع غطاء السقف إلى أعلى، فإذا به وبآلية معينة يصعد بنا إلى داخل برج الطبول، كان الداخل متسعًا على عكس ما يتصور، كانت المساحة حولنا حوالى سبعة أمتار مربعة، والبرج يتكون من قاعدة من طابقتين، هنا الطابقة السفلى كما يقول:

ـ ربما كان هذا المكان الذى كانت تدق فيه الطبول.ذلك أن المكان أعلانا أضيق من أن يدقوا فيه طبولًا، أعتقد أنهم كانوا يدقون الطبول هنا، وفى الأعلى كانوا يدقون ناقوسًا حديديًا للإنذار.

برج الطبول اسم على مسمى كانت توضع فى داخله طبلة، ولكن فيما كانت تستخدم ياترى؟

قال السيد/ أسادا:

ـ سمعت أنها كانت تستخدم للإشارة إلى الوقت. أعتقد أنها قديمًا كانت تقوم مقام الإعلام عن الساعة والتوقيت.

فى عصر ميچى، كانت توضع فى داخل البرج طبلة للإعلام عن الوقت.

كما ذكرنا فى سياق الحديث عن برج الساعة فى الشارع المبنى بالقرميد فى حى

جينزا، كان إدخال الحضارة الغربية الحديثة، قد جعل اليابان تأخذ بنظام التوقيت الذى يقسم اليوم إلى ٢٤ ساعة متساوية فى الزمن. وصارت مدارس بانجومى فى كيوتو صاحبة الريادة فى ذلك.

ومنذ ذلك الحين صارت هناك مدارس ابتدائية فى أقاليم مختلفة من اليابان بها برج للساعة على النظام الغربى.

أما فى حالة هذه المدرسة الابتدائية من مدارس بانجومى فى كيوتو، يبدو أنهم لم يتمكنوا من الوصول إليها بالساعة، فقاموا باستخدام الطبول والتى كانت موجودة من قبل منذ عصر إيدو. إننا هنا نستطيع أن نرى خصائص التغيير فى عصر ميجى، فى رد الفعل الفورى، والتغيير الذى حدث فى تبديل طريقة الاستخدام التى كانت متبعة من قبل، لتفيد فى شيء جديد، لقد كانوا يفيدون من تراثهم إلى ذلك الحد.

إلى متى كانت الطبول تستخدم للإعلام عن الوقت؟

قال السيد/ أسادا:

ـ ما نعرفه نحن عن ذلك وما سمعناه، أنه كان حتى منتصف ميجى.

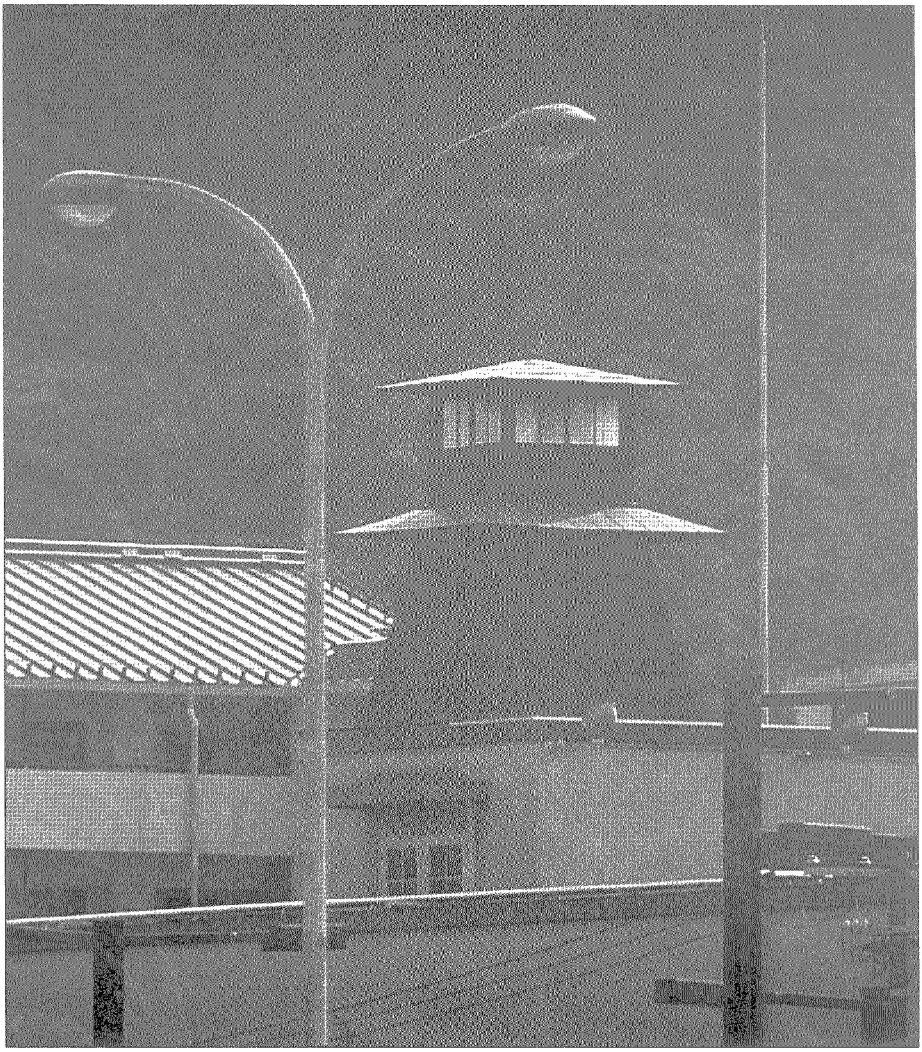
الإعلام عن الوقت بالطبول، يعطى انطباعًا بالدعة والاسترخاء، مقارنة بما نحن عليه الآن، لكن صوتها بالنسبة لأهل كيوتو فى عصر ميجى، كان بلا شك يعطيهم انطباعًا بقدوم عالم جديد اسمه العصر الحديث.

قال السيد/ أسادا:

ـ لأن الجو قديمًا كان أكثر هدوءًا من الآن، أعتقد أنها كانت تسمع لمسافات بعيدة.

عند الاحتفال بمرور مائة وثلاثين عامًا على إنشاء مدرسة يوساى الابتدائية، وعند إغلاق المدرسة، كانوا يدقون الطبول هنا. ويقال إن صوت الطبول فى ذلك الوقت كان يصل إلى طريق «هانامى» الضيق. فإذا كان الصوت اليوم قد وصل إلى طريق هانامى فبلا شك أن صوتها كان يسمع قديمًا فى أماكن أبعد بكثير.

أعلى القاعدة التى كانت توضع عليها الطبلة، توجد قاعدة أخرى أصغر حجمًا.



فى مدارس بانجومى الابتدائية التى بنيت فى أوائل عصر ميجى، بنيت أبراج على سطح المبنى المدرسى.

تابعنا صعود السلم، وأرشدنا إلى القاعدة التى تعلونا. كانت القاعدة العليا أصغر من السفلى، كانت حجرة مساحتها حوالى ثلاثة أمتار مربعة، ولكنا استطعنا أن نرى من حافة نافذتها بانوراما المدينة المحيطة بنا وقد تزينت كلها بغلالة من الثلج الأبيض.

قال السيد/ أسادا:

ـ عندما أنظر من هنا، يمكننى مشاهدة كل أنحاء تقسيم يوساى التعليمى. لقد ازدادت ارتفاعات المبانى المحيطة كثيرًا مقارنة بالماضى، ولكن بما أننا ما زلنا نستطيع مشاهدة كل أنحاء التقسيم، فذلك دليل على أن برج مراقبة النيران كان يقوم بدوره خير قيام.

إن قيام برج مراقبة النيران والذى يضم فى داخله ناقوسًا للتحذير بدوره، يدل على مدى الارتباط الوثيق بين المدارس الابتدائية فى كيوتو وبين المناطق التى توجد فيها.

قال السيد/ أسادا:

ـ كانت المدرسة الابتدائية تمثل نقطة مركزية للمنطقة. فقد جعلت منها قوات الإطفاء، وفرق الدفاع المدنى مقرًا رئيسيًا لها.

فقد كانت كل الفرق المختلفة تنطلق وتتحرك من المدرسة. ويمكننى القول إن ما يعرف اليوم بوحدات الحكم المحلى أو الإدارة المحلية كانت تجتمع فى المدرسة وتتمركز حولها.

إذًا، لقد كان برج الطبول هذا يمكن أن يشاهده أهل الحى من أى مكان.

قال السيد/ أسادا:

ـ كان يرى لأهل التقسيم التعليمى، فكما يمكن مشاهدة كل مكان فى التقسيم من هنا، كان يمكن رؤية هذا البرج من أى مكان فى التقسيم.

ولهذا فإن تعلق أهل المدينة بهذا البناء وارتباطهم به قوى.

لذلك، قبل أن تغلق المدرسة، وحتى يزداد الاهتمام والعناية به، قام أهل المنطقة بالتبرع لإضاءته ليلًا. وهو يضاء كل ليلة حتى التاسعة مساء. وما زال هذا الأمر مستمرًا حتى بعد إغلاق المدرسة.

إن تجربة إضاءة الأماكن التاريخية، تجرى فى كل المناطق، إلا أنها فى الأغلب تتم لأجل أغراض سياحية، لكن فى حاله مدرسة يوساى الابتدائية هذه فهى تعبير عن مشاعر قوية لأهل المدينة تجاه المدرسة الابتدائية.

ـ إن نظام «بانجومى» هو نقطة انطلاق التعليم فى المناطق، وأنا أعتقد أنه نقطة الانطلاق للتعليم فى المدارس الابتدائية فى كيوتو.

فى عبارته السابقة أطلق السيد/ أسادا اسم «بانجومى» كناية عن المدارس الابتدائية، وهى تسمية تدل على مدى التعلق بالمدارس الابتدائية فى هذا النظام.

ـ لهذا، فبرج الطبول هذا هو الوحيد الباقى الآن فى كيوتو، مما يدعو إلى وجوب الإبقاء عليه، ليس من قبل أهل يوساى فقط، وإنما من قبل أهل كيوتو كلها. وبما أننا أهالى المنطقة ندرك أهميته فقد وضعناه فى هذه المكانة، وندعو الناس للإبقاء عليه كشكل يجب العناية به، والمحافظة عليه.

عندما كنا نطل من أعلى البرج، شاهدنا فى ركن من أركان فناء المدرسة مبنى بدا كما لو كان غرفة للحراسة، وشعرنا أنه ما زال يستخدم حتى الآن بين الحين والآخر، فيأتى إليه أناس ويخرجون منه. وعندما سألنا عم من أجله كان ذلك البناء، أتتنا على الفور إجابة السيد/ أسادا:

ـ إنه الآن مخزن لمعدات الإطفاء، وفى نفس الوقت مكان لتجمع وحدة المطافئ، وهو أيضًا مركز للوقاية الذاتية من الحريق فى التقسيم التعليمى.

لم ينتقل ذلك المبنى إلى قوات الإطفاء بسبب إغلاق المدرسة، بل كان موجودًا من البداية لنفس الغرض، حيث أقامت قوات الإطفاء التابعة للمنطقة داخل المدرسة الابتدائية.

ـ هكذا معظم المناطق فى كيوتو، تدور فى محور المدرسة. ومعظم المدارس فى كيوتو بها أماكن لتجمع قوات الإطفاء.

هل كان هذا منذ حقبة ميجى؟

قال السيد/ أسادا:

ـ نعم. والخلاصة أنه أحد الأشكال الباقية حتى الآن من نظام التقسيم إلى وحدات

تعليمية، والذى تطور من مدارس بانجومى الابتدائية إلى أن صار نظامًا للإدارات التعليمية حسب المناطق. والتقسيم الإدارى فى مدينة كيوتو يأخذ شكلًا هرميًا واضحًا حتى الآن، ففى القاعدة اللجان الأهلية فى كل شارع، ثم لجان على مستوى التقسيم التعليمى، ثم لجان الأحياء، ثم لجنة المدينة، ولأن اللجان فى القاعدة قوية وثابتة فأنشطة لجان الحكم المحلى فى كيوتو ثابتة ومستقرة، وتمارس دورها بوعى وقوة.

حتى وإن كانت مدرسة يوساى الابتدائية قد أغلقت كمدرسة، فهى بالنسبة لأهل الشوارع المحيطة بها ما زالت كيانًا حيًا كسابق عهدهم بها. فالأولاد يتخذون من فنائها مكانًا للتدريب على كرة القدم فى أيام العطلات، بل يوجد فى داخل المدرسة غرفة تسمى «صالون التواصل» خصصت للأنشطة المجتمعية للمجتمع المحيط بها.

ـ قديمًا، كانت هذه الغرفة مخصصة لتعليم أصول اللياقة فى التعامل. كانت تستخدم لتهذيب السلوك، ومنذ عدة سنوات، قررت لجنة التعليم بالمدينة إنشاء صالون للتواصل فى كل مدرسة، لتقوية العلاقات مع المنطقة المحيطة، ولحسن الحظ كانت لدينا هذه الحجرة على الطراز اليابانى، وقد ساعدنا ذلك كثيرًا كى نستفيد بها وتصير بهذه الروعة كما ترى.

فى هذه الغرفة، استمعنا إلى حديث السيد/ كاچيوارا كيزو، والذى شارك أيضًا فى النشاط الخاص بالحفاظ على البرج. قص علينا السيد/ كاچيوارا ما يعتقده بشأن البرج فى مدرسة يوساى الابتدائية. وجاء حديثه كما يلى:

ـ على كل حال، إن ما أشعر به باختصار ليس قضيتى أنا وحدى، إنما هى قضية الجميع، فإذا شعرنا بالفخر لوجود مثل هذا البرج فى المدينة التى نعيش فيها، فهذا يكفى. لا أعنى بذلك أننا نتفاخر على الآخرين، فالفخر والتفاخر أمران مختلفان. فالفخر هو أن نقول إن فى مدرستنا يوجد هذا الشىء، ووجود هذا الشىء هنا، يجعلنا نقول إن مدينتنا مدينة جيدة. وعندما نمارس حياتنا اليومية وبداخلنا هذا الشعور، نكون سعداء.

يقول السيد/ كاچيوارا إن مدرسة يوساى الابتدائية المغلقة حاليًا هى محور المنطقة.

ـ هى الملاذ لنا، ليس لأننا نذهب إليها كى نتعلم، إنما مجرد الذهاب إلى المدرسة فى حد ذاته، يمكننى أن أسميه سعادة أو فرح، وهذا الشعور موجود لدى معظم الناس.

فتجد أن الناس فى فريق الإطفاء يتدربون على إطفاء النيران فى المدرسة، ويقوم أيضًا مجلس الرعاية الاجتماعية بممارسة أنشطته الاجتماعية فيها. وبهذا فهى مكان للأنشطة الشعبية للمحليات، كل نشاط حسب طبيعته.

إن وجود مثل تلك الأمور هنا فى حد ذاته لأمر يدعو للبهجة.

جاء إنشاء مدارس بانجومى الابتدائية فى مدينة كيوتو فى عام ١٨٦٩ م، العام الثانى من ميجى، وقبل ثلاث سنوات من إعلان الحكومة عن نظام التعليم الحديث. توقع أهل كيوتو الكثير من التعليم مع استقبالهم للعهد الجديد وكانوا قد أدركوا أهميته مبكرين.

فوكوزاوا يوكيتشى الذى بادر بشرح وتفسير أهمية التعليم فى مؤلفاته المختلفة مثل «دعوة إلى العلم» وغيره من المؤلفات، كان قد قام بزيارة لكيوتو، وشاهد على الطبيعة مدارس بانجومى الابتدائية، ويبدو أنها تركت فى نفسه أثرًا عميقًا، يقول فوكوزاوا يوكيتشى فى كتابه «مذكرات المدارس فى كيوتو»:

قسمت المدينة إلى أربعة وستين قسمًا، وجعلوا كل قسم فيها تقسيمًا تعليميًا. وهذا مثل ما نجده فى الغرب ويسمونه (School District)، وجعلوا فى كل قسم مدرسة ابتدائية، وسمحوا لكل طفل ذكر أو أنثى من سن السابعة أو الثامنة وحتى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة أن يأتى إليها ويتلقى التعليم، لا فرق فى ذلك بين غنى أو فقير أو عظيم أو حقير. (من كتاب فوكوزاوا يوكيتشى «مذكرات المدارس فى كيوتو»).

ويقول:

فى البداية دفعت الحكومة نصف تكاليف المدارس الابتدائية عند بنائها، أما النصف الآخر فقام به الأغنياء من أهل المديتة. فأقاموا المبنى واشتروا الكتب، وما تبقى لديهم من مال أقرضوه بفوائد، ينفقون منها على المدرسة بشكل دائم. وفرضوا على كل بيت

فى كل حى مبلغًا من المال يخرجه كل ستة أشهر، وأضافوا تلك المبالغ إلى الفائدة العائدة لتنفق على المدرسة. يتم تحصيل تلك المبالغ التى تخرجها البيوت، من كل البيوت فى الحى بصرف النظر عما إذا كان لذلك البيت أولاد أم لا.

والقائمون على تحصيل الأموال هم من كبار السن فى كل حى، ولأن القائمين على هذا النشاط كلهم من كبار السن فلا مكان لموظفى الحكومة فى هذا الأمر. (المرجع السابق).

يقال إن حجرات الدراسة فى المعابد البوذية فى مختلف أنحاء اليابان، كانت هى الوعاء الذى خرجت منه مدارس بانجومى الابتدائية. ولكن حين شرع أهالى كيوتو فى بناء المدارس الابتدائية عملوا على بناء مبان جديدة لها.

والرسوم التخطيطية، أو الرسوم الهندسية للمبانى التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت ما زالت باقية، وهى التصميمات التى كانت توضع لبناء مبانى المدارس.

إذا نظرنا إلى الرسوم، ندرك أنه كانت هناك أماكن محددة لإقامة مبان لأنواع مختلفة من المنفعة العامة فى كل مدرسة ابتدائية.

فعلى سبيل المثال، يوجد مكان يطلقون عليه «وحدة الإشراف» على المدينة، وهى تماثل «نقطة الشرطة» اليوم، وهو مكان كان يتجمع فيه المسئولون عن الحراسة فى المدينة.

يوجد أيضًا مكان كانوا يطلقون عليه «الوحدة المتنقلة»، وهو فرع لمجلس الحى.

يكتب فوكوزاوا يوكيتشى عن ذلك فى كتابه «مذكرات المدارس فى كيوتو» فيقول:

يتراوح عدد التلاميذ فى المدارس الابتدائية من سبعين إلى مائة فى المدارس ذات الأعداد الصغيرة، ومن مائتين إلى ثلاثمائة فى المدارس ذات الأعداد الكبيرة. المدارس غاية فى النظافة من الداخل، ليس فيها من يخدش الحوائط، أو يلوث الأرضيات، أو من يتحدث بصوت عال أو بلفظ ناب، ولا من يعدو أو يهرول فى جنباتها، فلا يوجد مكان لا يصل إليه الانضباط والنظام. إلا أنه فى أحد أركان المدرسة، يوجد مكتب

لمجلس الحى التابع للمدينة، ينتقل إليه المسئولون ليقوموا على شئون الحى، وفى الوقت نفسه يقومون على رعاية التلاميذ، وبذلك تصبح المدرسة أكثر فائدة ونفعًا. (المرجع السابق).

ليست مدرسة يوساى الابتدائية هى فقط الباقية حتى الآن من مدارس بانجومى الإبتدائية، إنما هناك عدد آخر بقى منها فى أماكن مختلفة من كيوتو، تحمل كل منها طابعها الخاص، وتنقل إلينا فى عصرنا هذا أنفاس زمن ميچى.

فى واحدة من تلك المدارس، وهى مدرسة «چونبو» الابتدائية فى حى جنوب كيوتو، ما زالت آثار ما كان يعرف «بالوحدة المتنقلة»، أو فرع مجلس الحى متبقية داخل مبنى المدرسة.

قمنا بزيارة مدرسة چونبو الابتدائية، وسمحوا لنا بمشاهدتها.

صعدنا سلمًا صمم على شكل دائرة. وعندما دلفنا إلى الداخل، كانت أمامنا ردهة واسعة.

فى حائط جانبى، كانت نافذة باقية، تدل بما لا يجعل مجالًا للشك على أثر الوحدة المتنقلة كفرع لمجلس الحى. فقد كانت عبارة عن فتحة فى الحائط تمامًا مثل فتحات صرف وتلقى الأوراق تلك التى نراها فى المصالح الحكومية.

هذه النوافذ ليست باقية منذ عصر ميچى، إنما أعيد فتحها فى سنوات تالية لميچى، ومضى عليها وقت طويل منذ استخدمت آخر مرة، ومع ذلك فقد تأكد لنا أن مبانى المدارس الابتدائية كانت تقوم أيضًا بدور الفروع لمجالس الأحياء.

سألنا السيد/ إيتو يوشيهارو، رئيس الجمعية الأهلية للحى الذى تقع فيه مدرسة چونبو الإبتدائية عن المغزى من وراء هذه النافذة.

لماذا كانت هناك أماكن مخصصة لفروع مجالس الأحياء داخل المدارس فى كيوتو، كالذى نراه فى مدرسة چونبو الابتدائية؟

قال السيد/ إيتو:

ـ مدينة كيوتو بصفة خاصة حدث فيها التغيير منذ زمن طويل.

فى ذلك الوقت، كان مجلس المدينة يقع فى الجانب الشمالى من المدينة، وكان

على سكان المناطق الأخرى الذهاب حتى هناك فى كل صغيرة وكبيرة؛ وكانت وسائل المواصلات سيئة، ولم تكن الدراجات متوفرة، ولم تكن هناك فى الغالب مواصلات عامة؛ فى ظروف كهذه كان الأمر مزعجًا، ويستغرق وقتًا طويلًا.

وبما أن مهمة الإدارة الحكومية هى تقديم الخدمات لكل المواطنين، فقد تقرر إنشاء ما يعرف «بالمكاتب الفرعية». ولما لم تكن هناك مبان كبيرة مستقلة لذلك، فقد سمح لهم باستخدام جزء من مبنى المدرسة، وكان ذلك يعنى أن ينتقل الموظفون الرسميون فى الإدارة المحلية إلى هنا ليقوموا بعملهم.

إنشاء مكاتب فرعية لمجلس المدينة في المدارس، وإنشاء «نقاط بوليس» حول المدرسة، يدلنا على أن المدرسة كانت مكانًا محوريًا وكانت تقدم فيه خدمات الإدارة المحلية لأهل المدينة.

أى نوع من الإجراءات كانت تتم عبر هذه النافذة؟

قال السيد/ إيتو:

ـ ما سمعناه أنها كانت تقوم بالإجراءات المكتبية البسيطة مثل الحصول على الشهادات والأوراق اللازمة، كشهادات الميلاد، وبيان محل الإقامة، أو تغيير العنوان، وما إلى ذلك.

إلى متى كانت هذه النافذة تستخدم بالفعل؟

قال السيد/ إيتو:

ـ سمعت أن هذه المدرسة كانت تستخدم كنافذة لفرع مكتب مجلس الحى حتى عام ١٩٣٥ م، وكانت تستخدم على نطاق واسع خاصة فى النصف الأخير من عصر ميجى، وطوال عصر «تايشو»[١].

لكن مع بداية عصر «شووا»[٢] تطورت وسائل المواصلات كثيرًا، وتم إنشاء مكاتب لمجالس الأحياء فى كل المناطق الإدارية التابعة لها، ولذلك لم تعد هناك حاجة لتلك الفروع الموجودة بالمدارس، ولم يتبق منها غير تلك النوافذ فى الجدران.

---

(١) عصر تايشو (١٩١٢ ـ ١٩٢٥م). (المترجم).

(٢) عصر شووا (١٩٢٥ ـ ١٩٨٨م). (المترجم).

أما عن خلفية إنشاء مدارس ابتدائية فى كل منطقة من مدينة كيوتو، سابقة بذلك غيرها من مدن اليابان، يتحدث السيد/ إيتو فيقول:

ـ فى عصر ميجى عندما انتقلت العاصمة من كيوتو إلى طوكيو، شعر سكان كيوتو أن مكانة مدينتهم ستتراجع، فقرروا بناء المدارس حتى يخرج من كيوتو أناس عظماء، فقام الجميع، وقدم كل واحد ما يملكه من أرض، وأقاموا عليها مدارس. ربما كانت أفضل قليلاً من الأكواخ فى شكلها.

إلا أنه ما لبث أن صارت لها سمعة طيبة، وأخذ يذهب إليها كل من لم يذهب إليها فى البداية، وتعلموا فيها.

وبزيادة أعداد الصغار فى المدارس، ازداد عدد المتبرعين بأراضيهم، وبنوا عليها مدارس جديدة.

وكما سمعنا، فهذه المدرسة هى من الجيل الثالث، فقد حرص السكان على إقامة مدرسة عظيمة على هذه الأرض، فتبرعوا بالأرض، وقامت المدينة آنذاك ببناء المبنى واستكمل أهالى المنطقة ما لزم بعد ذلك، لقد تبرع الأهالى بمبالغ طائلة وأنشأوا هذه المدرسة، وبقيت لدينا قائمة بأسماء المتبرعين كوثيقة هامة.

فى ذلك الوقت كان هناك وعى كبير لدى المثقفين فى كيوتو تجاه ما يجب على اليابان أن تفعله كأمة. فكانوا يدركون أن ذلك الوقت هو أفضل الأوقات للتغيير منذ نهاية عصر توكوجاوا. ونحن هنا لدينا اعتزاز دائم بمدينتنا، فكان لابد لمدينة كيوتو أن يكون أيضًا لديها العلم؛ هذا ما سمعناه.

ولذلك، كان تخريج أناس عظماء يمتلكون ناصية العلم من مدينة كيوتو أمنية أهل المدينة فى ذلك الوقت. ولذلك فقد كان أن تعاون الجميع من أجل بناء المؤسسات التعليمية، وظهرت المدارس العظيمة هنا، وهناك.

لم تعد النافذة فى جدار مدرسة چونبو الابتدائية تستخدم كنافذة مصلحة حكومية، لكن الغرفة الموجودة فى الجهة المقابلة لها ما زالت مستخدمة.

سألنا السيد/ كيتاؤ ناظر مدرسة چونبو الابتدائية: فيم تستخدم؟ أجابنى:

ـ أكثر من يستخدمونها الآن هم أعضاء مجلس الآباء والمعلمون، وتستخدم أيضًا لعقد الاجتماعات المختلفة.

ثم شرح لنا السيد/ كيتاؤ المغزى من وجود مدارس بانجومى الابتدائية كمحور مركزى للتجمعات المختلفة فى مناطق كيوتو.

ـ توجد قاعة للحكم المحلى على أرض مدرسة چونبو الابتدائية، وبها أيضًا مخزن **لمعدات فرقة الإطفاء، وليس هذا قاصرًا على مدرسة چونبو الابتدائية، ولكن كثيرًا من المدارس الابتدائية فى مدينة كيوتو، كما أسمع، تخصص فى ركن من مبانيها قاعة للحكم المحلى، أو تجعل لها جزءًا على أرضها؛ وكثير من المدارس تجعل فى جزء منها مخزنًا لأدوات الإطفاء.**

ربما كان ذلك من السمات الشخصية لأهل كيوتو، فهم عندما يشرعون فى إقامة مجتمع، يجعلون من المدرسة مركزًا له، أو يكون التقسيم التعليمى هو محوره، وأعتقد أن ذلك كان مؤثرًا بدرجة كبيرة. إن المدارس فى كيوتو رمز باق لترابط أحياء المدينة ودليل على تماسكها حتى اليوم.

مدرسة أخرى كانت واحدة من مدارس بانجومى الابتدائية، إنها مدرسة «كايتشى».

هذه المدرسة مغلقة أيضًا مثل مدرسة يوساى الابتدائية. لكن مبنى هذه المدرسة يقوم الآن بدور «متحف تاريخ المدارس فى مدينة كيوتو».

يحوى المتحف ضمن مقتنياته، الكتب الدراسية والمناهج التى كانت تستخدم فى أوائل عصر ميچى.

كانت المناهج تراعى التوازن بين العلوم ذات المصادر الصينية التقليدية والكلاسيكيات اليابانية، والعلوم الغربية. وبهذا اتضح لنا أن التعليم اليابانى فى عصر ميچى، بدأ بإدخال المعارف الحديثة على ما كان لديه بالفعل من تقاليد تعليمية.

طلبنا من السيدة/ تاكيمورا يوشيكو، العضو الفنى بالمتحف أن تطلعنا بصفة خاصة على المنهج أو «لائحة الدراسة» فى بداية عصر ميچى، وهى وثيقة نادرة.

قالت السيدة/ تاكيمورا:

ـ هذه لائحة الدراسة للمدارس الابتدائية التى أصدرتها محافظة كيوتو فى

أغسطس ١٨٧١ م، وهو العام الرابع من ميچى. وهى كما نقول اليوم، المنهج الدراسى للمدارس الابتدائية، ويعتقد أنه أول منهج للمدارس الابتدائية الحديثة، أدخلت إليه الثقافة الغربية.

يا ترى ماذا كان الدافع الذى جعل المدارس الابتدائية فى كيوتو تسبق كل المناطق الأخرى فى اليابان وتضع هذا المنهج؟

قالت السيدة/ تاكيمورا:

ـ أنشئت المدارس الابتدائية فى العام الثانى من ميچى كمدارس ابتدائية حديثة، وليست مثل ما كان سائدًا قبل ذلك من تعليم شعبى كالذى كان يتم فى مدارس المعابد البوذية؛ كان الهدف هو تقديم تعليم يحقق المساواة بين مواطنى كيوتو جميعهم، وحتى لا يكون هناك فارق أو تفاوت بين مدرسة وأخرى، وضعوا المنهج، بهدف توحيد الدراسة فيها.

ماذا كان محتوى ذلك المنهج يا ترى؟

قالت السيدة/ تاكيمورا:

ـ إذا نظرنا إلى محتوى الكتب الدراسية التى كانت تستخدم فى ذلك المنهج، نرى أنها كانت تجمع بين الثلاثة: اليابانى، والصينى، والغربى.

كانوا يعلمون التلاميذ كل ما هو يابانى خالص، والتعاليم التى دخلت إلينا من الصين، والعلوم الغربية، تلك المعارف من أوروبا وأمريكا التى دخلت إلينا منذ نهاية عصر توكوجاوا. فكانت محتويات المناهج تقوم على تلك المعارف الثلاث.

إن أول منهج دراسى فى اليابان كان يمزج بين الأشياء القديمة أى الكلاسيكيات اليابانيــة والصينية، وبين الأشياء الجديدة، وهى المعارف فى العلوم الغربية. ومن ذلك التكوين للمنهــج يمكننـــا أن ندرك أن الناس فى عصر ميچى لم يتخلوا عن القديم حتى مع دخولهم فى عصر جديد، بل إنهم كانوا يعملون على تعليم ذلك القديم جنبًا إلى جنب مع هذا الجديد فى أسلوب منهجى منظم.

قالت السيدة/ تاكيمورا:

ـ عندما فكروا آنذاك فى مستقبل تعليم الأولاد، وفيما كانوا يتلقونه من تعليم

حتى ذلك الوقت فى الغرف الملحقة بالمعابد البوذية، وما كان يتلاقاه بعضهم فى مدارس خاصة بالعلوم الصينية، أى الفصول الخاصة، أى الفصول الخاصة التى كانت تدرس تعاليم الكنفوشية[١]، وأيضًا تلك الأماكن التى كانت تخصص لتعليم العامة من الكبار، كانت أماكن لسماع أحاديث مختلفة فى شئون المجتمع، تبلورت فكرة إنشاء المدرسة الابتدائية كمكان يجمع كل هذا فى مكان واحد.

وبالإضافة إلى ذلك أنهم كثيرًا ما كانوا يقرأون كتابات فوكوزاوا يوكيتشى آنذاك، فأخذوا فى الاعتقاد بأهمية المعارف الغربية لمستقبل اليابان.

عندما ننظر فى هذه اللائحة الدراسية، ندرك تمامًا أنهم قد وزعوا الكتب الدراسية بمهارة على المواد اليابانية، والصينية، والغربية، وقاموا بتدريسها على هذا الأساس.

فعلى سبيل المثال كتاب «مجمل تاريخ اليابان» الذى يسرد تاريخ اليابان منذ الإمبراطور «چينمو» حتى الإمبراطور «جويوزيه»، متتبعًا سرد الأحداث بترتيب السنوات منذ بداية اليابان حتى عصر «أزوتشى مومومياما»[٢]، وهو كتاب فى التاريخ متداول منذ القدم، وكان يدرس منذ عصر إيدو كتاريخ لليابان فى مدارس المقاطعات.

أما بالنسبة للتعاليم الصينية فكان يتم تدريس كتاب «مينيشيوس»[٣] وهو كتاب شهير لأنه واحد من الكتب الأربعة الهامة فى المدرسة الكنفوشية.

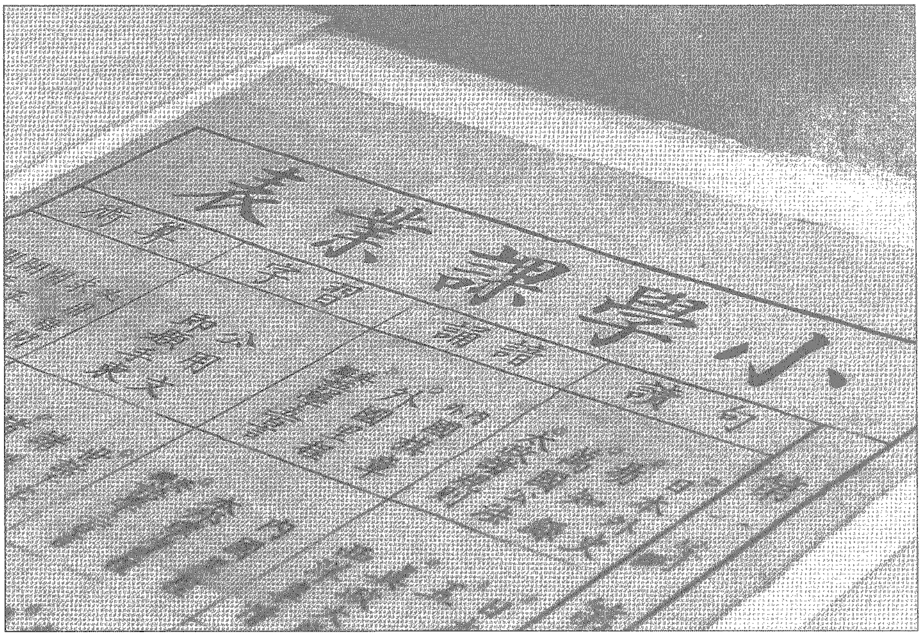
ومينيشيوس واحد من حكماء الصين، الذى نقل تعاليم «كنفوشيوس» إلى من تلاه، إلا أنه بحرصه على التعليم فيما عرف من تعاليمه، مثلما كان معروفًا أيضًا حرص أمه الشديد على تعليمه وهو طفل من خلال كتاب كان معروفًا للجميع هو «الانتقالات

---

(١) الكنفوشية: هى مدرسة فلسفية أخلاقية تهدف إلى بناء الإنسان أخلاقيًا، ليكون ضميره هو الرقيب والدافع لرقيه، وقيامه بدوره فى إعمار الأرض وبناء المجتمع حسب ما يتاح له من ظروف عصره الذى يوجد فيه وما لديه من موارد. بدأها كنفوشيوس فى الصين فى القرن الخامس قبل الميلاد، واستمرت تتطور وتواكب العصر حتى القرن الخامس عشر الميلادى. (المترجم).

(٢) عصر «أزوتشى مومومياما» أو عصر «مومومياما»: هو الفترة منذ تولى تويوتومى هيديوشى (١٥٣٧ ـ ١٥٩٨ م) حكم اليابان وتقدر بعشرين عاما فى نهاية القرن السادس عشر. وكان الإمبراطور وقتئذ هو الإمبراطور «جويوزيه». (المترجم)

(٣) «مينيشيوس» أو «موشى» (٣٧٢ ـ ٢٨٩ ق.م). (المترجم).



المنهج الدراسى (اللائحة الدراسية) التى أصدرتها محافظة كيوتو فى العام الرابع من ميجى
(محفوظة فى متحف تاريخ المدارس فى مدينة كيوتو)

الثلاثة لأم مينيشيوس»[1]، ولهذا كان الاهتمام بتعاليم مينيشيوس فى كيوتو اهتمامًا شديدًا.

يأتى بعد ذلك كتاب «أحوال الغرب»، وهو كتاب مشهور، كتبه فوكوزاوا يوكيتشى عما رآه وسمعه من أحوال الغرب أثناء رحلته إلى الغرب فى أواخر عصر إيدو.

ومن ذلك يتضح لنا أن محافظة كيوتو أرادت أن تعلم الأولاد العلوم المتوارثة والمعارف الغربية الجديدة.

وغير ذلك هناك كتاب «تاريخ اليابان غير الرسمى»، وهو من المعارف اليابانية.

ومن المعارف الصينية كان هناك « حوارات كونفوشيوس»، و«التعاليم الأخلاقية»، و«الكتب الخمسة» وغيرها.

ومن الكتب الدراسية فى المعارف الغربية، كان هناك كتاب «بلدان العالم» فى الجغرافيا، وكتاب «تفسير علوم الطبيعة» وكتاب «القانون الدولى»، الذى يشرح مبادئ القانون الدولى، وما إلى ذلك من الكتب.

فى الحقيقة كان من الصعب فهم محتوى كتاب «أحوال الغرب» إلى حد ما، فقد صدر ككتاب للكبار، إلا أنه كان يستخدم ككتاب دراسى للأطفال، وفيه ظهرت لأول مرة كلمة مدرسة ابتدائية؛ ويقال إن من قرأوا ذلك، قرروا أن ينشئوا هم أيضًا مدرسة ابتدائية فى كيوتو.

يقال إن كلمة «المدرسة الابتدائية» ظهرت لأول مرة فى كتاب «أحوال الغرب».

ومن هذا، يمكننا أن نفهم أن نظام التعليم فى عصر ميجى، قد تم تنظيمه متخذًا من النظام الأوروبى والأمريكى مرجعًا له، وعندئذ ظهرت كلمة «المدرسة الابتدائية» لتكون مدرسة تقابل الكلمة الإنجليزية Primary School.

عندما أخذت اليابان فى عصر ميجى عن الغرب نظمه ومعارفه، لم تأخذ الكلمة

---

(١) «الانتقالات الثلاثة لأم مينيشيوس»: كتاب من التراث الصينى، ذاعت شهرته لشهرة صاحبه، حيث كانت أمه حريصة على تعليمه أشد الحرص، وكانت توفر له كل السبل التى كانت تعتقد أنها ضرورية للتعليم والدراسة فكانت تغير مكان سكناها، حتى استقرت أخيرًا بجوار المدرسة. (المترجم).

الإنجليزية Primary School ونطقتها كما هى، كما أنها لم تكتب حتى ذلك الصوت بالحروف اليابانية الخاصة بالكلمات الأجنبية «كاتاكانا» (وهى أشكال من الحروف تستخدم لكتابة اللفظ الأجنبى كما هو فى صوته اللغوى دون ترجمة المعنى)، وإنما ترجمتها إلى كلمة جديدة آنذاك وهى «شوجاكو» أى «مدرسة ابتدائية»، واستعملت فى ذلك طريقتها الخاصة بها.

إن هذه «الترجمة» هى الوسيلة التى جعلت من الممكن وبشكل عملى تحقيق تغيير ميچى الذى يعتمد على «بناء الأشياء الجديدة على أشياء قديمة»، وهى طريقة يابانية خالصة، لم نرها فى بلد آخر فى نفس الحقبة الزمنية. كيف يتم تقييم ذلك؟ هذا ما سوف يحدثنا عنه دراكر، وكاتو فى الفصل التالى.

الفصل الثالث
سحـــر الترجمـــة

بينما كانت الهند ودول جنوب شرق آسيا التى وقعت تحت الاستعمار، لا تجد أمامها إلا أن تطبق التعليم فيها باللغة الانجليزية أو الفرنسية حتى تستطيع تحديث بلادها، كان دخول المعارف الغربية إلى اليابان يتم باللغة اليابانية.

فمن أجل الحفاظ على خصوصية الثقافة اليابانية قدر المستطاع، استحدثت العديد من الكلمات المترجمة، وصيغت كلمات باللغة اليابانية لتحل محل الكلمات الأجنبية.

نشأت كلمات مترجمة عديدة، الواحدة تلو الأخرى على يد فوكوزاوا يوكيتشى، و«نيشى أمانيه»[1] وغيرهما، حتى يتم نقل المفاهيم الغربية. فالكثير من الكلمات اليابانية التى نستخدمها اليوم مثل كلمة «فلسفة» (tetsugaku)، وكلمة «مثالى» (risō)، وكلمة «غريزة» (honnō) وغيرها، قد ولدت فى ذلك العصر.

يقول كاتو:

حتى العام العشرين من عصر ميجى، تمت ترجمة الأدبيات الغربية تحت إشراف الحكومة بطريقة منظمة تنظيمًا دقيقًا.

---

(١) نيشى أمانيه (١٨٢٩ ـ ١٨٩٧): أحد أعلام التنوير فى عصر ميجى، درس فى هولندا، وقام بترجمة «القانون الدولى العام»، وشارك فى تأسيس جماعة «السادس من ميجى»، وقدم الفلسفة الغربية إلى الفكر اليابانى، وهو الذى ابتكر كلمة «tetsugaku» (فلسفة) فى اللغة اليابانية ومن مؤلفاته «مائة نظرية جديدة ونظرية»، وغيره. (المترجم).

فإن لم توجد كلمة باليابانية مناسبة لما يراد ترجمته، ابتكر لها نيشى أمانيه، ومن تلاه كلمة جديدة.

فكثير من الكلمات التى يظنها اليابانيون كلمات قديمة، هى فى الحقيقة من ابتكارات عصر ميچى.

فعلى سبيل المثال عندما نقول اليوم «إذا حلت الحكومة البرلمان»، نجد أن الكلمات «حلت»، و«الحكومة»، و«البرلمان»، أو كلمة «انتخاب عام» أو كلمة «حزب الأقلية» وغيرها، من تلك الابتكارات.

حوالى ٩٠ ٪ من هذه المفردات فى اللغة اليابانية نحتت فى عصر ميچى.

لم تظهر مثل هذه الكلمات فى أدبيات عصر إيدو. فلم تكن فيها كلمة «حكومة»، ولا كلمة «انتخاب» كما لم تكن فيها أيضًا كلمات مثل «حزب الأقلية»، أو «حزب سياسى». فهذه الكلمات كلها مترجمة ظهرت بعد قيام ميچى.

لقد صنعوا الكثير من الكلمات فى عشرين عامًا فقط.

كان المترجمون يقومون بعملهم فى استماتة شديدة إلى حد الجنون.

كان الأمر يأتى من أعلى بترجمة «القانون المدنى الفرنسى» من «مجموعة قوانين نابليون»، لكن من تلقوا الأمر لم يكونوا على معرفة باللغة الفرنسية، كانوا فقط يعرفون الهولندية، والإنجليزية، لكن الأمر كان يأتى محددًا لليوم والشهر الذى يجب أن تتم فيه الترجمة كاملة. فما كان منهم إلا أن واصلوا الليل بالنهار، فكانوا يقومون بالعمل طوال اليوم، واستخدموا معاجم فرنسية هولندية، وترجموا الفرنسية إلى الهولندية، وكانوا يترجمون فى استماتة كالجنون.

هكذا قاموا بإنجاز مشروع كبير للترجمة الشاملة، التى كانت الأساس فى إدارة دواوين الحكومة، وإدارة المدارس، والحياة الاجتماعية. فبدون الكتب المترجمة لن تكون الإدارة الحكومية. فنظم الإدارة الحكومية وضعت لتحاكى النموذج الغربى.

كذلك لم يكن ممكنًا إقامة نظام قضائى حديث اعتمادًا على مجموعة النظم القانونية للساموراى والتى كانت تشكل القانون فى عصر توكوجاوا.

فكان لابد من إدخال مصطلحات فنية جديدة لوضع نظام قضائى. وبما أن المصطلحات الفنية الجديدة كلها كلمات أجنبية، كان لابد من أن تقوم حكومة ميچى بالترجمة ذلك المشروع الكبير.

الكلمات التى ترجمت كانت موجودة فى اللغة اليابانية منذ القدم، ومعظمها مكون من تجميع بعض المقاطع الصينية «الكانچى».

من مزايا هذه الطريقة، أنه يمكن فهم المعنى المراد من نظرة واحدة، تكتشف العلاقة بين المقطع والمقطع الآخر.

ومثال لذلك ما ترجموه عن نظام التعليم من الإنجليزية والفرنسية إلى المقاطع الصينية. لقد ترجموا كلمة مدرسة ابتدائية إلى «**shō-gakko**» وكلمة مدرسة إعدادية إلى «**chū-gakko**» وكلمة مدرسة ثانوية إلى «**kōtō-gakko**»، وكلمة جامعة إلى «**dai-gaku**». ومن هذا فهموا أن هناك ترتيبًا يتدرج من أسفل إلى أعلى فالأعلى. ذلك أن كل جامعة أو مدرسة ابتدائية أو غيرهما من المدارس تشترك كلها فى مقطع «**gaku**» والذى يعنى «العلم». فيفهم من يراها من الوهلة الأولى أنها أنواع من المدارس، ويفهم أيضًا أن الجامعة هى المستوى الأعلى لأن بها مقطع «**dai**» الذى يعنى «الكبير»، وأن المستوى الأدنى هو المدرسة الابتدائية لأن بها مقطع «**shō**» والذى يعنى «الصغير». وبذلك من يرى المقطع يفهم ما يراد على الفور.

كانت هذه ميزة التوجه الداعى إلى الترجمة إلى المقاطع الصينية، ولم يكن حفظ المقاطع أو تذكرها شيئًا مذكورًا.

بل كان الأكثر صعوبة فى الحفظ والتذكر، هو استخدام تلك المجموعة الأخرى من الحروف المسماة الكاتاكانا.

فإذا كانوا قد استخدموا الكاتاكانا، فلن يترجموا كلمة المدرسة الابتدائية، ولكن سيكتبونها عن الإنجليزية لتكون مثلًا «برايمارى سكول (**primary school**)»، أو كلمة مدرسة الشعب إذا ترجموها عن الألمانية مثلًا، فستكتب «فولكس شيوليه(**Volksschule**)». ولن يكون أمامهم إلا أن يتجرعونها هكذا، وبالتالى لن يدركوا الفارق بين «ميدل سكول(**middle school**)»، و«برايمارى سكول»، ولن يفهموا أيهما أعلى من الآخر إلا إذا كانت لديهم معرفة بالإنجليزية بدرجة ما.

مشكلة الكلمات المكتوبة بالكاتاكانا، هى أنه على قدر عدد الأسماء والكلمات لابد من كتابة كلمات جديدة ليس بها مقاطع، ولا رابط بينها ككلمات، ويتعين حفظها كما هى بكل أعدادها، لأنها لم تترجم.

أما دراسة اللغة الإنجليزية فأمر مختلف قليلًا. فإذا كنت تعرف الإنجليزية حقًا ففى اللغة الإنجليزية علاقة بين الكلمات وبعضها.

فمثلًا كلمة «جامعة»، يستخدمون لها فى الإنجليزية كلمة «**university**»، وهى كلمة يفهمها من تكون لغتهم الإنجليزية هى اللغة الأم من خلال علاقتها بكلمات أخرى مثل: «**universal**» أو «**universality**».

يمكن من خلالها أن يقولوا أشياء كثيرة باستخدامهم كلمة «**universal**» وحدها، ويدركون أن كلمة «**university**» مشتقة من كلمة «**universal**».

بالنسبة لمن يعرفون الإنجليزية، هناك علاقات بين الكلمات فى اللغة الإنجليزية تنتج عنها اشتقاقات كثيرة، وتجد لنفسها فى داخل رؤوسهم مسارات ذات نظام منسق، وليس مجرد كلمات مبعثرة.

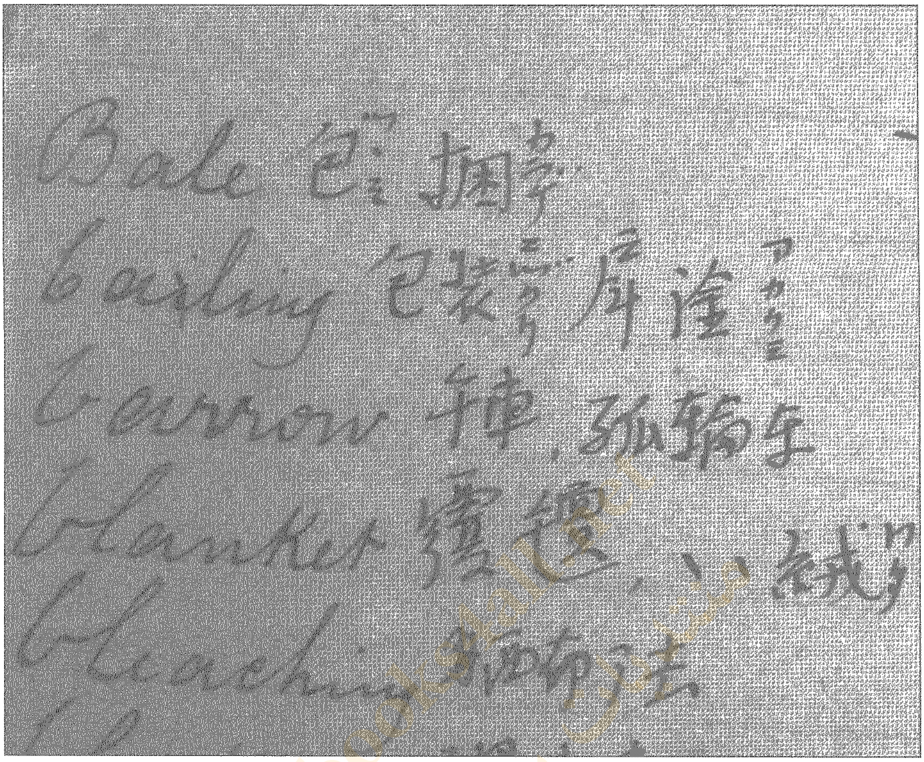
ومن يعرف منهم اللاتينية أو حتى اليونانية، يدرك تلك العلاقات أكثر.

أما الذى جعل تلك الكلمات مشتتة لا ترتبط بينها وبين بعضها فى أى نظام على الإطلاق، هى تلك الكلمات المكتوبة بالكاتاكانا. إنها طريقة غاية فى الخمول والكسل؛ طريقة تضع حروف الكاتاكانا مقابل ألفاظ الكلمات الأجنبية الأصل، بل وأحيانًا تخطئ فى ذلك.

فإذا لم تترجم كلمة «**university**» إلى كلمة «**dai-gaku**» فى اليابانية، واكتفى بكتابتها بالكاتاكانا، فلن يكون استيعابها ممكنًا، ولن يتم الكشف عن علاقتها بكلمات أخرى.

لذلك، فترجمة الكلمات الأجنبية إلى المقاطع الصينية، أمر يدعونا إلى أن نقدره أكثر، بل وأن ندرك مزاياه، وأعتقد أنه يجب علينا أن نحترمه أكثر فى المستقبل، بل وحتى من الآن.

هكذا أفادت اليابان من الترجمة كوسيلة، واستطاعت أن تضع التعليم الحديث داخل حيز اللغة اليابانية ونطاقها.



كراسة الكلمات التى وضعها يامانوبيه تاكيؤ بعد معاناة شديدة أثناء فترة دراسته وتدريبه فى لندن، والذى كان مديرًا لمصنع أوساكا للغزل والنسيج، كما سيأتى ذكره فى الفصل الرابع (تمت الموافقة على نشر هذه الوثيقة بتصريح من «تويوبو»).

في المقابل، وكما ذكرنا من قبل، أنه في الدول التي صارت مستعمرات للدول الأوروبية كالهند وجنوب شرق آسيا، كان لابد أن يتم فيها التعليم الذي يدرس الحضارة الحديثة بالإنجليزية أو الفرنسية، فكان على سبيل المثال بالإنجليزية في الهند، وبالفرنسية في ڤيتنام وفي إندونيسيا بالهولندية. يشير إلى ذلك الدكتور/ دراكر بقوله:

هناك الكثير من الدروس الهامة في عصر ميچي، واحد منها هو تطبيق التعليم باللغة اليابانية. لقد قلت إن التغيير الذي حدث في ميچي تميز بشكل كبير في أنه بنى حداثته على تراثه، وهو ما ليس له مثيل عبر التاريخ. وتطبيق التعليم باللغة اليابانية هو خير مثال يعبر عن ذلك.

الحداثة في بلدان أخرى غير يابان ميچي، تعني معاداة التراث وإنكاره.

ولنأخذ من الهند اليوم مثالًا على ذلك. مائتا مليون من الهنود يمارسون حياتهم وهم يستخدمون الإنجليزية فقط. هؤلاء يعيشون في الهند، ولكنهم في رأيي لا يعيشون في المجتمع الهندي.

إنهم يعيشون في مجتمع يختلف عن الهند التقليدية، في مجتمع كما لو كان يجمع بين إنجلترا والهند، ويمكن أن نطلق عليه المجتمع «الأنجلوهندي»، بل يمكن أن أقول إنهم يريدون أن يكونوا إنجليزًا إلى أبعد حد يستطيعونه.

اللغة الإنجليزية بالنسبة لهم هي اللغة الرئيسية في معظم الأحوال، واللغة الهندية ليست إلا شيئًا ثانويًا. ومثال لذلك، زميل لي في الجامعة هو وزوجته هنديان، إلا أنهما عندما يتحدثان إلى بعضهما لا يستخدمان إلا الإنجليزية.

الزوجة من «دلهي»، وتتحدث لغة تلك المنطقة، وهو من «بومباي» أو «مومباي»، ويتحدث لغة تلك المنطقة، لكنهما لا يستطيعان الحديث معًا باللغة الهندية. هذان الزوجان مثال نموذجي للمائتي مليون هندي الذين يتخذون الإنجليزية لغة رئيسية لهم، وقد فقدوا الركيزة الرئيسية للثقافة الهندية.

ماذا كان سيحدث لو لم نطبق التعليم باللغة القومية؟ يشير السيد/ كاتو إلى هذه النفطة من زاوية مختلفة عن الدكتور/ دراكر، وهي قضية قيام فارق طبقي في الثقافة في البلد الواحد.

يقول كاتو:

اللغة الإنجليزية فى الهند هى لغة من أجل امتصاص كل المعارف الغربية.

وفى الهند الصينية أى ڤيتنام وكمبوديا وغيرهما، تقوم اللغة الفرنسية بذلك الدور.

لهذا السبب تعتبر الثقافة الحديثة لسكان الهند الصينية هى الثقافة الفرنسية، وبالنسبة للهنود هى الثقافة البريطانية.

اليابان فقط استثناء.

معظم الأدبيات الأجنبية فى الفترة الأولى لميچى كانت باللغة الإنجليزية، وكذلك بكل من الفرنسية والألمانية. وكان اليابان هو البلد الوحيد الذى قام بتنفيذ خطة واسعة للترجمة.

أما الدول الآسيوية الأخرى فلم تجر فيها الأمور كذلك.

ففى الهند مثلًا، يتعلمون الإنجليزية.

ولهذا فالهنود صاروا يتحدثون بالإنجليزية، ويقرأون الإنجليزية، ويكتبون بها أيضًا، ولم يقوموا بترجمة الأدبيات الإنجليزية إلى اللغة الهندية.

لذلك، فإن ما يحدث بعد ذلك هو أن كبار الأثرياء من الطبقة العليا هم فقط الذين يستطيعون إرسال أبنائهم للمدارس ثم للسفر والدراسة فى إنجلترا. أما غالبية الشعب، ليس لديهم من الوقت ما يكفى لفعل ذلك فالبيوت التى تستطيع إرسال أولادها إلى المدرسة قليلة العدد، وبالطبع لن يفكروا فى السفر أو الدراسة فى إنجلترا.

وعليه فالهنود ثلاثة أنواع.

النوع الأول: هنود ذوو لكنة إنجليزية تعلموا الإنجليزية فى المدارس الهندية وذهبوا للدراسة فى إنجلترا، وهؤلاء هم الطبقة العليا.

ثم النوع الثانى، وهم من الطبقة الوسطى العاملة، الذين تعلموا الإنجليزية فى المدارس الهندية، ويمارسون أعمالهم وقد اكتسبوا بذلك تقنيات متنوعة. ولأنهم تعلموا على يد معلمين هنود، فهم يتحدثون إنجليزية ذات لكنة هندية قوية.

ثم يأتى بعد ذلك النوع الثالث، وهم الذين لا يتحدثون الإنجليزية، ويمثلون أكثر

من خمسين بالمائة من أهل الهند. ويختلف الوضع بتغير العصر، ومع ذلك فنصف الشعب الهندى لا يتحدث الإنجليزية.

لهذا، من الوهم أن نظن أن الهنود يتحدثون الإنجليزية، فالأمر ليس كذلك. إن أكثر من النصف لا يستطيعون التحدث بالإنجليزية على الإطلاق إنهم يتحدثون لغة الإقليم الذى ولدوا به.

وهكذا اختلفت اللغة التى تتحدثها كل طبقة.

وقد مكن ذلك للاتجاه الذى يجعل الطبقة العليا تحتكر الثقافة الحديثة.

أو بعبارة أخرى، لم يساعد ذلك على اختيار الموهوبين والنابهين من الأطفال من بين الشعب كله، وإتاحة الفرصة أمامهم ليتعلموا تعليمًا عاليًا، وتشجيعهم على السير قدمًا فى سبيل الثقافة. فمهما كان الطفل ذكيًا، فلن يتمكن أبدًا من الذهاب إلى المدرسة طالما كان ينتمى للطبقات الدنيا.

وربما لا يتناسب ذلك أيضًا بالمقارنة مع عصر الإقطاعيات فى اليابان.

مثل الشىء يحدث فى المستعمرات الفرنسية أيضًا.

فى أى دولة تقع تحت الاستعمار يقوى فيها مثل هذا الاتجاه.

فى أفريقيا التى صارت معظم بلادها مستعمرات، أو حتى فى الشرق الأوسط، تختلف اللغات التى تستخدمها الطبقات هناك اختلافًا شديدًا. وهذا أمر شديد الضرر. لأنه يذكى الانفصال الثقافى بين الطبقات فى البلد الواحد.

إلا أن مثل هذا الأمر لم يحدث فى اليابان مطلقًا، فإذا ما ترجمت الأدبيات الأجنبية إلى اللغة اليابانية يستطيع أى شخص أن يقرأها طالما تلقى تعليمه الإلزامى.

لذلك فمعظم اليابانيين إذا أرادوا أن يقرأوا يستطيعون أن يقرأوا دستور الدولة اليابانية نفسه. والغالبية العظمى من اليابانيين تستطيع قراءة الصحف فى سهولة ويسر.

ثم يمكنهم قراءة كتاب متخصص مترجم عن لغة أجنبية.

ما زال هناك الكثير مما يمكننا سرده فى هذا الصدد، ولكن على أية حال أحد مزايا

أخذ اليابان بمبدأ الترجمة، هو تقليل الفجوة بين الطبقات الثقافية والسبب فى وصول الشعب كله لفهم ثقافة الحداثة هو الجزء الإيجابى الأكبر.

هناك ميزة أخرى للأخذ بمبدأ الترجمة يقدمها لنا السيد/ كاتو. وهى القدرة على التفكير فى وضع المفاهيم الأجنبية كما هى دون تحوير منظومة اللغة اليابانية، ولذلك صار فهم الثقافات الأجنبية يسيرًا، وتم استيعابها سريعًا. يحدثنا السيد/ كاتو عن تفاصيل ذلك من خلال كلمة «الجامعة» (daigaku) كمثال مرة أخرى.

يقول كاتو:

كلمة «جامعة» (daigaku) موجودة فى الكلاسيكيات الصينية وإن كان المعنى يختلف قليلًا، ولكنها دخلت إلى اللغة اليابانية منذ ما يزيد على الألف سنة. وهى الكلمة التى جعلوها تقابل كلمة «university» فى الإنجليزية.

كلمة «daigaku» لها مذاقها إذا فكرنا فيها كجزء من اللغة اليابانية، ولهذا السبب فهى ذات صلة متبادلة مشتركة وتقوم بدورها فى إدخال ذلك المفهوم فى الثقافة اليابانية.

وذلك يتعلق أيضًا بما يعرف باستقلال الثقافة.

إلا أنه فى حالة إذا أدخلنا كلمة «يونيفرستى» وكتبناها كما هى بأحرف الكاتاكانا، لن يتحقق لنا شىء من ذلك.

فسوف يفوح منها مهما فعلوا ما ينم عن أنها كلمة أجنبية، وإذا ما استمر دخول الكلمات المكتوبة بالكاتاكانا إلى اللغة اليابانية فسوف تلصق بها ألوان ثقافة الدول الأجنبية. لذلك فستكون الاستقلالية الثقافية مهددة.

لقد تم استخدام حروف الكاتاكانا للكلمات الإنجليزية بشكل كبير، فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية. لأنها كانت فترة احتلال.

لكن لم ترتفع درجة فهم المفاهيم الغربية نتيجة لذلك لأن الحديث للأمريكيين أو للبريطانيين بإنجليزية منطوقة بالكاتاكانا لم يكونوا ليفهموه بالفعل، لأن النطق مختلف واللكنة كذلك.

ولن ينشأ حوار حول ما إذا كانت مفيدة فى الحياة اليومية أم لا، وعلى العكس من ذلك، يكون الامتنان لوجود «الكانچى».

وإذا تساءلنا كيف استطاع موظفو الدولة فى ميچى من البيروقراط أن يستوعبوا نظم الدولة المدنية الغربى الذى لم يكونوا قد سمعوا عنه حتى ذلك الحين، بتلك السرعة؟ أعتقد أن الإجابة هى أنهم تمكنوا من فهم تقنيات تلك النظم وجعلوها كأنها من أمورهم الأصيلة، بفضل ذلك الإسهام الكبير لمشروع الترجمة.

إن الحرص على اللغة اليابانية والتمسك بها، والحفاظ على استقلالية الثقافة، لا يؤدى مطلقًا إلى الانعزال. إن الحفاظ على ثقافة بلدنا، ليست مقاطعة للثقافات الأجنبية، بل إن فهم الثقافة القومية حق فهمها يؤدى إلى فهم الثقافات الأجنبية، وهذا مغزى مقولة السيد/ كاتو. وإذا كانت تلك المقولة للسيد/ كاتو، الذى يتقن الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات الأجنبية الرئيسية، ويقرأ الأدبيات الأجنبية دون عناء، فهى تستحق منا أن ننصت إليها باهتمام أكثر.

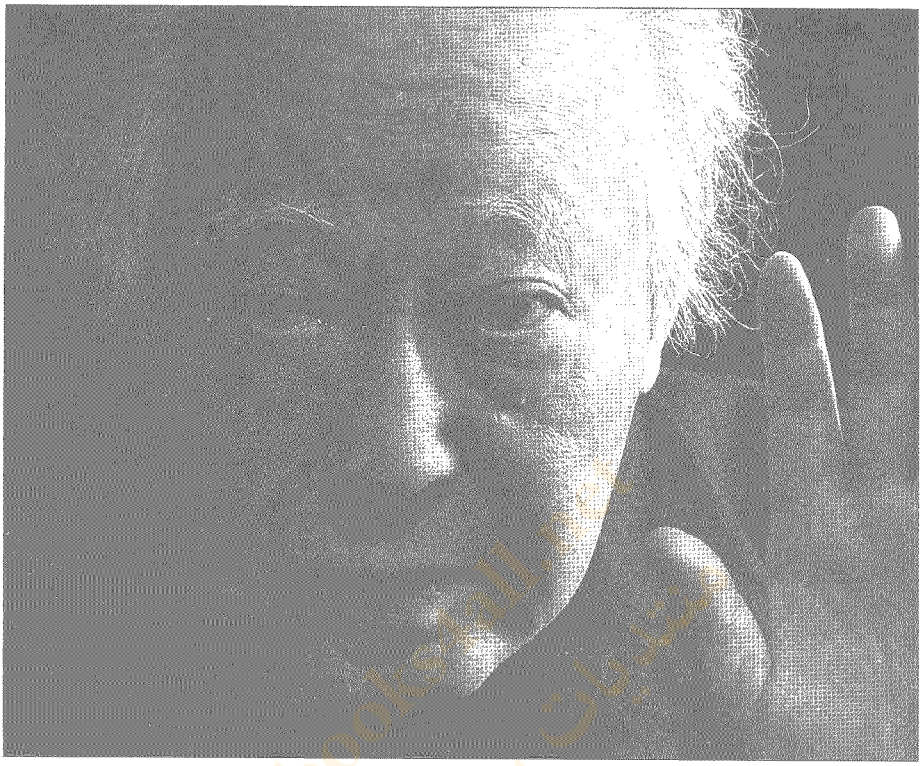
يقول كاتو:

الآن، ونحن نعيد النظر فيما نأخذه عن ميچى، إذا أخذنا موضوعًا مميزًا كموضوع اللغة، أعتقد أننا يجب أن نتعلم الطريقة التى تم بها استيعاب الثقافات الأجنبية من خلال الترجمة ومغزاها حتى نستطيع أن نقدم ترجمة جيدة لابد من معرفة لغتنا معرفة جيدة. لأننا سننقل إلى اللغة اليابانية.

فمهما كانت معرفتنا بالإنجليزية فلا فائدة منها إن لم نستطع الكتابة باليابانية، فمدى امتلاك القدرة على التعبير باللغة اليابانية، مرتبط بالترجمة، فإذا ارتفعت المقدرة على التعبير باللغة اليابانية، تقدمت الترجمة فى نفس الوقت فالعلاقة بينهما علاقة تبادلية. وأعتقد أن علينا أن نتعلم تلك النقطة.

إن ما يميز مترجمى ميچى عن المترجمين فى العصور التالية لهم، ذلك أنهم كانوا يعرفون اللغة اليابانية معرفة جيدة، وكذلك الكلمات الصينية التى صارت من اللغة اليابانية.

إنهم كانوا يعرفون حقًا الثقافة اليابانية، وثقافة الكانچى (المقاطع الصينية) هى أيضًا جزء منها.



يقول السيد/ كاتو شوئيتشي: إحدى مزايا أخذ اليابان بمبدأ الترجمة، هو تقليل الفجوة بين الطبقات الثقافية.

إلا أن الوعى بالثقافة اليابانية اليوم قد انخفض. وتناقص عدد الذين يستطيعون قراءة المؤلفات والمجموعات الشعرية التى بها الكثير من الكانچى.

ويشير السيد/ كاتو، إلى أنه فى مقابل ما يحدث فى اليابان اليوم من نسيان لمبدأ الترجمة فى عصر ميچى، وانخفاض الوعى بالثقافة القومية، إذا ما نظرنا إلى العالم نظرة أوسع، نجد أن ما حدث فى اليابان من قبل، آخذ فى الحدوث شيئًا فشيئًا.

يقول كاتو:

الآن تحدث ظاهرة عالمية يسمونها العولمة أو «جلوباليزيشن» بالإنجليزية، و«مونديااليزاسيون» بالفرنسية.

إذا نظرنا إلى الخليط الثقافى من محور اللغة، نجد أن القوة الضاغطة لدينا هى اللغة الإنجليزية. لم يكن معظم ذلك موجودًا في الخمسينيات، لكنه الآن موجود بقوة شديدة فإذا ما جعلت من أى نشاط ثقافى نشاطًا دوليًا، يقع فى شباك اللغة الإنجليزية فى نفس اللحظة، فهناك اتجاه لتحويل أى شىء إلى اللغة الإنجليزية.

وعليه ففى حالة أمريكا، فإنهم يقرأون كل شىء مترجمًا. وفى ذلك بعض الشبه بما كان يحدث فى اليابان من قبل حين كان يقرأ اليابانيون المترجمات.

فى الخارج، هناك اتجاه للخروج من الجنسية القومية والانفصال عنها شيئًا فشيئًا، حتى فى الموسيقى، كما أن اختفاء الهوية أحد الاتجاهات فى الفن المعاصر. فلا نعرف جنسية العمل الفنى. وأصبح من أصعب الأمور الآن أن تخمن جنسية عمل من الأعمال مهما أمعنت فيه النظر. ولا يمكنك أن تحدد إن كان صاحبه هنديًا أو ألمانيًا أو يابانيًا.

ولذلك يمكننى أن أقول إن العالم كله صار نوعًا من الخلطة الثقافية. فلنعد إلى ما تحدثت عنه بشأن عصر الترجمة التنظيمية العظيم الذى عرفه عصر ميچى.

وهو أكبر كثيرًا مما سبق أن مرت به اليابان.

والصين الآن فى سبيلها إلى ذلك، لا يقومون بتشفير شىء على الإطلاق، يترجمون كل شىء. فكلمة «تلفزيون»، ترجمتها الصينية هى «تليفزيون».

اليابان الآن تقوم بعكس ذلك، فلم تعد تقوم بالترجمة المنظمة فحسب، بل إنها تدخل الكلمات المكتوبة بالكاتاكانا كأمر اعتيادى. أما الصين فهى تترجم كل شىء ما عدا أسماء الأعلام.

لهذا السبب، أرى أنه من الأفضل لنا الآن أن نعيد النظر ونتعلم من عصر ميچى ما كان فيه من مبدأ الترجمة.

التعليم والترجمة كانا عماد الإستراتيجية الثقافية التى اتخذها قادة الحكومة فى أوائل عصر ميچى.

إن التعليم هو أهم شىء لإحداث التغيير، وهنا أفادوا إفادة ذكية من مدارس المعابد، ومدارس المقاطعات التى آلت إليهم من عصر إيدو. كذلك استخدموا الترجمة كوسيلة وأدخلوا إليهم اللغات الأجنبية والثقافات الأجنبية دون أن يتخلوا عن اللغة اليابانية بل جعلوا الكلمات الأجنبية داخل منظومتهم اللغوية.

التعليم والترجمة هما رمز يخبرنا عن خصائص ومميزات التغيير فى عصر ميچى والتى تلخصها العبارة القائلة «بناء الجديد فوق أشياء قديمة».

إن حركة التعليم الحديث التى بدأت فى كيوتو فى العام الثانى من ميچى (١٨٦٩م)، انتشرت بعد ثلاث سنوات فى كل أنحاء اليابان عندما أعلنت الحكومة نظام التعليم فى العام الخامس من ميچى. حيث تحولت مدارس المعابد فى كل منطقة واحدة تلو الأخرى لتحل محلها مدرسة ابتدائية، وفى خلال ثلاث سنوات تم إنشاء ٢٤ ألف مدرسة.

لقد وضع الناس فى عصر ميچى مستقبل بلادهم فى تعليم أولادهم.

ويبدو أن مدارس بانجومى الابتدائية فى كيوتو كانت هى النموذج المثالى لدى فوكوزاوا يوكيتشى رائد الانفتاح الحضارى. لقد سجل انطباعات الأطفال الذين كانوا يتعلمون هناك، واضعًا عليهم آمالًا كبيرة، يقول:

فى الإحصائية التى نشرت عن المدارس فى شهر إبريل من العام الخامس من ميچى، كان عدد التلاميذ فى المدارس المتوسطة والابتدائية خمسة عشر ألفاً وثمانمائة واثنين وتسعين تلميذاً وتلميذة، وكان هناك ثمانى تلميذات لكل عشرة تلاميذ، وكانت

أعمارهم جميعاً تتراوح بين السابعة أو الثامنة حتى الثالثة عشر أو الرابعة عشر. بعد عشر سنوات من الآن سيصير هؤلاء الأطفال أرباب أسر وأصحاب عمل، ستتزوج الفتيات وينجبن أطفالاً، ويجتهد كل منهم فى عمله ويخرج إلى الدنيا، وسوف يربون أطفالهم فى منازلهم، وهذه سعادة الإنسان التى لا تعدها سعادة. بلغ عددهم هذا العام خمسة عشر ألفًا، وبعد عشر سنوات يتضاعف العدد ليصير ثلاثين ألفًا، ولسوف تتبع نفس المنهج محافظات أخرى، ولن تجد أمامها إلا إنشاء المدارس، وبعد ذلك سوف يعمم النظام فى أنحاء اليابان، وسوف يقوم هؤلاء الصغار بتعلم الخلق القويم، وينعمون بالوئام فى الأسرة. إنهم من سيجملون الأوضاع من حولنا ويساعدون فى تطبيق القوانين العامة، هم من سيعملون فى المصانع ويديرون المتاجر، وهم من سيأتى بالثروة لتعمم على الجميع، سوف ينيرون عقول العامة بالمعارف والأخلاق وهم الذين سيجعلون الحكومة ترعى حقوق الشعب، هم من سيعتمد على عمله لكسب قوته، ويحققون بذلك استقلال الفرد واستقلال الأسرة، ومن ثم استقلال الدولة؛ هم أيضًا الذين سيعقدون الصلات بيننا وبين دول العالم على اتساعه، ولن يخلفوا وعودهم، ولن يخسروا مكاسب تجاراتهم الدولية.

مجمل القول، إنه إذا أرادت اليابان أن تجعل من الانفتاح الحضارى حقيقة واقعة لا مجرد اسم، فليس أمامها من طريق إلا أن تعتمد عليهم حتى تصير فى أعز مكانة.

إن قيام المدارس الأهلية، وتعليم المواطنين، كان حلمى لسنوات طويلة، واليوم، كانت سعادتى بما شاهدته من التعليم فى المدارس عندما جئت إلى كيوتو، تعادل سعادتى حين عدت إلى الوطن ولاقيت أصدقائى القدامى.

فمن يرى هذه المدارس ولا يشعر بشىء فهو إنسان ليس محبًا لهذا البلد. (من كتاب فوكوزاوا يوكيتشى «مذكرات المدارس فى كيوتو»).

كان فوكوزاوا يوكيتشى يعتقد أنه إذا تربى الأولاد واكتسبوا المعارف الحديثة وصاروا عناصر بشرية رائعة، يمكن لليابان وبدرجة كبيرة أن تكون فى مصاف الدول الكبرى.

لكن من ناحية أخرى، فالوقت الذى يمكننا فيه تحقيق التحديث محدود.

وأى تأخير فى إحداث التغيير يعرضنا للوقوع كمستعمرة للدول الغربية. وحتى نتمكن أن نربى هؤلاء الأطفال ويصبحوا قادرين على تولى مهام العصر التالى ماذا سنفعل تجاه التغيير؟

كانت الوسيلة التى اتخذها أبناء ميجى هى الإفادة من العناصر البشرية الموجودة بالفعل. سوف نرى ذلك بالتفصيل فى الفصل التالى.

الفصل الرابع

الحكمة فى تحويل الثروة البشرية

«شيبوساوا إيئيتشى» و«يامانوبيه تاكيؤ»

التغيير الذى أحدثته يابان ميچى، لم يكن فقط فى أنها أفادت مما كان لديها من قبل مـــن قاعـــدة تعليمية، حتى تدخل إليها المعارف الغربية، لكن كان من المميزات الكبرى الأخرى أنها فتحت طريق تحويل العنصر البشرى الذى سبق له أن تلقى تعليمـــه من قبل حتى يواكب العصر الجديد، وأفادت من تلك العناصر إفادة كبيرة. ولم يكن الأمر مجرد إعادة توظيف رجال «الباكُفو» فى الحكومة الجديدة. كان أبناء أسر الساموراى الذين صاروا من العاطلين بعد أن فقدوا مميزاتهم كمحاربين، قد تحولوا إلى موظفين أو معلمين، بل إن بعضهم دخل إلى عالم الأعمال.

فكل من أوكوبو توشيميتشى، و«سايجو تاكامورى»[1]، و كيدو تاكايوشى ورفاقهم من الشخصيات الرئيسية الهامة فى الحكومة الذين وضعوا الأساس الذى قامت عليه يابان ميچى، كانوا فى الأصل من المرتبة الدنيا فى طبقة الساموراى.

يقول دراكر:

النجاح الأكبر لميچى أنه استطاع حل المشكلة الكبرى فى تحويل العناصر البشرية

---

(١) سايجو تاكامورى (١٨٢٧ـ ١٨٧٧م): واحد من سياسيى حركة الإصلاح، كان قائدًا لقوات مقاطعة ساتسوما، والذى استطاع فتح قلعة «إيدو» دون إراقة دماء، وصار قائدًا للجيش فى الحكومة الجديدة. اختلف مع أوكوبو حول مسألة غزو كوريا، فخرج من الحكومة وافتتح مدرسة خاصة جمعت كل مؤيديه، ثم دخل فى صراع عسكرى داخلى انتهى بهزيمته وانتحاره. (المترجم).

التى عاشت فى مجتمع مستقر يفتقر للمرونة فى ظل حكومة إقطاعيات عسكرية، إلى رجال أعمال، وبيروقراط، وعلماء.

كانت هذه هى أصعب المشاكل، كان لابد من تحويل الإقطاعية ـ ذلك الحيز المكانى ـ إلى شركة حديثة، أو هيئة حكومية، أو جامعة حديثة، وإحداث حراك فى المجتمع، وإلغاء النظم التقليدية المتبعة بشكل أساسى.

لم يكن ذلك أمرًا سهلًا، لقد احتاج التوصل إلى الحل من ثلاثين إلى أربعين عامًا.

كان الجيش أول من حل هذه المشكلة. فقد كان الجيش قبل ميچى عبارة عن فرق من الساموراى المحاربين تملكها المقاطعات كقوة عسكرية، وكانت تنظيماتها تقليدية ثابتة.

لقد ورِّث ميچى هذه المشكلة الصعبة من عصر إيدو، إلا أنه تغلب عليها واستطاع حلها قرابة عصر شووا.

يقول السيد/ دراكر إن سر نجاح ميچى فى تحويله البارع لطبقة الساموراى ذات الميراث الباقى والمتراكم من عصور مضت لتتناسب مع العصر القادم. لماذا كان ذلك التحول ممكنًا؟

يقول السيد/ كاتو إن واحدًا من الأسباب التى جعلت التحول ممكنًا، أن طبقة الساموراى استطاعت خلال سنوات عصر إيدو المائتين والخمسين أن تصنع لنفسها معايير البيروقراط.

يقول كاتو:

لقد كان عصر توكوجاوا مائتين وخمسين عامًا من السلام، إلى أن جاءت السفن السوداء. لم تكن هناك حروب طيلة المائتين وخمسين عامًا، ولم يكن هناك تمرد أو ثورات غير تلك التى كانت فى «شيمابارا»[1] وانتهت بقمع المسيحيين هناك. فى نهاية

---

(١) التمرد فى شيمابارا (١٦٣٧ ـ ١٦٣٨): كان تمردًا للفلاحين، وعصيانًا للحكومة، التى كانت قد منعت المسيحية، وكان فى شيمابارا كثير من الذين اعتنقوها، وكذلك فى منطقة أماكوسا، كان عددهم أكثر

القرن السادس عشر وبدايات القرن السابع عشر، كان هناك بعض التمرد فى مكان أو فى آخر، إلا أنه لم تقم حروب بعد ذلك.

والساموراى هم فى الأصل محاربون، لكن لأنه لم تكن هناك حروب، كان كل منهم فى مقاطعته، يذهب إلى القلعة حيث يقوم هناك بأعمال إدارية، وبالطبع كانت هذه الأعمال فى مضمونها، أعمالًا بيروقراطية.

والبيروقراطيون هم جماعة من المتخصصين.

سلطة حاكم المقاطعة، أو سلطة الشوجون (أمير الجيوش والحاكم الأعلى العام) هى التى تحكم البلاد، لكن أدوات الحكم، هى المنظمة البيروقراطية، وكان الساموراى فى حقيقة الأمر، هم البروقراطيون. كانت المنظمة البيروقراطية تمتد بشكل أو بآخر لتشمل كل أنحاء اليابان. ولهذا يمكن القول بأن النظام البيروقراطى قد طور مستوى البلاد كلها فى عصر إيدو.

عبر تجارب تاريخية طويلة، ومن خلال التعليم كوسيلة، أنتجت اليابان البيروقراطية.

وحين أخذت اليابان بأسباب الحداثة متخذة من الدولة الأوروبية الحديثة نموذجًا يحتذى، لا شك أنها أفادت من تجارب طبقة الساموراى فى عصر إيدو، وفى ممارساتهم داخل المنظمة البيروقراطية وما شابهها، فى فهم آليات الدولة المدنية الغربية ونظمها وشبكة إداراتها.

لذلك، سرعان ما أدركوا ما تقوم به الدول فى أوروبا.

تلك التجربة فى عصر إيدو كانت ذات قيمة كبيرة للغاية. كانت تلك التجربة الثرية للنظام البيروقراطى فى اليابان؛ أما فى المجتمعات التى لاتملك تجارب المنظمات البيروقراطية الناضجة، فمهما حاولت أن تتحول إلى دولة حديثة، ستظهر لديها مشكلة ألا وهى: من أين تأتى بالبيروقراطية.

من ثلاثين ألفًا يقودهم «ماسودا شيرو توكيسادا». أرسلت الحكومة قوة عسكرية لقمع التمرد، إلا أن المتمردين اعتصموا بأسوار قلعة المقاطعة، ولم تفلح القوة فى فتح القلعة، فاستعانت الحكومة بقوات أمراء الإقطاعيات فى كيوشو، حيث استطاعت إسقاط القلعة، وقتل عدد كبير من المتمردين. ويطلق على تلك الحادثة أيضًا، ثورة أماكوسا. (المترجم).

يلفت السيد/ كاتو النظر إلى أنه مع تجربة الساموراى كبيروقراطيين، كانت هناك أيضًا الآثار الإيجابية للتعليم فى عصر إيدو الذى ارتقى بالقيم الأخلاقية لدى الساموراى.

يقول كاتو:

إن صناعة البيروقراطية هى أيضًا قضية التعليم.

كانت الكنفوشية هى التعليم الذى تلقاه الساموراى، وكانت هى خلفيتهم الفكرية. كان المذهب الرئيسى لديهم من بين كل مذاهب ومدارس الكنفوشية، هو ما يعرف بـ «تعاليم شوشى»، أو الكنفوشية الجديدة.

وهذا المذهب من الكنفوشية لا يمكن أن نقول عنه فى معظمه إنه دين. مذهب الكنفوشية الجديدة يمزج بين الأخلاقيات السياسية، والأخلاق الفردية، وهو أيضًا فى قليل أو كثير، منظومة ميتافيزيقية عملية؛ وقد تم تعليم الساموراى على علوم الكنفوشية الجديدة.

مثل ذلك التعليم كان موجودًا فى الصين وشبه الجزيرة الكورية واليابان، ولم يكن موجودًا فى أى منطقة أخرى عدا أوروبا. كان للدين فى تلك المناطق سلطة قوية للغاية، ولم تكن لديها ما كان للكنفوشية الجديدة من نظريات عملية فى الاستدلال وإيجاد الأسباب.

على الجانب الآخر فى اليابان، كانت لديهم عادة تطوير الحوار وتصعيد المناقشات بمنهج واقعى عملى فى كل ما ابتدعه الصينيون من أمور، بدءًا بالرمزية المبالغ فيها وانتهاء بالمادية الواقعية.

لقد كان الفكر العملى الواقعى الذى تم التدريب عليه فى علوم الكنفوشية، مقدمة ضرورية لازمة لفهم الفكر الغربى الحديث.

هكذا تسلمت يابان ميجى إرثها فى نظام بيروقراطية الساموراى من عصر إيدو.

إلا أن يابان ميجى، وهى تتلقى ذلك الميراث، حطمت النظام الجامد لعصر إيدو، كما يرى السيد/ دراكر.

كما أن السيد/ كاتو يقر بأن الفارق الكبير بين إيدو وميچى، هو فى وجود ذلك الجمود، من عدمه، إلا أنه يرى أن هناك فى الحقيقة مشكلة أكثر تعقيدًا.

يقول كاتو:

الفارق الكبير فى البيروقراطية فى كل من إيدو وميچى، هو فى النظام الثابت الجامد.

فى عصر إيدو كان النظام الجامد الثابت هو المسيطر، وليس مذهب الكفاءة الفردية الذى كان فى عصر ميچى.

إلا أنه بعد عصر ميچى صار تعيين البيروقراط يتم عن طريق الامتحانات. فأى شخص يستطيع اجتياز امتحان الموظفين الحكوميين من الدرجة العليا، الذى تجريه الحكومة، يمكنه أن يكون واحدًا من البيروقراط.

وفوق ذلك، فإن البيروقراط أو الموظف الحكومى فى عصر ميچى، كان يستطيع الترقى والتقدم فى عمله إلى أقصى درجة ممكنة، وذلك وفقًا لمقدرته ومواهبه، وكان هذا هو الظاهر.

إلا أن الأمر فى الحقيقة لم يكن بتلك السهولة واليسر.

كان عمل الموظفين الساموراى فى عصر توكوجاوا عملًا بيروقراطيًا صرفًا. لكن ما العمل فى ظل ذلك المجتمع الثابت، إذا ما جاء ابن أحدهم وكان بلا مواهب ولا قدرات ليخلف والده فى عمله؟ وماذا إذا كان ذلك العمل من الأمور الهامة، كأن يكون قائمًا على ميزانية المقاطعة؟ سيكون مجلبة للخطر على المقاطعة كلها أن يتولى ذلك الأمر ابنٌ غبىٌ، حتى وإن كان أبوه من كبار الساموراى.

لهذا، كان من الضرورى توزيع الوظائف فى كل التنظيمات على أساس القدرات والمواهب أو ما يسمونه «معيار الكفاءة».

لكن إذا كانت القواعد الظاهرة هى نظام الثبات والجمود (الذى يسمح بأن يرث الابن عمل أبيه)، فالمخرج الوحيد كان «التبنى»[1]. كان ذلك متبعًا حتى فى بيوتات

---

(١) «التبنى»: نظام معمول به فى اليابان حتى الآن. إذ يزوج الرجل ابنته برجل ذى موهبة وكفاءة، شريطة أن يحمل لقب أسرة العروس، ليخلف الأب فى عمله، أو يضم أحد الشباب إلى أسرته حتى دون أن

الساموراى الكبيرة فى عصر توكوجاوا، وكان ذلك متبعًا أيضًا بين التجار فى المدن، فقد كانت علاقات التبنى تتم كثيرًا. وكان توريث العمل والوظيفة للمتبنى يتم فى حرية كاملة.

كذلك كان يتم تزويج الابنة من شاب ذى كفاءة من أسرة أخرى، ثم يورث التركة، أو يستخدم رب العائلة سلطاته فى حالات الضرورة القصوى، ويستبعد ابنه الحقيقى من أن يخلفه فى عمله أو بيته. إلى ذلك الحد كان يتم تطبيق نظام التبنى.

كان ذلك النظام الجامد الثابت يتواءم إلى حد ما مع «معيار الكفاءة».

ومن ناحية أخرى، كان معيار الكفاءة موجودًا أيضًا فى عصر ميچى، إلا أنه فى أواخر العصر صارت العلاقات الشخصية شيئًا هامًا للغاية. لم تعد هنالك تلك النزعة الخالصة نحو اختيار الكفاءات، بل صار من الأمور الهامة للغاية معرفة ابن من يكون ذلك الذى سيقع عليه الاختيار.

وبالمناسبة، فمجتمع اليوم بعد الحرب العالمية الثانية، وفى الفترة التى سبقت ما يجرى الآن من إصلاح، فى الفترة التى سبقت إعصار الاستغناء عن الموظفين وإعادة هيكلة الشركات، فى ظل نظام التوظيف مدى الحياة، كانت المرتبات والأجور تتزايد حسب المدة التى يقضيها الموظف فى الشركة.

وعليه، كيف كان يمكن للشركة أن تجعل موظفيها يظهرون قدراتهم ومواهبهم وهم يتقاضون مرتباتهم التى تزداد كلما طالت مدة عملهم بالشركة؟ كانت هناك اعتبارات أخرى لنقاط هامة.

فمثلًا، إذا كان لشركة من الشركات فروع كثيرة، وكان هناك ثلاثة من رؤساء تلك الفروع فى نفس الدرجة الوظيفية، ويتقاضون نفس المرتب. إلا أن أحد تلك الفروع كان فى ظروف صعبة وخطيرة، هنا توضع الأهمية على أسلوب الإدارة. وعندما يكون هناك اقتناع بأنه لن ينقذ الموقف إلا من له القدرة الفعلية على الإدارة، تكون المفاضلة على أساس الكفاءة الحقيقية.

يزوجه، هذا إذا لم يكن للأب أولاد ذكور ويخشى أن يختفى اسم العائلة إن تزوجت بناته من أسر أخرى. وأحيانا يتم ذلك حتى مع وجود أبناء من الذكور خاليين من المواهب ولا يعتمد عليهم، ويخشى رب العائلة على اسم عائلته وسمعتها إن أوكل إليهم شئون عمله وأسرته. (المترجم).

لكن من يقع عليه الاختيار لن يزيد راتبه، ولن يرتقى فى منصبه. فى الظاهر، تظل شريحة المرتبات على ما هى عليه حتى تنتهى مدته فيها تحت نظام التوظيف مدى الحياة، حتى نهاية الخدمة.

إلا أنه بين الموظفين داخل الشركة، يعلم الجميع تمامًا لماذا تم اختياره دون غيره من أقرانه ليكون مديرًا للفرع، أعتقد أنها مواءمة ذكية.

لم يكن استخدام العنصر البشرى فى عصر إيدو قاصرًا على مجال السياسة والبيروقراط فقط. بل إننا نجد أفرادا مثل: «إيواساكى ياتارو» الذى أسس شركة «ميتسوبيشى»، وفتح بذلك أعمال النقل البحرى، و«ياسودا زينچيرو» الذى بدأ الأعمال المصرفية، و «جوداى توموأتسو» الذى أسس إدارة المناجم وغيرها من الأعمال العديدة الأخرى. كل هؤلاء تحولوا من محاربين ينتمون إلى مقاطعاتهم، إلى رجال أعمال.

يقول دراكر:

إن القوة الكبرى لعصر ميچى تكمن فى القدرة على استخدام تلك الثروة البشرية المتمثلة فى ذلك العدد الكبير من الأفراد الذين اكتسبوا تعليمًا عاليًا. لم تستطع الهند ولا الصين القيام بذلك، ولا حتى فى روسيا.

فى اليابان، كان هناك أناس اكتسبوا تعليمًا عاليًا، وكثير منهم تعلم قدرًا لا بأس به من المعارف الغربية، ثم إنهم عملوا على صناعة العصر المعروف بميچى معتمدين على التعليم. وكان نتيجة لذلك أنه ما إن مرت العشرون عامًا الأولى بعد إصلاح ميچى حتى برز من جديد أولئك الذين تلقوا تعليمًا عاليًا.

والسبب فى أن اليابان نجحت فى بناء جيش حديث، هو أنه كان لديها عدد كبير من العناصر البشرية التى تلقت تعليمًا تقنيًا حديثًا، استطاع ذلك التعليم أن يستوعب التقنية الغربية، وكأنها بعض منه.

كما أن حكومة ميچى منذ البداية، نجحت فى أن يكون لديها مؤسسة إدارية ذات كفاءة ومدربة تدريبًا عاليًا، لأن المؤسسة الإدارية فى اليابان كانت قد تطورت بدرجة كبيرة وبشكل أساسى فى ظل نظام الإقطاعيات فى عصر إيدو، واستطاع ميچى أن يستخدمها.

عصر إيدو فى الحقيقة هو الجذور التى اعتمد عليها عصر ميچى، وما يميز عصر ميچى هو أنه لم يمح عصر إيدو السابق عليه، بل أعاد استخدامه والإفادة منه.

إنها يابان ميچى تلك التى استطاعت الإفادة من القديم فى عصرها الجديد، مستخدمة فى ذلك ثلاث وسائل هى: الاهتمام بالتعليم، واستقلالية الثقافة، واستخدام الثروة البشرية.

يقول السيد/ دراكر إن هناك شخصًا من عصر ميچى يجسد هذه الخاصية، إنه شيبوساوا إيئيتشى.

يقول دراكر:

شيبوساوا إيئيتشى شخص فى غاية الأهمية. كان شيبوساوا يدرك تمامًا أن اليابان الجديدة لابد وأن تقوم على أسس من اليابان القديمة. ربما لم يكن هو وحده الذى اعتقد ذلك. لكنه كان الشخصية الرائدة بين أولئك الذين أدركوا ذلك.

كان مثل هذا الإدراك غائبًا تمامًا حتى فى أوروبا، فى دول مثل ألمانيا وروسيا التى تأخرت عن إنجلترا وفرنسا فى اللحاق بالحداثة.

ولنأخذ ألمانيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر مثالًا على ذلك. فعندما قامت الثورة الصناعية فى ألمانيا، كان الألمان آنذاك يحاولون ترك ألمانيا القديمة وتنحيتها جانبًا. كارل ماركس الذى عاش حتى ثمانينيات القرن التاسع عشر، ينتمى إلى الجيل السابق لشيبوساوا، إلا أنه وغيره من الألمان من ذلك الجيل، أنكروا كلهم الماضى وتنكروا له.

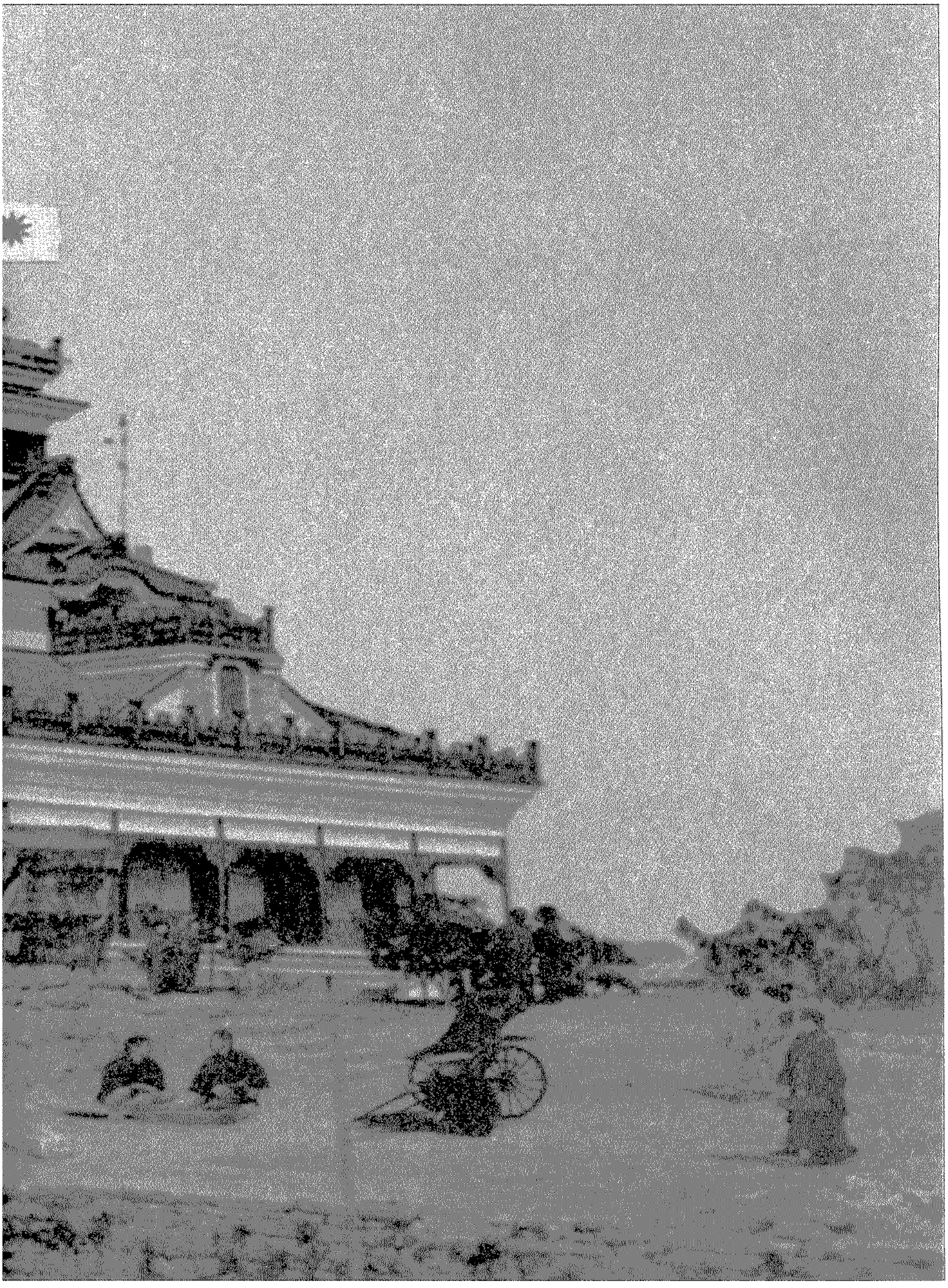
وكذلك الروس فى زمن الثورة، أنكروا الماضى بكل بساطة ولم يعترفوا به.

على الجانب الآخر، كان شيبوساوا يحاول أن يتقبل يابان الماضى، وأعتقد أن ذلك كان إنجازًا كبيرًا حققه شيبوساوا.

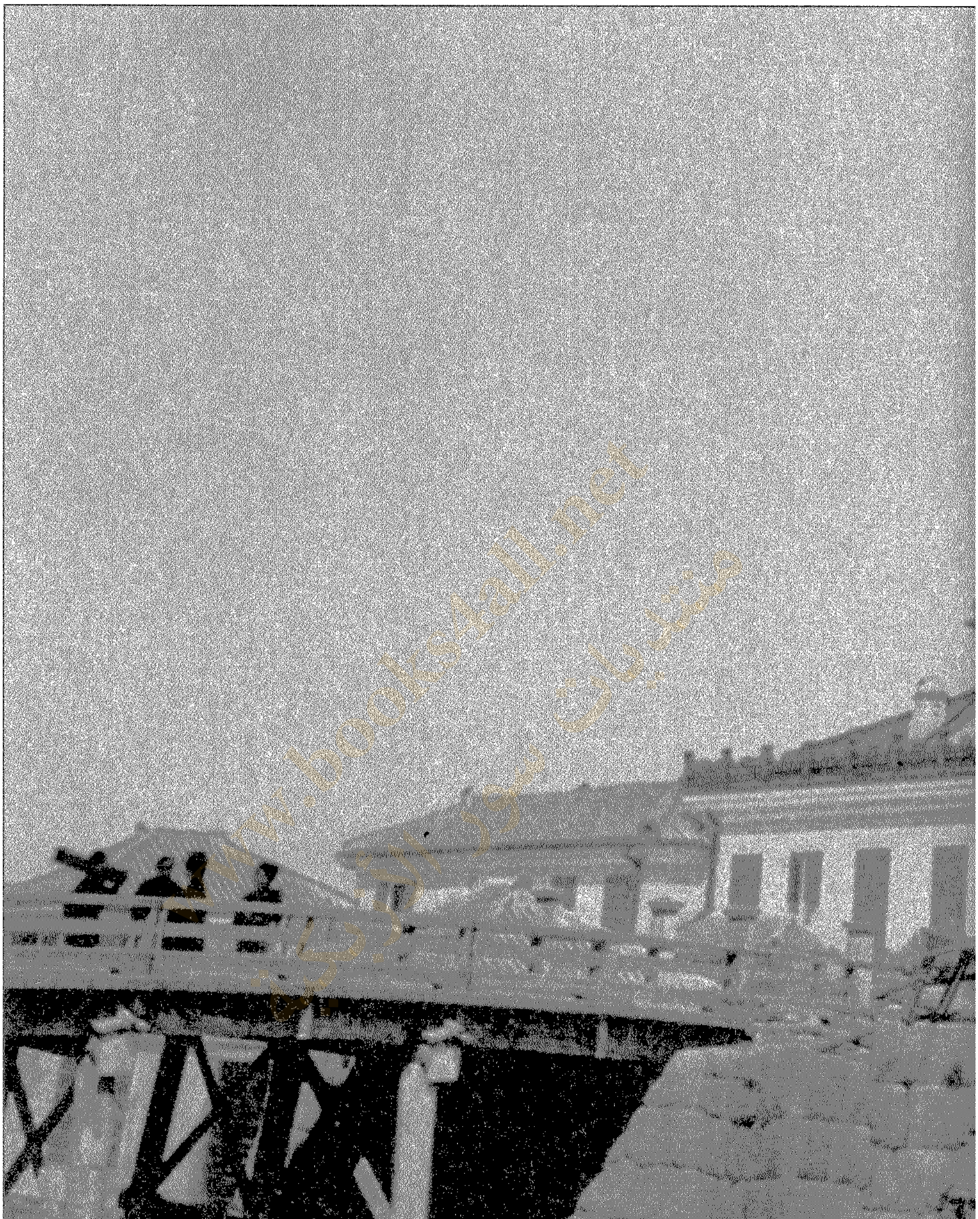
ولد شيبوساوا إيئيتشى لأحد المزارعين فى نهاية عصر إيدو، إلا أنه اختير ليكون من الساموراى العاملين بالحكومة العسكرية لما شهد له من كفاءة. نود هنا أن



شيبوساوا إيئيتشى (١٨٤٠ ـ ١٩٣١م): أسس بنوكًا وشركات يقال إن عددها يربو على الخمسمائة شركة. يقيم السيد/ دراكر وجود شيبوساوا ونشاطه كقاطرة عصر ميچى، فهو الذى صنع النظام اليابانى نفسه. ولذلك يقدره دراكر تقديرًا كبيرًا.

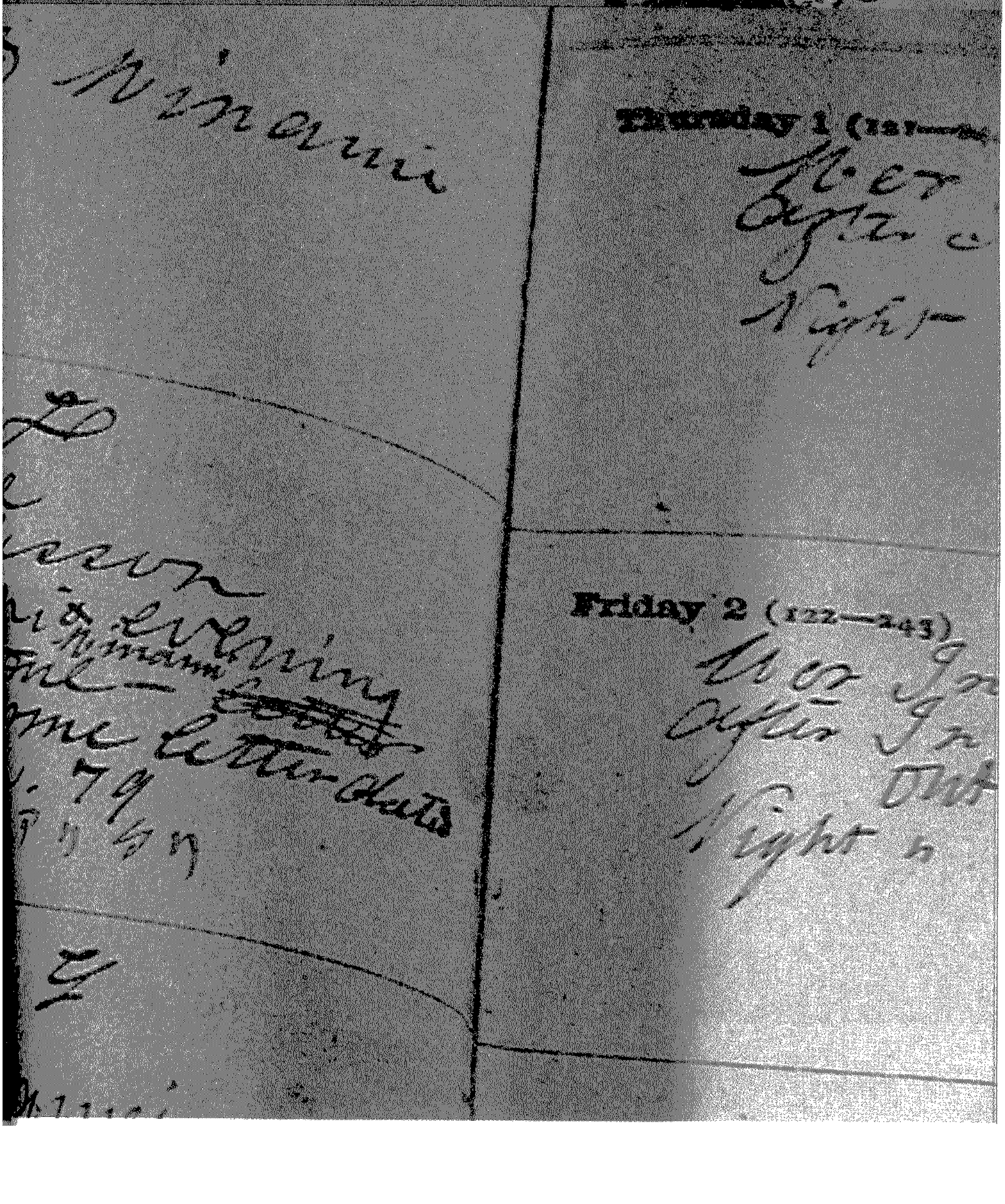


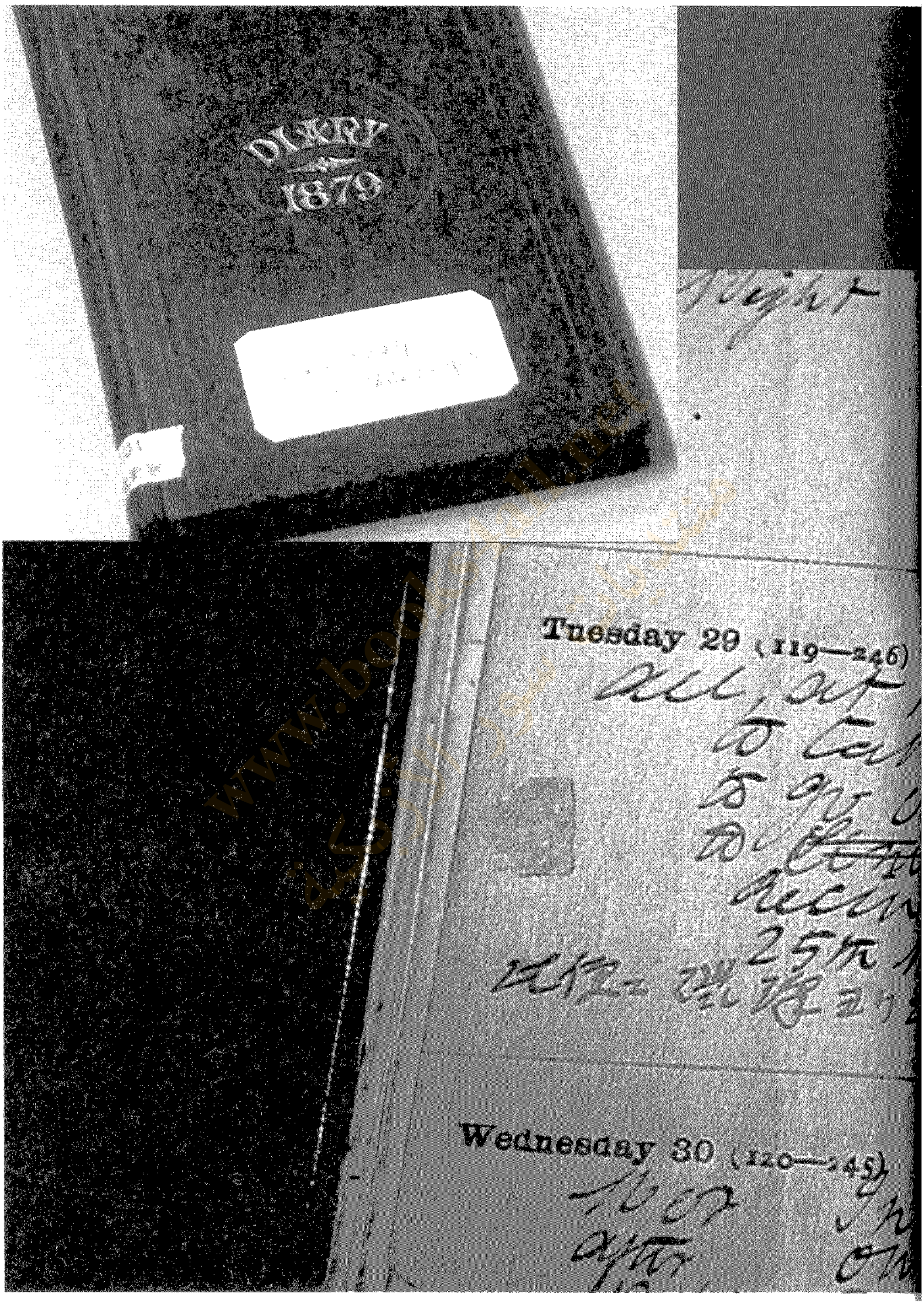
«البنك الوطنى الأول»: أول بنك أسسه شيبوساوا إيئيتشى فى العام السادس من ميچى. (أعيد تجسيده بالكمبيوتر جرافيك)

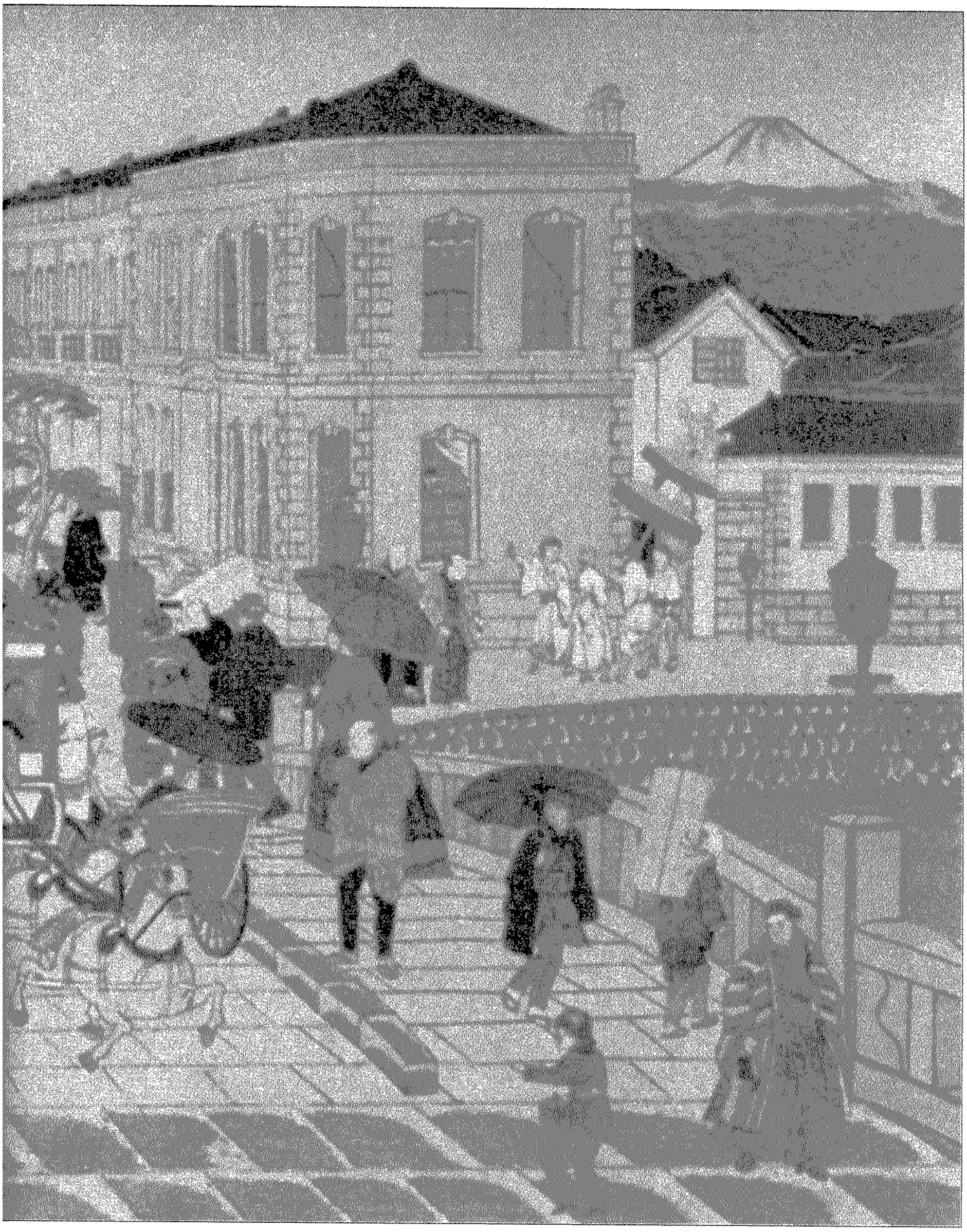




(على اليمين) يامانوبيه تاكيؤ: الذى عهد إليه شيبوساوا بإدارة شركة أوساكا للنسيج. و(أعلى اليسار) كراسة مذكراته أثناء دراسته فى لندن عام ١٨٧٩م، والتى ذكر فيها أنه جاءه خطاب من شيبوساوا ويه «مفاوضات» (أسفل المنتصف)

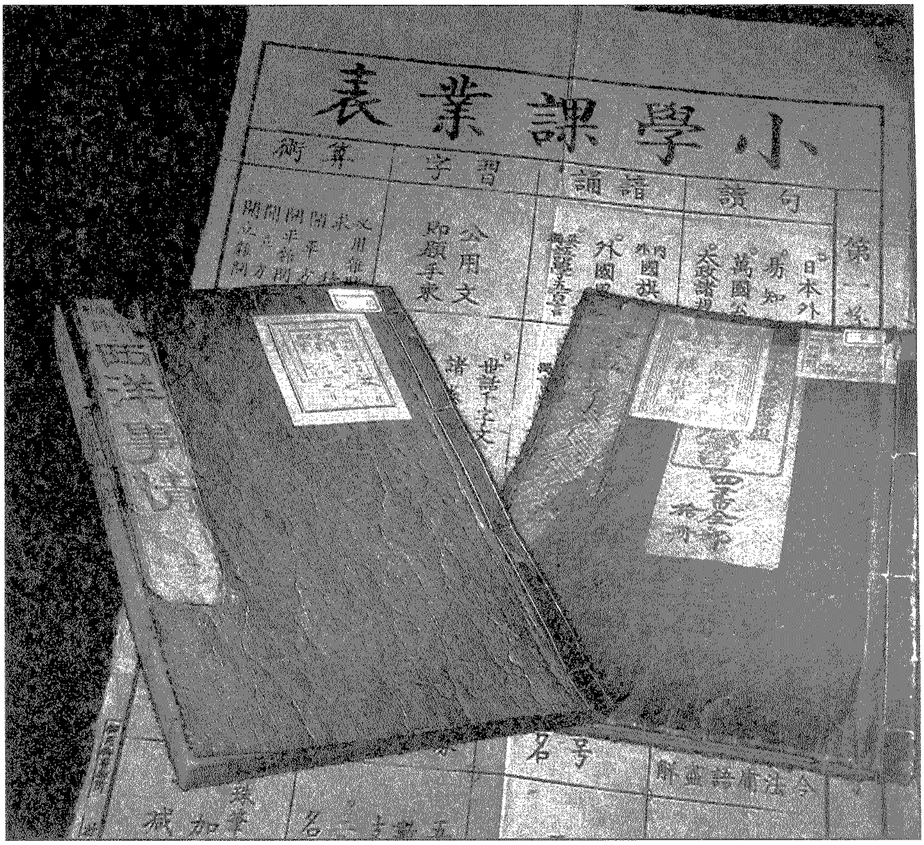



DIARY
1879
Tuesday 29 (119—246)
Wednesday 30 (120—245)



صورة مرسومة بالطريقة التقليدية آنذاك والمعروفة باسم (نيشيكيئيه) تصور حى جينزا فى عصر ميچى أعيد تجسيدها بالكمبيوتر جرافيك.





الجدول الدراسى للمدارس الابتدائية التى بنيت فى محافظة كيوتو فى أوائل عصر ميجى. كان الأطفال يتعلمون الأدبيات الصينية القديمة مثل كتاب «مينيشيوس»، وكذلك كتاب «أحوال الغرب» الذى يقدم لهم الثقافة الغربية فكانوا يستوعبون القديم والجديد كليهما معًا.

نستكشف معالم التغيير فى عصر ميجى الذى صب اهتمامه على التعليم والعنصر البشرى من خلال ما قام به كل من شيبوساوا إيئيتشى، الذى يراه السيد/ دراكر الشخصية التى ترمز لعصر ميجى، وبامانوبيه تاكيؤ، ذلك العنصر البشرى الذى اكتشفه شيبوساوا.

شيبوساوا الذى صار يعمل لدى «هيتوتسوباشى يوشينوبو» (الذى صار لاحقًا الشوجون الأخير «توكوجاوا يوشينوبو»)، زار أوروبا كمرافق لأخيه «هيتوتسوباشى أكيتاكيه».

فى طريقه إلى أوروبا شاهد إنشاء قناة السويس، وأدهشه ذلك؛ فقد كان التمويل والقدرات الفنية اللازمة لإقامة تلك القناة العملاقة التى تربط بين أوروبا وآسيا، هو ما لم تكن اليابان فى عصر إيدو بالقادرة عليه.

كان شيبوساوا يعتقد أن أهل الغرب برابرة قساة، وكان يعتنق أفكار المنادين بطرد هؤلاء البرابرة من الجزر اليابانية. إلا أنه عندما زار فرنسا وإنجلترا، وشاهد أحوال المجتمع المدنى الذى يحمى حقوق الحرية والمساواة. صار تفكيره يتغير بشكل درامى.

بعد بضع سنوات من العمل فى خدمة هيتوتسوباشى، وبينما لم أكن قد أفقت بعد من حلم طرد الأجانب، وكنت لا أزال أنادى صارخًا «أيها البرابرة الملاعين»، صدر لى الأمر فسافرت فى رحلة إلى الخارج. بدأت أتابع رحلتى وأنا فى حالة من القلق من أن كل ما ستقع عليه عيناى سيثير غضبى لا محالة، وسوف يشتد بى الغضب كلما زادت مشاهداتى، حتى إننى لن أتمكن من كبح جماحه فينتفض لذلك شعر رأسى. إلا أننى أثناء الرحلة زال عنى غضبى شيئًا فشيئًا، وما إن ذهبنا إلى شنغهاى حتى لانت مشاعرى قليلًا. وكلما تقدم بى الطريق كلما زاد شعورى بالتضاؤل، وما إن اقتربنا من باريس، حتى أصابنى إحساس بالعجز، وأنه لا فائدة من المكابرة بعد ذلك، ولأنه ليس أمامنا إلا أن نتعلم بكل جد واجتهاد، نحيت ما ظننته من قبل عن البرابرة الملاعين، ولانت مشاعرى حتى إننى اعتقدت أنه ليس أمامنا إلا أن نجعلهم معلمين نتعلم منهم، طالما أننا لن نستطيع أن نتغلب عليهم. كنت أعتقد أنه ليس لديهم ما يحترم غير الطب وتقنية صناعة المدافع، وأنه ليس لهم من أمور الأخلاق والقيم ما يستحق النظر



شيبوساوا إيئيتشى فى نهاية عصر إيدو (بتصريح من أرشيف شيبوساوا).

إليه، إلا أننى حين ذهبت إلى بلادهم شاهدت من حسن سلوك الأفراد، واحترامهم لمبادئهم فى كل مكان بلا استثناء، وزد على ذلك حالة التقدم هناك. أما عن بلادى، فالناس مقسمون إلى طبقات فى نظام لا يسمح للفلاح أو للتاجر أن يرتقى إلى طبقة أخرى مدى الحياة؛ أما هم فى الغرب فعلى النقيض من ذلك، فليس هناك طبقات، ولو لم يكن لديهم غير ذلك ما وسعنى إلا الإعجاب الشديد بهم. لذلك، فهناك الكثير من الأمور غير تقنية المدافع وعلوم الطب تستوجب الإعجاب، فقد أعجبت بصناعة الحديد، وبصناعة السفن، وكذلك صكوك السندات العامة. شيئًا فشيئًا لانت نفسى كلما شاهدت ما لابد أن أعجب به من تلك الأمور وغيرها. حتى إنه لم يبق لى بعض من تشددى القديم. كنت آنذاك قبيل الثلاثين ذا دم حار، وكنت أنوى أن أحطم سفنهم السوداء بسيفى، إلا أننى قد صرت إلى هذه الدرجة لينًا طيعًا. (من أرشيف «مذكرات شيبوساوا إيئيتشى» مجلد ٢٧).

كرس شيبوساوا نفسه لاستيعاب المعرفة الغربية بكل جد واجتهاد أثناء إقامته فى فرنسا. إلا أنه علم بسقوط الحكومة العسكرية، فعاد إلى الوطن. ثم تبع مخدومه يوشينوبو، وانتقل إلى الحياة فى مقاطعة «شيزوؤكا».

ظل هناك إلى أن استدعى من قبل «أوكوما شيجينوبو»[1]. كان أوكوما هو الشخصية المحورية فى الحكومة فى أوائل ميچى، والتى دفعت باليابان فى سياسة الانفتاح بشكل إيجابى.

قال أوكوما لشيبوساوا الذى كان موظفًا سابقًا فى حكومة توكوجاوا إنه يريد أن يعينه فى الحكومة الجديدة، ولكنه كان ذا موقف مناهض للحكومة الجديدة. فتردد شيبوساوا فى القبول، لكن كلمة أوكوما له بأنه يريد منه أن يكرس قدراته «من أجل اليابان كلها». هى التى أقنعته، وقرر أن يعمل فى خدمة الحكومة الجديدة.

---

(١) أوكوما شيجينوبو (١٨٣٨ - ١٩٢٢م): سياسى، ساموراى من مقاطعة ساجا، شغل عدة مناصب هامة فى حكومة ميچى، حيث كان مسئولًا عن الشئون المالية. خرج من الحكومة فى العام الرابع عشر من ميچى، وأسس حزبًا سياسيًا (حزب الإصلاح والتقدم)، ثم تولى رئاسة الوزراء عام ١٨٩٨م، وبعد نهاية عصر ميچى، تولى رئاسة الوزراء مرة أخرى عام ١٩١٤ م فى عصر تايشو. أسس مدرسة طوكيو المتخصصة عام ١٨٨٢م (جامعة واسيدا الحالية). (المترجم).

وبناء على اقتراح شيبوساوا، أنشئت هيئة جديدة كانت هى محور التغيير.

وهى ما تعرف بـ «مكتب التعديلات».

تم اختيار أعضاء مكتب التعديلات بأولوية الموهبة والكفاءة، وكان تحت رعاية أشخاص مثل أوكوما شيجينوبو، وإينوويه كاؤرو، وإيتو هيروبومى، وغيرهم ممن يعرفون مدى قوة الحضارة الغربية.

وشارك فى المكتب أيضًا بعض من عمال حكومة توكوجاوا السابقين مثل «مايچيما هيسوكا» الذى اقترح نظام البريد. لقد كان مكتب التعديلات هو الهيئة التى يمكن أن نقول عنها إنها الشكل الأمثل الذى تظهر فيه بوضوح « الإفادة من الثروة البشرية » كميزة من مميزات التغيير فى عصر ميچى.

اقترح شيبوساوا العديد من السياسات بوصفه رئيسًا لمكتب التعديلات.

وضع المكتب خططًا وسياسات هامة مثل: إنشاء السكك الحديدية، والتلغراف، والأخذ بنظام التقويم الميلادى، وتوحيد المقاييس، وكذلك تعديل نظام الضرائب، ونظام تمليك وتوزيع الأراضى، وغير ذلك من السياسات.

يستعيد شيبوساوا ذكرياته عن الأجواء داخل مكتب التعديلات الذى كان أيضًا كنزًا للثروة البشرية، فيقول:

كان يحضر هذه الاجتماعات من اللوردات الوزراء «داتيه»[1]، وأوكوما، وإيتو، دون أى تمييز بينهم وبين غيرهم. كنا نستمع إلى آراء وأفكار بعضنا البعض، ونتناقش فيما كان يجرى من أمور، فكانت الاجتماعات داخل المجلس تجرى فى العادة فى وئام. كان الجميع يقبلون على عملهم فى سعادة...... ولما كان الجميع فى سن الشباب، وكل متحمس لما يقوم ببحثه ودراسته، وكنا نجتمع لمناقشة نتائج ما وصل إليه كل منهم، لذلك أحيانًا ما كان يصل حد الجدال إلى درجة أنه قد يخطئ البعض

(١) داتيه مونينارى (١٨١٨ـ ١٨٩٢): كان أميرًا لمقاطعة «ؤواچيما» فى عصر توكوجاوا، عرف بالأمير الحكيم. عزل عن إمارته فى أواخر عصر إيدو، لكنه ما لبث أن عاد إليها مرة أخرى. تولى عدة مناصب فى حكومة ميچى الجديدة. كان رسولًا لحكومة ميچى إلى الصين حيث نجح فى عقد معاهدة للصداقة بين البلدين عام ١٨٧١م. (المترجم).



«مكتب التعديلات»: الهيئة التى أنشئت بناء على اقتراح شيبوساوا.
تحت رعاية: إيتو هيروبومى، وأوكوما شيجينوبو، وإينوويه كاؤرو، (الصف الخلفى بالترتيب من اليمين). وكان من المشاركين فيه: «سوجيؤرا يوزورو»، وشيبوساوا، ومايچيما هيسوكا (الصف الأمامى بالترتيب من اليمين). (نشرت بتصريح من السيد/ إيشيجورو كيشو، متحف أرشيف شيبوساوا).

ويظنه مشاجرة. كان كل منا يعرف طبع الآخر ونواياه، فكانت المناقشات تجرى دون تحفظ أو تكلف فتخرج الأفكار جريئة صريحة، ومن هنا فقط تتحدد التوجهات. فى الحقيقة كان شيئًا ممتعًا. (من أرشيف «مذكرات شيبوساوا إيئيتشى» مجلد ٢).

نفذ شيبوساوا العديد من الإصلاحات كموظف فى الدولة، إلا أن ما كان فى أعماقه هو تطوير التجارة والصناعة فى اليابان. فقد كان يعتقد أن اليابان كى تصبح فى مصاف الدول الأوروبية، فلابد لها أن تنتعش فيها التجارة والصناعة أولا مثل إنجلترا وفرنسا.

من الذى يستحق أن نسميه محاربا؟ إن من يقومون بالصناعة والتجارة أيضًا محاربون. فالهـدف الأسمى لأعمال التجارة والصناعة هو إثراء الدولة ومنحها القوة.

إن الدولة تقوم أسسها على التجارة و الصناعة، ثم أثناء مضيهم فى طريق تطويرهما تنشأ السياسة، أو الجيش، ليتكون الكيان الكبير وهو الدولة، أما على المستوى الصغير فهو الفرد. إذن فالفرد هو أهم العناصر لوجود الدولة وما يقوم به من أعمال، كلما قويت هذه الأعمال ازدادت الدولة قوة. إن الدول فى أوروبا وأمريكا تتقدم بمثل هذه المبادئ والأفكار. إلا أنه وقت حدوث إصلاح ميچى فى اليابان، كان من يقومون فقط بالأعمال يعاملون كأنهم خدم عند رجال السياسة. وبهذا لم يستطيعوا أن يزيدوا من ثروة البلد ولا يدعموا قوتها. ولهذا فالبلد ضعيف وفقير. وكان هذا أكثر ما يحزننى ويؤلمنى آنذاك. (من «مجموعة تعاليم شيبوساوا إيئيتشى»).

فى بداية الأمر، كنت من مؤيدى نظرية طرد الأجانب البرابرة عن البلاد. لذلك فقد كنت أكره الدول الأجنبية كمن يكره طعامًا وهو لم يتذوقه من قبل. لكنى كنت أعتقد أن العلوم الطبية عندهم لا يمكن أن يستخف بها. (.....). كانت تلك أفكارى قبل أن ألتحق بخدمة أسرة هيتوتسوباشى. صرت من أتباع أسرة هيتوتسوباشى وأنا فى الخامسة والعشرين. وعندما صرت ملمًا بالأوضاع العسكرية عندنا، بدأت فى الاعتقاد بأن الجيوش الغربية متفوقة علينا، بمثل ما لديها فى الطب. ثم سافرت إلى

فرنسا مع الوفد الذى رأسه الأمير توكوجاوا، فرأيت أحوال الغرب على حقيقتها، فازداد اقتناعى بأهمية التجارة والصناعة. خاصة أنه كلما شاهدت مصانع الآلات، ومصانع الأسلحة وغيرها فى الدول الأوروبية، كلما ازدادت دهشتى لأسرار تلك العلوم التطبيقية لديهم. لم أستكمل ما كان مقررًا لى دراسته من علم، فقد عدت إلى الوطن، إلا أننى آمنت بأهمية التجارة والصناعة لتنمية ثروات البلد. ولذلك لابد من العمل على الارتقاء بمكانة أولئك الذين يعملون بالتجارة والصناعة. فقد اكتسبت قناعة بأنه لا أمل فى تقدم اليابان إذا بقيت حالها كما كانت عليه. بعد ذلك عملت فى وزارة المالية، وما لبثت أن استقلت من العمل بها، وانتقلت لأكرس جهدى فى مجال الأعمال. (من «مجموعة تعاليم الأستاذ «سيئن»[(١)]»).

فى العام السادس من ميجى (١٨٧٣م)، استقال شيبوساوا من عمله الحكومى، ودخل فى عالم الأعمال.

وكان من الضرورى حتى تزدهر التجارة والصناعة أن يجمع لديه العناصر البشرية من بين المدنيين، فلم يكتف بأن يكون له منصب فى الحكومة، ويقترح الخطط والمشروعات، بل اعتقد أنه لابد وأن يلقى بنفسه بين الناس. ثم قام فى الحقيقة بإقامة الأعمال، فمن خلال إدارته للشركات، حاول أن يقوم بدور القاطرة الجاذبة، حتى يجعل للصناعة الحديثة جذورًا فى اليابان.

يقول دراكر:

إن أحد الإنجازات الأخرى لشيبوساوا، أنه وهو يقوم بدفع الأعمال والحث عليها، جمع فى ذاته بين مقدم الاقتراح ومنفذه.

كانت لديه موهبة فريدة جمعت بين جانب المفكر والجانب الآخر للمنفذ. فالمفكر عادة ما يصعب عليه اتخاذ الخطوات للتنفيذ. ومن اعتاد التنفيذ يستعير فكرته من المفكر. كان شيبوساوا مفكرًا من الطراز الأول، ومنفذًا أيضًا من الطراز نفسه.

النظام الذى صنعه رجل مات منذ أكثر من مائة عام ما زال قائمًا، والشىء الذى يدعوا إلى الدهشة أكثر، أنه ما زال يعمل بكفاءة.

(١) سيئن الاسم الأدبى الذى كان يستخدمه شيبوساوا عند التوقيع على كتاباته. (المترجم).

إن شيبوساوا وجود نادر، وشخصية متميزة للغاية.

ترك شيبوساوا عمله الحكومى، وأسس «البنك الوطنى الأول»، كأول بنك فعلى فى اليابان. يحدث ذلك فى العام السادس من ميچى.

ولأن البنك ألحقت به صفة «الوطنى»، فذلك يعنى أنه يقوم بعمله طبقًا لقوانين البلاد، وقد كان فى حقيقته عبارة عن أول شركة مساهمة فى اليابان، تأسست برأس مال أهلى.

على جانب أحد جدران البنك القائم فى «كابوتوتشو»(1) فى حى «نيهونباشى» فى طوكيو، لوحة جدارية من الذهب الخالص، وهى لوحة تذكارية تصور الشكل الخارجى للبنك الوطنى الأول.

يظهر شكل المبنى وقد بنى الجزء الأسفل منه على الطراز الغربى، أما الجزء العلوى فكان على شكل الجزء العلوى للقلاع اليابانية القديمة.

لقد كان فى ذاته رمزًا لروح عصر ميچى الذى جمع بين الثروة البشرية اليابانية، والنظام الغربى، وأفاد منهما معًا.

وهنا يتداعى إلى الذاكرة، برج الطبول الذى شاهدناه فى مدرسة يوساى الابتدائية فى كيوتو. إن شكل ذلك المبنى حاليًا، عبارة عن برج للمراقبة على الطراز اليابانى وقد بنى فوق مبنى المدرسة المربع الشكل على الطراز الغربى.

التعليم والصناعة مجالان مختلفان، ولكن ما يثير الاهتمام أن المبنيين فى وحدتيهما يشكلان فى صورة مرئية خاصية يابان ميچى التى تجمع بين الطرازين الغربى واليابانى معًا.

يقول دراكر:

---

(1): كابوتوتشو: فى حى نيهونباشى، أحد الأماكن المهمة بين الأحياء الهامة فى قلب العاصمة طوكيو. ويشتهر الآن ببورصة طوكيو للأوراق المالية، ولهذا فهو يشبه حى «the City» فى لندن، أو «the Wall Street» فى نيويورك. وعند ذكر اسمه يتبادر إلى الأذهان «سوق الأوراق المالية»، و«حى البنوك والمصارف». كان المكان التى افتتح فيه شيبوساوا أول بنك فى اليابان «البنك الوطنى الأول» عام ١٨٧١ م، كما أنشئ فيه عام ١٨٧٨ م مكان لشراء الأسهم والسندات، الذى صار بعد ذلك «بورصة طوكيو للأوراق المالية ». وتطور المكان بعد ذلك ليصبح مكان التجارة الأول فى طوكيو. (المترجم).

لقد أسس شيبوساوا النظام الحديث.

فأنشأ أولًا بنكًا حديثًا فى اليابان. ثم أسس العديد من الشركات الحديثة قام بتمويلها من خلال البنك. ولم تكن هناك بنوك أخرى فى ذلك الوقت تقوم بتمويل الصناعة.

بل إن شيبوساوا نادى بضرورة وجود مديرين متخصصين لإدارة الشركات.

وبهذا المعنى يمكننا القول إن شيبوساوا قد صنع النظام اليابانى الحالى.

اتخذ شيبوساوا من البنك الوطنى الأول قاعدة، حاول منها تنمية الصناعة فى اليابان، إلا أنه واجه تراجع وتدهور الصناعة المحلية الذى حدث نتيجة لإغراق المنتجات الأجنبية للبلاد.

ففى أوائل العقد الثانى لميجى، انسابت إلى داخل اليابان بغزارة خيوط قطنية أجنبية الصنع ذات جودة عالية وأثمان رخيصة جدًا، مما هدد صناعة الغزل بالانهيار. فى ظل تلك الأوضاع، كانت اليابان ستقع تحت السيطرة الاقتصادية لأوروبا وأمريكا، حتى وإن لم يتم احتلالها عسكريًا. لم يكن هناك طريق للبقاء سوى تدعيم صناعة الغزل والنسيج المحلية، والتى حاكت فيها أوروبا، ومنحتها القدرة على المنافسة.

قرر شيبوساوا إنشاء مصانع للغزل والنسيج على نطاق واسع بمعونة القطاع الخاص، وليس مصانع تديرها الحكومة، وقام بالتمويل. لكن بقيت أمامه مشكلة وهى: من أين يأتى بمن يديرها؟

حتى ذلك الوقت لم يكن بين اليابانيين من له خبرة فى إدارة المصانع الكبيرة الحديثة، حتى مصنع «توميؤكا» للغزل الذى كان تحت إدارة الحكومة، فقد عهد إلى الفرنسيين بإدارته كاملًا فى البداية.

تحدث شيبوساوا عن ذلك لاحقًا فقال:

لن ينجح أى عمل مهما كان، إذا لم يكن لدينا الشخص المناسب لإدارته، فالأعمال فى الحقيقة هى الفرد أولًا، ويأتى أى شىء بعد ذلك. فمهما كان التمويل متوفرًا، وكان التخطيط عظيمًا، ولم نحصل على الشخص المناسب لإدارة ذلك، ستكون الأموال، والتخطيط بلا معنى. على سبيل المثال، إذا كان لدينا هنا آلة متطورة، فالآلة لن تعمل

من تلقاء نفسها، فلابد لها من قوى بشرية أو حرارية، أو أى قوة أخرى تدفعها حتى تتحرك، وكذلك الحصول على الشخص المناسب لإدارة الأعمال، أمر هام جدًا مثل أهمية القوى المحركة المناسبة لتحريك الآلة التى توافقها.

لابد أن نعلم أن عدم الحصول على هذا العنصر البشرى يعد فى مجال الأعمال خسارة مضاعفة، والحصول عليه فائدة وربح. أى أن الأعمال التى لا يتوافر لها الشخص المناسب، حتى وإن كانت قائمة، فسينتهى بها حظها التعس إلى الفشل، وعلى العكس من ذلك، فالأعمال التى اكتسبت الشخص المناسب، حتى وإن كانت متعثرة لفترة، تستطيع أن تتقدم وتتحول إلى طريق النجاح. الشرط الهام الذى يجب ألا ننساه هو أن الأعمال فى حقيقة الأمر تكمن فى ماهية العنصر البشرى بها. (من «مجموعة تعاليم الأستاذ سيئن»).

كان لابد من اتباع طريقة تناسب اليابان لإدخال الصناعة الحديثة إليها. لذلك كان من الضرورى أن يكتسب اليابانيون أنفسهم قدرات ومهارات.

بدأ شيبوساوا فى البحث عن يابانيين يستطيع أن يوكل إليهم إدارة المصانع.

بالطبع لم يكن هناك يابانى فى ذلك الوقت له القدرة على إدارة المصانع. لكن لابد أن هناك من لديه الرغبة على اكتساب هذه القدرة. هكذا فكر شيبوساوا.

مجرد مشاهدة المصانع فى الخارج وقراءة الكتب عنها، لا تكفى لفهم أمور الغزل والنسيج. وحتى إن فهم أساليب وطرق الدول الأجنبية بشكل عام، فلابد أن نصنع فى اليابان أشياءً تناسب اليابان. فإن حاولنا تطبيق الأشياء الأجنبية كما هى، فلن تسير الأمور بنجاح. فهناك فوارق فى التفاصيل؛ فى سمك الخيط، وفارق الأسعار؛ ولا يمكن حدوث توافق. (من «تاريخ شركة تويوبو فى مائة عام»).

يمتدح السيد/ دراكر طريقة حكومة ميجى فى إنشاء الصناعة حيث كانت تنشىء أولًا مصانع بإدارة حكومية، ثم تبيعها للقطاع الخاص، إلا أنه يقول أيضًا إن تلك الطريقة لم تكن تستطيع تحقيق التحديث، لأنه هنا لا يمكننا أن نتخلى عن قوة العنصر البشرى.

يقول دراكر:

في البداية تقيم الحكومة الشركة، ترعاها حتى تقف على قدميها. ثم تجد من يدير هذه الشركة، هذه الطريقة هي اختراع ياباني خالص، وقد قام بدوره إلى أقصى درجة.

هذا الأمر يدهشني دائمًا. الأشخاص الذين تسلموا هذه المصانع وأداروها وأشرفوا عليها، من أين ظهروا يا ترى؟ أنا لا أجد الإجابة على هذا السؤال.

مجرد بيع المصنع فقط لا يكفي. فلابد أن يوجد الشخص الذي يديره. لابد أن نفهم أنه من الضروري وجود المصنع ومديره، الاثنين معًا.

فعلى سبيل المثال، حين أنشئ مصنع الغزل في أوساكا، كان من الضروري وجود أشخاص يمكن أن تدير الآلات البخارية الحديثة، وأن تبيع البضائع، وأن تقوم بالتصميم. فمن أين أتوا يا ترى بمثل هؤلاء الأشخاص؟

انضم إلى المستثمرين تجار من أوساكا. ولكن هذا لا يعني أنه كانت لديهم الخبرة أو الكفاءة لإدارة مصنع حديث.

ومع ذلك، فقد حقق مصنع الغزل في أوساكا نجاحًا كبيرًا.

إنها إحدى المعجزات. فهو أحد إنجازات ميجي التي لم يستطع أحد شرحها على حد علمي.

شيبوساوا الذي كان يلهث في البحث عن مدير، وصلت إلى سمعه أخبار مبشرة في العام الثاني عشر من ميجي (١٨٧٩م).

تقول الأخبار: إن أحد موظفي البنك الوطني الأول، ويدعى «تسودا تسوكانيه» من أبناء مقاطعة تسوانو، ذكر أن هناك رجلًا من أبناء مقاطعته مولع بالدراسة.

اسمه يامانوبيه تاكيؤ.

وقال: إنهما كانا زميلين في مدرسة «نيشي أمانيه» الخاصة، والذي كان شيبوساوا على علاقة طيبة به.

وكان نيشى أمانيه أيضًا من مقاطعة تسوانو.لم يكن نيشى أمانيه وحده من الشخصيات الهامة فى ميچى التى خرجت من تسوانو، كان هناك أيضًا «مورى أوجاى»[١] وغيره.

يا ترى ما هى تسوانو هذه؟

فى يوم من أيام الشتاء الأولى، خرجنا نبحث عن بقايا ملامح الناس فى عصر ميچى، فقمنا بزيارة تسوانو التى يسمونها كيوتو الصغيرة فى منطقة «سانيو».

نزلنا من قطار الطلقة فى خط سانيو[٢] فى محطة «شين ياماجوتشى»، وركبنا قطار الديزل السريع على خط «ياماجوتشى» لمدة ساعتين تقريبًا، كانت تسوانو مدينة أرضها منخفضة محاطة بالجبال.

كانت مقاطعة تسوانو التى ملكت تلك الأرض مقاطعة صغيرة، وحتى تضمن لنفسها البقاء اتخذت من التعليم وسيلة لذلك، ودفعت إليه بكل قوتها.

إذا نظرنا إلى المدينة نظرة بانورامية من مكان عال يمكننا أن نرى بوضوح شكل الأرض رفيعة مستطيلة تطبق عليها الجبال، ذلك المنظر الصغير يجعلنا نشعر أنه إذا مددنا يدنا نستطيع أن نغترفها فى راحتينا.

من هذه الأرض الصغيرة، خرج العديد من العناصر البشرية التى حملت مهمة التنوير الحضارى فى ميچى مثل مورى أوجاى، ونيشى أمانيه وغيرهما كثيرون.

---

(١) مورى أوجاى (١٨٦٢ـ ١٩٢٢ م): طبيب، وكاتب قصة، وناقد ومترجم، من أشهر الأدباء فى عصر ميچى وتايشو. من أبناء مقاطعة تسوانو (مدينة تسوانو فى محافظة شيمانيه حاليًا)؛ تخرج فى كلية الطب بجامعة طوكيو، وسافر فى بعثة دراسية لألمانيا لأربع سنوات لدراسة الطب. عمل بعد عودته طبيبًا فى الجيش، وبدأ نشاطه الأدبى، رقى إلى مراكز عليا فى الجيش، وكذلك فى الهيئات الثقافية الحكومية. من أهم أعماله «الأميرة الراقصة» ١٨٩٠م، «البجعات المهاجرة» ١٩١١ م، «مركب فى نهر تاكاسيه» ١٩١٧، ومن مترجماته عن الألمانية «فاوست» لجوته، وغيرها. (المترجم).

(٢) خط سانيو: خط السكك الحديدية الرئيسى الذى تقطع المسافة من مدينة كوبيه فى محافظة هيوجو حتى مدينة كيتاكيوشو فى محافظة «فوكوؤكا» مرورًا ببحر «سيتو» الداخلى. وهو يربط أهم المدن من غرب اليابان حتى جزيرة كيوشو فى الجنوب. وتسير خططه بمحاذاة خط «شينكانسن» الرئيسى الذى يربط طوكيو بمنطقة كانساى التى تجمع أقاليم غرب اليابان وهو بذلك أحد خطوط السكك الحديدية الستة الرئيسية التى تتكون منها مجموعة سكك حديد اليابان. (المترجم).

عندما نفكر فى ذلك الأمر، ينتابنا مرة أخرى شعور قوى بمدى قوة التعليم. ليس من الضرورى أن تكون لدينا نعمة الأرض والموارد، فبالاهتمام بتربية الإنسان، والإفادة من البشر يمكن الحصول على ثمار كبيرة.

عندما نزلنا من القطار، وأخذنا نمشى فى مدينة تسوانو. فى المسافة القصيرة التى مشيناها قابلنا عديدًا من الشواهد الحجرية.

هناك شاهد يقول: «كوتو بونچيرو»[1] أبو علم الچيولوچيا.

البيتان القديمان لكل من «نيشى أمانيه» و«مورى أوجاى» ما زالا باقيين. البيتان قريبان جدًا، يفصل بينهما نهر.

إنه مشهد يدعو للفخر أن ترى داخل تلك المساحة الصغيرة من الأرض بيوتًا تتزاحم، خرج منها علماء ومفكرون كثيرون.

ما زالت «يوروكان»[2] مدرسة مقاطعة تسوانو باقية فى قلب المدينة. لقد تعلم كل من نيشى أمانيه، ومورى أوجاى فى هذه المدرسة.

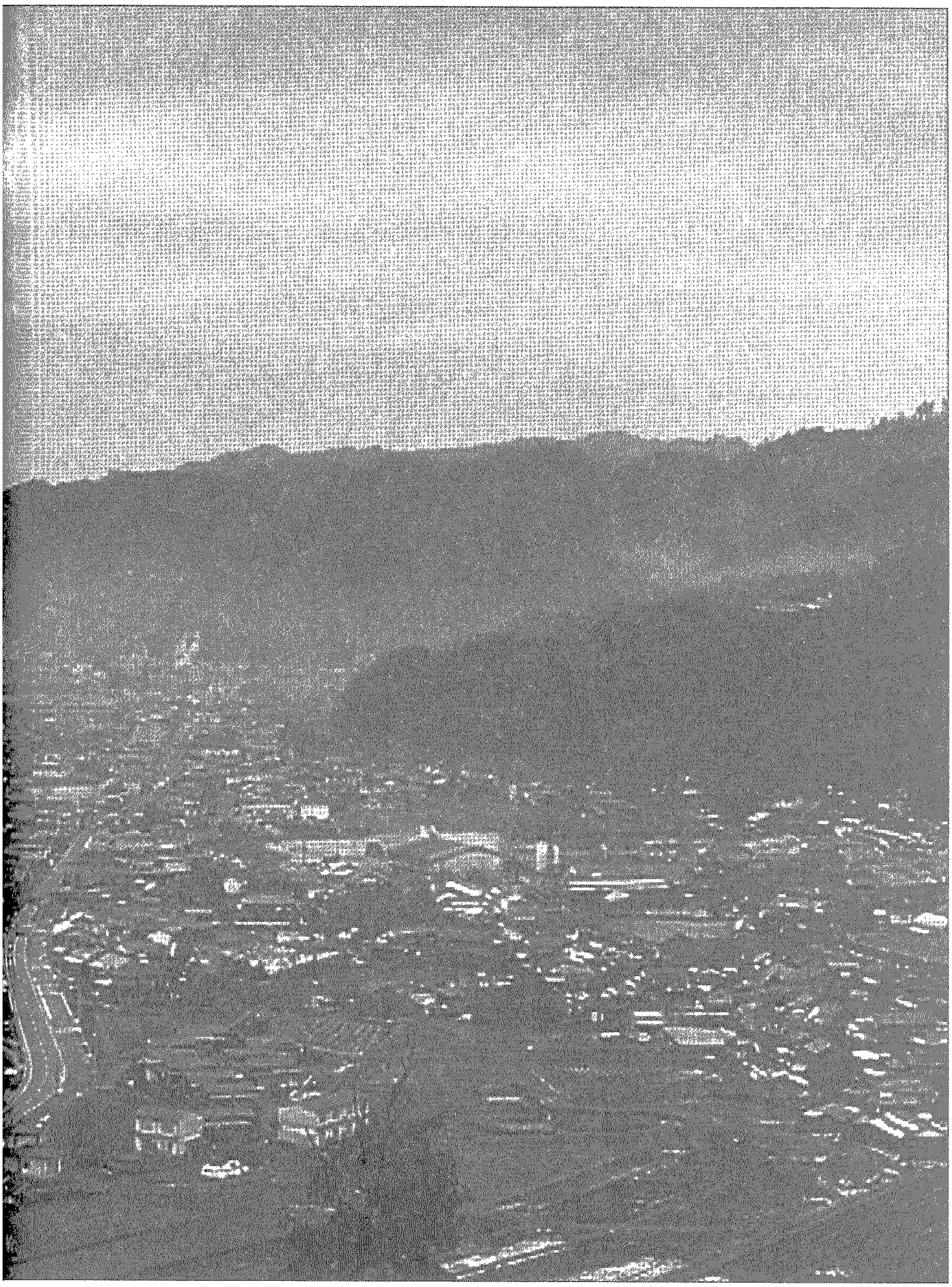
كان اليوم أحد أيام الأسبوع العادية، ولم يكن وقت الموسم السياحى، فلم يكن هناك أحد أمام مدرسة يوروكان التى أبقت فى مظهرها على النسق المعمارى لبيوت الساموراى. فى قلب السكون كان صوت خرير الماء فى النهر القابع خلفها يعزف نغمًا صافيًا.

عند دخولنا البوابة، واجهنا المخزن المبنى من الحجر الطينى بحوائطه البيضاء.

---

(١) كوتو بونچيرو (١٨٥٦ ـ ١٩٣٥م): تعلم فى مدرسة مقاطعة تسوانو والتى تسمى «يوروكان» تخرج فى جامعة طوكيو الإمبراطورية التى تأسست عام ١٨٧٧ م، بعد أن درس علم الچيولوچيا، تعلم على يد الألمانى هينرتش إيدموند نايمان (١٨٥٣ـ ١٩٢٧م)، سافر إلى ألمانيا ودرس الچيولوچيا فى جامعة لايبزج، ميونخ. عاد إلى اليابان عام ١٨٨٤ م، وعمل أستاذًا بجامعة طوكيو، كان أول من حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم فى اليابان عام ١٨٨٨ م. (المترجم).

(٢) يوروكان: مدرسة مقاطعة تسوانو. وهى واحدة من مدارس المقاطعات التى نشأت فى ظل نظام حكومة توكاجاوا بغرض إعداد الكوادر البشرية اللازمة لإدارة المقاطعة. فى نهاية عصر إيدو، تخرج فى هذه المدرسة العديد من الشخصيات النابغة، مثل مورى أوجاى، و يامانوبيه تاكيؤ، وكوتو بونچيرو، وغيرهم. ما زال مبنى المدرسة قائمًا فى محافظة شيمانيه، وخصص جانب منها كمتحف للوثائق مفتوح أمام العامة. (المترجم).



مدينة تسوانو فى محافظة «شيمانيه». فى يوروكان مدرسة مقاطعة تسوانو، تعلم الكثير من النابهين. كان يامانوبيه تاكيؤ الذى اكتشفه شيبوساوا واحدًا منهم.



وهو مبنى كان يستخدم لحفظ الكتب والوثائق الخاصة بالمقاطعة. عندما ننظر لهذا المبنى الجليل، نشعر كأننا ندخل فى عالم نسمع فيه صوتًا يقرأ من «حوارات كنفوشيوس» يقول: «يقول المعلم...».

كان يامانوبيه تاكيؤ الذى اكتشفه شيبوساوا واحدًا ممن تعلموا فى مدرسة يوروكان هذه.

سمعنا أن هناك حجرًا يحمل اسم يامانوبيه ما زال باقيًا فى المدينة، فتوجهنا إلى مكانه.

فى الطريق إليه، ونحن نعبر من تحت كوبرى صغير، يمر فوقه خط ياماجوتشى الحديدى، قابلنا مجموعة من الأطفال. كانوا خمسة أو ستة يجرون بحذاء مجرى مائى بالقرب من النهر. كانوا يجرون ويجلسون القرفصاء، وينظرون فى المجرى المائى، ويطلقون أصواتا فرحة. سألناهم:

ـ ماذا تفعلون؟

جاء نى الرد:

ـ سباق الورق.

كانوا يضعون مراكب ورقية صغيرة على سطح المجرى المائى، ويجعلونها تتسابق.

كان مشهد الأطفال وهم يلهون فى السهول، طاهرًا بريئًا، تمامًا كما تصوره لنا الأفلام.

تلك المشاهد التى كانت موجودة فى اليابان، وصرنا نتوق إليها حين نذكرها، ما زالت حية فى هذه المدينة.

كان الشاهد الحجرى قائمًا فى إحدى زوايا حديقة «كاراكو» وهى حديقة مقر حاكم المقاطعة فى الماضى.

على الشاهد كتبت عبارة توضح شخصية يامانوبيه. كتبها شيبوساوا بخط يده، تقول العبارة «تخلى عن رغباته، واتبع تعاليم السماء، والعاقبة للصديقين المخلصين».

وتعنى أنه رجل من طراز ساموراى قديم يؤمن بالصدق والأخلاق والإخلاص، ولا يسعى فى طلب شهرة أو فائدة خاصة.

أمام حديقة كاراكو تقع مدرسة تسوانو الثانوية. فى نشيد المدرسة مقطع يقول: من سيأخذ علم أمانيه؟ ومن سيرث قلم أوجاى؟ إنهم يتغنون فى نشيدهم باسم نيشى أمانيه، وموری أوجاى. كما أن تدريبات فريق الكورال المدرسى يقال إنها تجرى فى هذا المكان الذى فيه شاهد قبر يامانوبيه.

طلاب مدرسة تسوانو الثانوية الذين نقابلهم فى الطريق، كلهم بلا استثناء يلقون علينا التحية فى صوت كله إشراق وحيوية. تعاملهم مع مسافرين عابرين لا يعرفونهم بهذا الدفء، شيء منعش يغسل القلوب.

كان يامانوبيه فى لندن عندما أراد شيبوساوا أن يستدعيه.

كان قد سافر إلى إنجلترا فى العام العاشر من ميجى (١٨٧٧م).

كان يختلف إلى جامعة لندن يدرس فيها علوم الاقتصاد وبخاصة التأمين. كان يريد وهو ابن لساموراى أن يكتسب معارف جديدة ليواكب العصر الجديد.

فى عام ١٨٧٩ م وصل إلى يامانوبيه خطاب من شيبوساوا الذى لم يكن يعرفه من قبل.

تلقى طلب شيبوساوا منه بأن يدرس الغزل والنسيج. فقرر أن يترك دراسته للتأمين.

شركة «تويو» للغزل الموجودة فى أوساكا هى مما يذكرنا بيامانوبيه. عندما زرنا غرفة تاريخ الشركة لنقف على آثار يامانوبيه، كانت هناك مذكرات يامانوبيه فى خز نة للوثائق غير المعلنة. رجونا السيد/ موراكامى يوشيوكى المسئول عن تاريخ الشركة، فسمح لنا بالاطلاع على عديد من الوثائق القيمة.

من بينها مذكرات يامانوبيه للعام الثانى عشر من ميجى. وفيها كتب عندما علم بطلب شيبوساوا؛ كتب فيها هذا السطر:

ـ هذه الرسالة فيها مفاوضات من شيبوساوا.

سوف نتتبع تحركات يامانوبيه بالاستعانة بمذكراته مستعينين بشرح السيد/ موراكامى.

اليوم الذى علم فيه يامانوبيه بطلب شيبوساوا، كان يوم ٢٩ أبريل للعام الثانى عشر من ميچى.

ـ هذه المذكرات حوالى يوم ٢٩ أبريل، تلقى الخطاب الذى كان مؤرخًا فى ٢٥ مارس من نفس العام، ويقول فى هذا الخطاب «مفاوضات من شيبوساوا»، أى أنه سأله: ألا تتفضل وتدرس فى شئون الغزل والنسيج؟

بناء على طلب شيبوساوا منه أن يكون مديرًا لمصنع، ومن أجل ذلك يريده أن يكتسب معرفة فى إدارة المصانع، قرر يامانوبيه أن يترك دراسته للتأمين فى جامعة لندن التى كان يدرس بها، ويتحول إلى الصناعة.

قال السيد/ موراكامى:

ـ كتب الرد إلى أبيه وإلى صديقه تسودا تسوكانيه فى ٥ مايو، أى بعد ذلك بعدة أيام. كتب الرد إلى صديقه تسودا تسوكانيه زميله فى الدراسة عند نيشى أمانيه، والذى زكاه لدى شيبوساوا لأنه كان يعمل موظفًا فى البنك الوطنى الأول، وكتب إلى أبيه، السيد/ شيميزو الذى قال له إنه قد وافق عندما حدثه شيبوساوا فى ذلك الشأن. لذلك جاءت موافقته فى يوم ٥ مايو.

لم يكتب فى مذكراته أنه قد وافق فور قراءته لخطاب شيبوساوا أليس كذلك؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ لم يكتب، لم يكتب شيئًا على الإطلاق.

لكن إرساله الرد فى ٥ مايو إلى أبيه وإلى تسودا يعنى الموافقة. إنى أقدر فيه موافقته دون تردد. فلديه سرعة فى اتخاذ القرار.

أخيرًا تلقى شيبوساوا ذلك الرد من يامانوبيه، وصل يامانوبيه خطاب من شيبوساوا مباشرة هذه المرة. فى هذا الخطاب، توجد العبارة التالية:

ـ وصلتنى رسالة خاصة من شيبوساوا فى اليابان.

قال السيد/ موراكامى:



شيبوساوا إيئيتشى (على اليمين) ويامانوبيه. العين التى تكتشف الثروة البشرية، والإرادة الراغبة التى تستجيب لذلك، هما اللذان قادا التغيير فى حقبة ميجى.

ـ فى العادة لا تستخدم كلمة «رسالة خاصة » فى مثل هذه الأحوال، لكنها تعنى أن رسالة قد وصلته من شيبوساوا بخط يده. وقد كتبها مباشرة وشخصية إلى يامانوبيه، وفيها قال له شيبوساوا: أرجوك أن تقوم بالأمر بكل ما يمكنك.

تمامًا مثلما قيل لشيبوساوا نفسه عندما اختير للعمل فى الحكومة. هذه المرة، هو الذى يختار من توسم فيه الموهبة من الأشخاص الجدد. هكذا كان يتم اختيار العناصر البشرية.

حتى يدرس يامانوبيه مجال الغزل والنسيج، التحق كعامل فى أحد المصانع.

يحدثنا السيد/ موراكامى عن يامانوبيه فى تلك الأثناء محاولًا استقراء مشاعره:

ـ لم يكن الأمر مجرد أن يكون دارسًا لهندسة ميكانيكا الآلات، ولا أن يحفظ آلية الغزل والنسيج، لا نعرف بالضبط ما قاله له شيبوساوا، فلا يوجد لدينا ذلك الخطاب، منذ أن يدخل خام القطن، ويخرج فى شكل خيوط غزل، ثم تعالج تلك الخيوط وتصير قماشًا ثم تخرج من المصنع. وهناك مراحل تخرج فيها الخيوط من المصنع كمنتج. بالطبع لم يكن بمقدوره أن يلم بكل تلك المراحل ويتقنها، ولم تكن فترة السبعة أشهر كافية ليلم بكل شىء، إلا أنه كان ينوى أن يرى منظومة إدارة المصنع ككل. لم يكن الأمر مجرد أن يتقن تقنيات الغزل. أعتقد أنه كان هناك شعور يدفعه لأن يرى كل جوانب إدارة مصنع النسيج.

لهذا، فقد وفر لنفسه وقتًا وذهب إلى «أولدام» فى الشمال الشرقى، وتفقد هناك آلات الغزل. ثم يذهب لمشاهدة شركات القوى المحركة فى مكان يسمى هاجريفز. لقد تجول فى مسافات واسعة وشاهد أشياء عديدة.

إلا أن عائقًا غير متوقع وقف فى وجه يامانوبيه.

لم تقبل أى من المصانع أن يلتحق بها. كتب فى مذكراته يقول:

ـ ١٢ أغسطس، زرت السيد/ إيتسجن بوتم. يأس كبير.

ـ ١٤ أغسطس، زرت محافظ مانشيستر. خذلان.

ـ ١٥ أغسطس، زرت السيد/ ماكنر. لا أمل.

كان يامانوبيه يسير فى مدينة مانشيستر لأيام متصلة.

ولكنه لم يجد من يستمع أو يستجيب لرجاء رجل من الشرق.

ويحلل السيد/ موراكامى أسباب ذلك كما يلى:

ـ أعتقد أنه كان هناك تمييز، زد على ذلك أنه إن لم تكن لديهم رغبة فى قبوله، فسوف يعاملونه كشخص مثير للإزعاج.

لا أدرى إن كان من غير اللائق أن أقول إنه كان تمييزًا عنصريًا أم لا، لكن اليابان فى العقد الثانى من ميچى كانت دولة ضعيفة صغيرة، كان ذلك قبل الحرب اليابانية الصينية(1). وأعتقد أنه لم يكن لليابان اعتبار دولى. ولم يكن التحالف مع إنجلترا قد تم بعد. لقد كان هذا هو الحال فى ذلك العصر.

إلا أن يامانوبيه لم ييأس. ويصف السيد/ موراكامى سلوك يامانوبيه هنا بأنه سمة مشتركة فى شخصيات عصر ميچى وهى «الإشراق والتفاؤل».

ـ أعتقد أن يامانوبيه، لم تكن لديه أية معوقات نفسية على الإطلاق، فهو يستبدل دراسته للاقتصاد بدراسة الهندسة الميكانيكية، ويتخذ القرار بأن يعمل فى المصانع على الطبيعة.

هو بهذا المعنى، صلب للغاية من الناحية النفسية، وفى الوقت نفسه متفائل للغاية بمعنى آخر، إنه من دعاة التفاؤل، ولذلك فهو صلب وقوى.

فى ٢٥ أغسطس، تغير الوضع أخيرا.

فقد قبله مصنع يديره رجل اسمه بريجس فى منطقة اسمها بلاك بان فى ضواحى مانشيستر.

فى مذكراته فى ذلك اليوم كتب ما يلى كما يقول السيد/ موراكامى:

---

(١) الحرب اليابانية الصينية (١٨٩٤ـ ١٨٩٥ م): فى نزاع الدولتين على بعض أجزاء من شبه الجزيرة الكورية، أرسلت اليابان بقواتها إلى هناك فى صيف عام ١٨٩٤ م، واشتبكت مع القوات الصينية هناك، وأعلنت الحرب من الجانبين فى ١٢ أغسطس من نفس العام، انتصرت اليابان فى معاركها فى بيونج يانج، والنهر الأصفر، على القوات الصينية، وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة السلام فى أبريل ١٨٩٥م. (المترجم)

ـ فى ٢٥ أغسطس، ترتعش حروفه قليلًا، ويصعب قراءتها، ولكنه كتب أنه ذهب إلى بلاك بان والتقى فى المحطة بالسيد بريجس، وأنه كان نجاحًا كبيرًا. وبعد ذلك كتب بالإنجليزية بالتفصيل، ذكر أنه قال له إنه يستطيع أن يأتى فى أى وقت، وأن ما سيأخذه من مقابل مادى ليس مشكلة كبيرة بالنسبة له، قال له ذلك، فكان بالنسبة له نجاحًا كبيرًا.

وتبدو كلمة «نجاح كبير» التى كتبها فى مذكراته وكأنها ترقص فرحًا. ويبدو أن مجرد قبول مصنع له ليعمل فيه، كانت حدثًا كبيرًا لليابانيين فى عصر ميجى. لقد صار «النجاح الكبير» ليامانوبيه فى ذلك اليوم بداية لخطوة كبيرة لانطلاقة الثورة الصناعية فى اليابان. وبهذا المعنى فقد كان حقًا نجاحًا كبيرًا.

قال السيد/ موراكامى:

ـ على الرغم من أن المصانع الموجودة حول مانشيستر لم تقبله، إلا أنه كان سعيدًا لقبوله فى مصنع بريجس الموجود فى بلاك بان. لم يكن المال مشكلة بالفعل، كان ما أسعده أن قيل له: يمكنك أن تبدأ فى أى وقت تحب.

لم يكتب غير كلمة « نجاح كبير»؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ لم يكتب كثيرًا عما كان يعتقده، لذلك يسهل فهمه. إذا كان سيكتب انطباعاته أو ما يفكر فيه يومًا بيوم سيكون أمرًا صعبًا.

هكذا إذن. هل اختزل مشاعره فى كلمة « نجاح كبير»؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ الغريب فى الأمر، أن المذكرات لم تستمر. لقد توقفت عند هذه السنة، لا يوجد بها العامان التاليان. وكنت أعتقد أنه يجب أن تكون هناك مذكرات فى شهر يوليو من العام الثالث عشر من ميجى حين عاد إلى الوطن عبر المحيط الهندى، ولكن لا توجد.

بدأ يامانوبيه العمل فى مصنع الغزل كواحد من العمال. حاول أن يتعلم بكل

جوارحه النظام الشامل لإدارة المصانع على الواقع، وليس مجرد اكتساب المعرفة من الكتب أو بشراء الآلات.

في مخزن الوثائق، يحتفظ بكراسة المفردات التي صنعها يامانوبيه. وقد ملأها تدوينا للمصطلحات الفنية باللغة الإنجليزية الخاصة بالغزل، وترجماتها اليابانية.

لقد عانى يامانوبيه وهو يضع المقابل الياباني للمصطلحات الفنية الإنجليزية مصطلحا تلو الآخر، حتى يترك للمستقبل المعارف التي اكتسبها بنفسه. وفيها الكثير من الكلمات اليابانية الجديدة التي ولدت لأول مرة على يديه.

كان يامانوبيه بهذه الطريقة يطبق ما ابتدعه أستاذه وابن بلدته نيشي أمانيه ورفاقه من أساليب، جعلت من الترجمة وسيلة تنقل المعلومات الغربية إلى عدد كبير من اليابانيين.

لقد اعتمد يامانوبيه على تلك المصطلحات الفنية التي ابتدعها، ووضع كتابًا في ترجمة تقنية صناعة الغزل، والذي أصبح يستخدم كمرشد لمن يريد من اليابانيين أن يتعلم تقنية الغزل.

يعتقد أن يامانوبيه كان يظن أن اليابانيين لا يمكن ألا تكون لديهم القدرة على تطوير الصناعة الحديثة، لكن المشكلة أن المعلومات التي لديهم قديمة لم تعد تفي بالغرض. إذًا، فمن الأفضل أن يستبدل ما في رؤوسهم ويتعلموا المعارف الجديدة.

يحدثنا السيد/ موراكامي عن كراسة يامانوبيه فيقول:

ـ بخلاف المذكرات، توجد كراسة كتب بها أشياء حتى لا ينساها. يمكن أن نقول إنها كراسة مفردات لمصطلحات فنية. وكتبها لنفسه حتى يتذكرها. وصاغ بنفسه ترجماتها.

متى كان ذلك؟

قال السيد/ موراكامي:

ـ كان ذلك في الفترة من خريف العام الثاني عشر من ميجي حتى أوائل صيف العام الثالث عشر بكل تأكيد.

لكن الوقت الذى كتبها فيه غير متأكد منه، هل عندما كان فى لندن؟ أم بعد أن ذهب إلى بلاك بان ودخل المصنع هناك؟ لا أدرى. إلا أننى عندما أرى ما كتبه أظن أنه، ربما كان بعد أن ذهب إلى بلاك بان، وشاهد المنتجات على الطبيعة، ورأى الخامات، ولمس الماكينات، وهنا كان من الضرورى أن يقرأ ما يسترشد به من جمل وعبارات، فصنف الكلمات والمصطلحات الأكثر استخدامًا، وصنع لنفسه هذه الكراسة.

فى جزء منها توجد كلمات فرنسية، وأعتقد أنه قد كتب الكلمات التى كانت تستخدم فى مواقعها سواء كان ذلك فى مصنع الغزل، أم فى أماكن عقد الصفقات التجارية للمنتجات.

مكتوب بجانب المصطلحات كلمات باليابانية أليس كذلك.

قال السيد/ موراكامى:

ـ لقد ترجمها هو كما تراءى له.

من بين السجلات العديدة، مكتوب أنه فى ذلك الوقت كان بعض موظفى شركة «ميتسوى للتصدير والاستيراد» عندما تقابلهم مفردات لا يفهمون معناها وهم يقومون بشراء بعض الآلات، يذهبون إلى يامانوبيه ويسألونه فيها، فكان يرشدهم إلى ما يريدون فى أدب جم ودون أن يبدى ضيقًا أو تذمرًا، لأنه أول من وضع كلمات يابانية مترجمة فى هذا المجال.

إلا أن تلك المصطلحات لا تحتوى على مصطلحات فنية شديدة الصعوبة، وليس بها الكلمات الخاصة المستخدمة بين العاملين فى هذا المجال. كانت تحتوى على ما يشبه مبادئ الهندسة الميكانيكية، وأسماء المنسوجات المنتجة، وكانت ترجمة هذه المفردات إلى اليابانية ضرورية جدًا له آنذاك حيث لم يكن هناك من يقوم بذلك غيره.

إنها مفردات مترجمة ابتدعها يامانوبيه. هل ذلك يعنى أنه قام بالدراسة والبحث على طريقته ثم ترجمها إلى اليابانية؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ أعتقد ذلك. ثم إن معظمها، قد صار مستخدمًا بشكل عام، لا أستطيع أن أحصيها تمامًا من بين ما هو مدون هنا.

هل ما زال منها ما هو مستخدم الآن؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ أعتقد أن بعضها يستخدم. وفيها ما قد أصبح معتادًا بيننا الآن. ذلك حسب ما أراه. لكنى أعتقد أنه قد عانى كثيرًا من أجل ذلك.

معـانــاة؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ نعم، مع الكلمات حتى يجد لها ما يقابلها.

قد نرى الآن أنه أمر بسيط، لكن لمن يبدأ الأمر لأول مرة، لابد أن يبتدع شيئًا أصليًا يصيغه من عنده، لذلك أعتقد أنه قد عانى كثيرًا حتى يصيغ الكلمة المترجمة.

أما الآن، فهناك كلمات مشتركة متعارف عليها بين أهل التخصص، وصارت عادية تستخدم ببساطة.

فعندما نقول مثلًا كلمة « بيل»، فنفهم على الفور أنها «لفة»، وإذا قلنا «لفة غزل واحدة» فنفهم على الفور أنها لفة وزنها «٤٠٠ باوند» فى التجزئة.

إلا أننى عندما أرى الكراسة، أجد أن يامانوبيه كتب كلمة «بيل»، وكتب بعدها بالمقاطع الصينية ما يعنى «لفة». ولكنه ترجمها إلى كلمة «ربطة» واستخدم المقطع الصينى الذى يعنى «مجموعة من الخيوط مربوطة بحبل».

وهكذا أعتقد أنه عانى كثيرًا فى ترجمة كلمة بكلمة.

أو مثلا، نحن نستخدم اليوم بشكل طبيعى كلمة «calico» وتعنى القماش القطنى الرقيق. وقد ترجمها هكذا كما هى «كاراكو» بالكاتاكانا بمعنى قماشة قطنية، قطن. وصارت كلمة «كاراكو» اليوم تستخدم كما هى كمصطلح مفهوم لدينا.

وكذلك كلمة «card»، فى النسيج وتعنى توجيه أطراف النسيج فى اتجاه واحد عند الغزل. وقد ترجم هو كلمة «card» بمعنى أطراف الأقطان. وهنا تكمن معاناة كبيرة.

هكذا كان يفكر فى أمور عديدة حتى يخرج بكلمة يصيغها حتى يسهل فهم المعنى على اليابانيين.

قال السيد/ موراكامى:

ـ نعم، فكما ذكرت لك من قبل، بعد عودة يامانوبيه، كلما صادف موظفو الشركات التجارية لفظًا جديدًا، ذهبوا إليه ليسألوه عن المعنى، فكان يعلمهم ذلك بكل جد، ربما لم تكن هناك كلمة واحدة مناسبة أحيانًا، لكنه كان يشرح المعنى لسائليه.

أعتقد أنه لاقى تعبًا وعناءً حتى ترجم كل كلمة إلى اليابانية.

أى أن إنجازات يامانوبيه فى أنه ابتدع ما لم يكن موجودًا من قبل؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ نعم، ما لم يكن موجودًا من قبل. لقد بذل كل ما لديه من طاقة ذهنية، فلم يكن قبله أحد فى هذا المجال.

الفصل الخامس
ما هو التجديد؟
الابتكار فى إدخال التقنية

عاد يامانوبيه تاكيؤ إلى الوطن فى العام الثالث عشر من ميچى (١٨٨٠ م) بعد أن عمل فى المصنع قرابة عام، واشترك بكل جهد مع شيبوساوا إيئيتشى فى البحث عن الأرض المناسبة لبناء المصنع.

يقول السيد/ موراكامى إنه حتى نعرف كيف كان يامانوبيه يسعى قدمًا وبحماسة لبناء مصنع الغزل، لنا أن نقرأ مذكرات السيدة/ ساداكو زوجة يامانوبيه.

قال السيد/ موراكامى:

ـ قرأت ما تركته السيدة/ يامانوبيه من مذكرات. كانت تقول إن زوجها منذ أن عاد إلى العاصمة لم يقر فى بيته أبدًا، فذهب من فوره لبيت السيد/ شيبوساوا لتحيته، ثم ذهب إلى منزل أسرة «كاميّ»[(١)] وحيا سيدها سريعًا، فقد جعل كل همه البحث عن أرض المصنع. ولم يهدأ فى بيته أبدًا، لقد ظل يبحث قرابة العام.

بعد أن بحث كثيرًا، حدد يامانوبيه أرضًا لبناء المصنع فى موقع على البحر ليخدم عملية استيراد المواد الخام.

وهو المكان الواقع الآن فى منطقة «سانجينيا» فى حى «تايشو» بمدينة أوساكا.

قال السيد/ موراكامى:

ـ بعد أن عاد تحدث مع شيبوساوا، وكان كل همه البحث عن مكان مناسب للقوى المائية.

---

(١) أسرة كاميّ: هى الأسرة التى كانت تحكم مقاطعة تسوانو فى عهد توكوجاوا. (المترجم).

ناقش الأمر مع أحد الفنيين فى مجال الغزل والذى كان يعمل فنيا فى وزارة الزراعة والتجارة ويشرف على شركة «أيتشى» للغزل. تفقد عددًا من الأنهار ابتداء بنهر «ياهاجى» حتى نهر «كينو» فى منطقة غرب اليابان.

وانتهى من ذلك إلى أن جريان المياه بطىء ولن يعطيه قوة الحركة المطلوبة. من ناحية أخرى هناك أنهار ذات تيارات مائية إلا أنها تفيض مرة فى العام، لذلك لم يجد مكانًا مناسبًا.

ولهذا علم أن القوى المائية غير مناسبة. فإذا لم يكن أمامه إلا استخدام الطاقة البخارية، فمن الأفضل أن يختار مدينة محورية بين طرق الاتصال، مثل أوساكا والتى يستطيع فيها أن يحصل على قواه العاملة من المناطق المجاورة.

ما هو ذلك المكان المسمى سانجينيا الذى بنى فيه يامانوبيه المصنع؟

من «أوميدا» مركز مدينة أوساكا، ركبنا مترو الأنفاق حوالى ١٥ دقيقة، ونزلنا فى المحطة السابقة على محطة «استاد أوساكا الرياضى» «أوساكا دووم». صعدنا إلى سطح الأرض، وأدرنا النظر فيما حولنا، فرأينا كوبرى للمشاه مكتوبًا عليه «سانجينيا».

ربما سمى المكان هكذا لأنه لم يكن فيه قديمًا سوى ثلاثة بيوت. أما الآن فالمنطقة تكتظ ببيوت متلاصقة حتى إنك قد لا تجد بينها فواصل. إنه حى من الأحياء الشعبية التى لا تدع لنفسها فسحة للتكلف.

فى المنطقة السكنية توجد حديقة بين البيوت، فى ركن منها يقف شاهد حجرى كتب عليه:

ـ بدأ المصنع الذى يطلق عليه اسم سانجينيا للغزل فى العمل منذ العام السادس عشر من ميجى، وهو أول مصنع فى بلادنا ورائد مصانع الغزل الحديثة فيها.

كان الوقت عصرًا، كانت الدراسة فى المدارس قد انتهت لتوها، وكان فى الحديقة أولاد كثيرون يلعبون. إلا أن عينا لم يستوقفها الشاهد الحجرى.

كان عند مدخل الحديقة ولد يحمل فى يده مقشة وينظف المدخل، ناديناه. كان

طوله يوحى بأنه فى السنة الثالثة أو الرابعة الابتدائية. وسألناه إن كان يعرف ماذا يعنى ذلك الشاهد الحجرى؟ قال لنا:

ـ لا أعرف.

قلنا له:

ـ مكتوب أنه قديمًا كان هنا مصنع لصناعة الخيوط.

قال فى دهشة:

ـ أية خيوط؟

قد صار من الطبيعى أن يشترى الناس الملابس جاهزة من المحلات. وأصبح من النادر فى وقتنا الحالى أن يصنع الناس أزياءهم من القماش فى المنازل. ولذلك لا يستطيع الأطفال أن يتصوروا أن الخيوط تصنع فى المصانع.

ـ إنها الخيوط التى تصنع منها الملابس.

عندما قلنا له ذلك، أمسك بملابسه من مكان صدره ونظر إليها فى تأملٍ، ثم أرسل بناظريه إلى حيث الشاهد الحجرى.

قلنا له:

ـ بنى المصنع منذ أكثر من مائة عام.

حملق الولد بعينيه وردد هامسًا:

ـ منذ مائة عام.

كان وجهه بادى الدهشة، كأن ذلك العامود الحجرى غير الملفت للنظر، قد تحول فجأة إلى عامود سحرى.

لا شك أن قرنًا كاملًا يشكل فارقًا زمنيًا كبيرًا.

عندما ننظر الآن إلى هذه الحديقة الوادعة، والتى يستغرق الأطفال بين جنباتها فى لعبة الاستغماية، نحن أنفسنا لا نصدق أنه كان قائمًا مكانها مصنع هائل.

فى اليوم التالى، قمنا مرة أخرى بزيارة الأرض مكان المصنع مع السيد/ موراكامى من غرفة تاريخ شركة تويوبو. وقص علينا أحاديث عديدة حول بناء المصنع.

بعد أن تقرر أن يكون المكان فى أوساكا، ما السبب يا ترى فى اختياره لهذا المكان فى سانجينيا؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ ليس مسجلًا لدينا تفاصيل دقيقة حول اختيار الأماكن المرشحة، لكن يبدو أنه كانت هناك اقتراحات لأماكن مثل محطة أوميدا الحكومية الآن، والمنطقة الواقعة شمال محطة أوساكا، ومنطقة فى «ناكانوشيما». إلا أنها كلها كانت مساحات لا تفى بالغرض. فلم يصل بهم القرار إلى أى منها.

ولهذا، وبعد تفقد أمور أخرى غير القوى المائية، كانت الأرض فى قرية سانجينيا التابعة لكفر «نيشينارى» تحت الإدارة الحكومية. وهنا تم اختيار أرض البناء إذ يمكن تأجير ٥ آلاف «تسُبو»[1] (١٦٥٠٠ مترًا مربعًا). تم الاختيار بشكل نهائى فى العام الخامس عشر من ميچى. أى أنه تم الاختيار قبيل البدء فى الإنشاء.

ماذا تعنى بالقوى المائية؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ النهر والبحر. النهر فيها متصل بالبحر. ووجود نهرين بها كان ميزة كبيرة، نهر سانجينيا، والنهر الأصلى نهر «كيزو».

أى أنه استخدم النهر فى نقل الخامات؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ إدخال القطن الخام، وإخراج المنتجات. بالطبع كانت هناك منتجات تخرج محملة على عربات تجرها الخيول.

فى بداية العمل، كان القطن الخام هو القطن الموجود فى داخل البلاد.

أحد ما قام يامانوبيه بتجديده فى الإدارة، هو استخدامه للأقطان الصينية أو الهندية الأرخص سعرًا من الأقطان المنتجة محليًا فى العشرينيات من عصر ميچى. أعتقد أن

---

(١) تسُبو: وحدة قياس لمساحة الأرض. تساوى ٣,٣ متر مربع. (المترجم)

ذلك أيضًا إنجاز كبير يحسب ليامانوبيه. الأقطان الصينية أو الهندية كانت تأتى محملة فى السفن فكانت تدخل عبر نهر كيزو.

يا ترى كيف كان الانطباع آنذاك حين بنى المصنع؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ كانت الأرض منخفضة للغاية، ولا شك أن الجيران اندهشوا كثيرًا حين بنى مبنى من الطوب الأحمر بارتفاع ثلاثة طوابق، وكما هو مدون فى الكتب أن الناس اندهشوا للغاية لبناء مبنى مهيب من ثلاثة طوابق.

حتى يستطيع الغزل اليابانى مقاومة المنتج الغربى، لابد من إنتاج نوعية أفضل مما ينتجه الغرب، وبأسعار أرخص. لذلك كان من الضرورى أولًا وجود آلات تنافس الآلات الغربية. استوردت شركة أوساكا للغزل من أجل المصنع الجديد، أحدث آلات الغزل آنذاك من إنجلترا. بل وكان عدد ما استورده عشرة آلاف مغزل دفعة واحدة. إلى ذلك الحين كان المتعارف عليه أن ألفى مغزل كمية مناسبة لليابان، إلا أنه كسر ذلك المتعارف عليه. كان لابد من الإنتاج بكميات كبيرة، ولذلك كان لابد من تحديد كمية معينة.

وفوق ذلك، استورد يامانوبيه، الآلات البخارية كمصدر للطاقة المحركة، ولم يستخدم العجلات المائية التقليدية.

إلا أنه حتى مع استكمال الآلات والمعدات، وإذا لم يوجد من يعملون فى المصنع ممن لديهم المعرفة بها، فلن يستطيعوا إنتاج منتجات ذات نوعية جيدة. وكان من الضرورى تربية جيل من الفنيين اليابانيين بأى حال من الأحوال.

وحتى يمكنه نقل ما تعلمه فى إنجلترا من خبرات، وضع يامانوبيه دليلًا معتمدًا على ما كتبه فى كراسته من مصطلحات فنية، ووزعه على أربعة أشخاص ممن توسم فيهم خيرًا، واتبع طريقة نشر المعرفة.

كان يامانوبيه يحاول أن يوافق بين التقنية الغربية وبين الواقع اليابانى، وكان يحاول أن يجد الطريقة المثلى للجمع بينهما.

فى الجزء الخاص بالآلات، وبالفنيين، كان قد استحضر نفس الشروط التى للمصانع فى إنجلترا. لكنه بذلك لن يستطيع إلا إنتاج منتجات لها نفس قدرة المنتج الإنجليزى.

وهنا فكر يامانوبيه فى نظام المناوبة والذى يمكن أن يناسب أيضًا عصرنا الحالى.

قسم العمال إلى مجموعتين، وقام بنظام التناوب على إدارة العمل بالليل والنهار. وبذلك استطاع أن يستمر فى العمل ليلًا ونهارًا دون أن يوقف الآلات، وبذلك استطاع أن يجعل من الممكن مضاعفة الإنتاج ليكون ضعف ما تنتجه إنجلترا. وبقوى عاملة وفيرة ورخيصة، فيستطيع أن ينتج منتجات يمكنها المنافسة بكفاءة.

إلا أن العمل ليلًا ونهارًا أتى بعاقبة غير متوقعة. فقد اشتعلت نيران المصابيح فى فترة العمل الليلية، وأحرقت غزل القطن، وما لبث أن أشعلت حريقًا.

ولحل هذه المشكلة قام يامانوبيه باستخدام وسيلة مبتكرة، فقد قام بإدخال المصابيح الكهربائية للمصنع والتى لم تكن تستخدم إلا فى القصر الإمبراطورى وبعض من الأماكن المحدودة.

ويحدثنا السيد/ موراكامى عن ذلك فيقول:

ـ فى العام التاسع عشر من ميچى (١٨٨٦ م) أدخل المصابيح الكهربائية. كان أول ضوء كهربى فى غرب اليابان. ووقع فى مأزق حين طلبت منه بعض سيدات الطبقة الراقية فى المنطقة القريبة من أوساكا أن يعيرهن المصابيح الكهربية لأن لديهن حفلًا كبيرًا.

هل كان إدخال المصابيح الكهربائية بهدف تجنب حرائق الغزل؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ كما تعلمون، إذا لم يعمل المصنع على فترتين، ستنخفض إنتاجيته كثيرًا بالمقارنة بإنجلترا المتقدمة، لذلك فقد لجأ يامانوبيه إلى نظام التناوب مع بداية عمل المصنع فى العام السادس عشر من ميچى، فكان يعمل بواقع ١٢ ساعة فى الوردية الواحدة أى يعمل ٢٤ ساعة يوميًا وإلا لن يحقق إنتاجية عالية. كما أن المستثمرين الذين وضعوا

أموالهم فى المصنع منذ ثلاث سنوات ينتظرون أن يوزع عليهم بعضًا من الأرباح. لهذا كانت هذه هى السياسة التى اضطر إليها يامانوبيه. لذلك لجأ لنظام العمل على فترتين.

إلا أنه كان يشغل المصابيح عند العمل ليلًا، فانتقلت نارها إلى الأقطان فاشتعل الحريق، واندلعت الحرائق فى كل مكان. وبحث عن ضوء لا يشعل الحرائق، واهتدى إلى إدخال الضوء الكهربائى، واستطاع إدخاله إلى هذا المصنع فى العام التاسع عشر من ميچى.

عند الحديث عن يامانوبيه تاكيؤ، يذكر تحديث التقنية، لكنه كان محبًا لكل ما هو جديد ولكن أهم ما يميزه هو طريقته فى الإدارة التى اعتمد فيها على العمل بنظام التناوب، كما أنه أدخل الآلات الحديثة، لكن أهم ما يلفت النظر إليه هو إدخاله للمصابيح الكهربية فى المصنع. لقد قام بعد ذلك بإدخال العديد من الأشياء الجديدة.

مثل ماذا؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ مثل رشاشات المياه الموجودة حتى فى هذا المكان، والتى تنثر المياة من أعلى إذا حدث حريق.

وأيضًا كان من المعتاد إدخال الفحم فى الغلايات يدويًا، لكنه قام بإدخال آلتين لإدخال الفحم أتوماتيكيًا.

وفى المصنع الثالث، أراد أن يجعل مبناه كله على طراز فخم، وقام بإدخال العديد من التقنيات إليه.

كان محبًا للأشياء الجديدة.

كيف كان الوضع فى منطقة سانجينيا فى العام التاسع عشر من ميچى يا ترى؟ لابد أن الظلام كان دامسًا فى الليل، أليس كذلك؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ أعتقد أن الظلام كان دامسًا. وحتى إذا كان بها ضوء فلن يتعدى مصباحًا بتروليًا، ولا أعتقد أنهم كانوا يعيشون على أشعال ذبالة شمعة فى مصباح ورقى. فى ذلك المناخ، كانت إضاءة مبنى من ثلاثة طوابق بالمصابيح الكهربية شيئًا مثيرًا للغاية.

فى ٢٠ سبتمبر من العام التاسع عشر من ميچى، لأول مرة تدخل المصابيح الكهربائية فى اليابان فى الإضاءة الليلية بغرض الصناعة، والتى تمت بوساطة من شيبوساوا لمصنع سانجينيا أحد مصانع شركة أوساكا للغزل. وصارت تلك الإضاءة الساطعة حديث الساعة، وحدثت جلبة كبيرة من المشاهدين الذين جاءوا لزيارة الموقع وبلغ عددهم حوالى خمسين ألفًا.

بفضل ما بذله شيبوساوا، ويامانوبيه ـ الذى اكتشف فيه شيبوساوا مهاراته ـ من جهود معًا، استطاعت صناعة الغزل اليابانية أن تبدأ انطلاقتها.

فى العقد الثانى من ميچى، توالى بناء مصانع كبيرة للغزل فى مناطق مختلفة بعد مصنع أوساكا، وفى العقد الثالث من ميچى استطاعت الخيوط من إنتاج اليابان أن تسحق المنتج الأجنبى، ثم تصبح هى المنتج الرئيسى الذى تصدره اليابان للخارج واستطاعت أن تغزو الأسواق العالمية.

سألنا السيد/ موراكامى: كيف تقيم ما قام به يامانوبيه من إنجازات فى صناعة الغزل اليابانية الحديثة؟

قال السيد/ موراكامى:

ـ أتسألوننى عن الدور الذى قام به يامانوبيه؟

إنه كفنى، وضع الأساس التقنى للغزل فى اليابان. أما غير ذلك، فمثلما ذكرت آنفًا عن تعامله مع المشكلات الإدارية كنظام المناوبة، أو استخدامه للأقطان الأجنبية وغير ذلك من الأمور فقد كان رائدًا فى التحديث فى أشياء عديدة، لقد صارت له الريادة.

أيضًا من مميزات يامانوبيه أنه فى العام السادس عشر من ميچى عندما بدأ العمل بهذه الآلات كان رئيسًا للفنيين، ثم مديرًا للشئون الهندسية والفنية، ثم صار بعد ذلك عضوًا فى مجلس الإدارة، ثم مديرًا للشركة، وقد عانى الكثير فى توفيق الأرباح

والخسائر مع أصحاب الأسهم. لكنه كان واحدًا من أسرع من أداروا الشركات فى صعودهم الوظيفى المبكر من مجرد فنى، دخل الشركة كمتخصص تقنى، إلى أن صار إداريًا متخصصًا أيضًا.

أما أصحاب الأسهم، فقد كانوا مثل المستثمرين الحاليين فى أمريكا مثلًا، كانوا يتعجلون الحصول على العائد السريع. لكن يامانوبيه، كان يريد أن يحتفظ به داخل الشركة قدر المستطاع حتى يطيل بقاءها. لذلك فلم تتفق مصالح الجانبين.

عندما صار مديرًا للشركة فى الثلاثينيات من ميچى، استطاع أن ينجو بها من الكساد الذى عم البلاد آنذاك، إلا أن المساهمين ضيقوا عليه الخناق مطالبين بزيادة نسبة العائد.

وكان هو يريد الاحتفاظ بالأرباح داخل الشركة إلى حين، فاختلف معهم فى الرأى، وشعر بالضيق وأنه لا يريد أن يستمر فى ذلك العمل، فذهب إلى شيبوساوا وأخبره أنه يريد أن يترك صناعة الغزل، إلا أن شيبوساوا استطاع أن يثنيه عن موقفه ويشجعه حتى رضخ أخيرًا واقتنع بالاستمرار مرة أخرى.

لذلك فهو نمط للفنى الذى صار متخصصًا فى الإدارة. وهو الرائد فى هذا النمط.

يا ترى ما هى العوامل التى جعلت يامانوبيه ينجح وتكون له الريادة فى مثل هذه الظروف؟

قال السيد/ موراكامى:

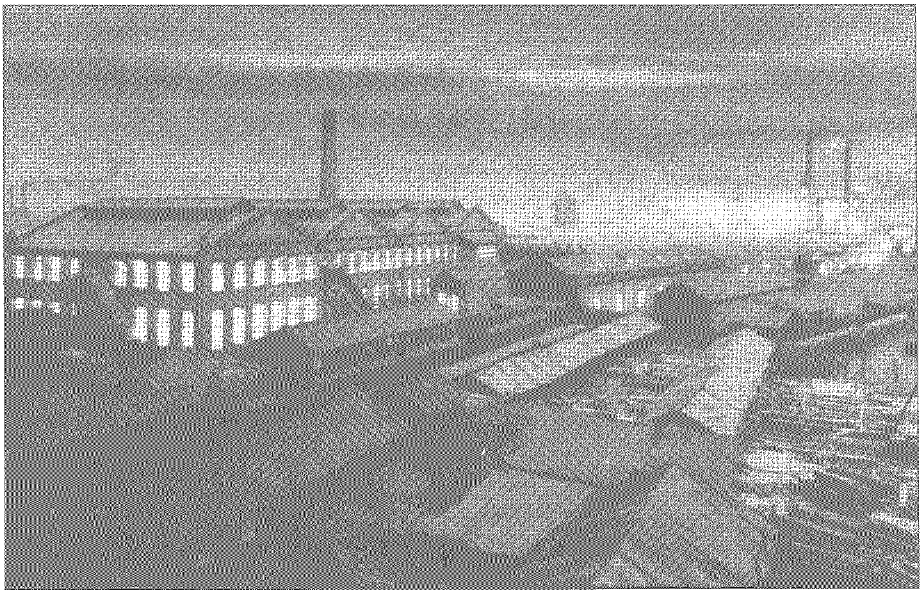
ـ أعتقد لأنه كان رجلًا مخلصًا إلى أبعد الحدود.

عندما مات يامانوبيه، نعاه أحد العاملين فى نفس المجال فقال:

«ليس بالضرورة أن يكون الأفضل بين الفنيين فى اليابان. لم يكن ممن ترك لهم أهلهم إرثًا، ولم يكن يملك مالًا. إلا أننى كأحد العاملين فى المجال، أشعر بالفخر أنه كان بيننا فى عالم صناعة الغزل رجلٌ فى مثل شخصيته العظيمة».

قال ذلك وهو ينعيه.

ثم إن شيبوساوا نفسه أرسل إليه كلمة قال عنه فيها: «ازدهار إلى الأبد». وهى



حتى يزيد يامانوبيه من إنتاجية الغزل، أدخل نظام المناوبة (الوردية) صباحًا ومساءً، وقام بوضع مصابيح كهربية من أجل العمل ليلًا. (أعيد تجسيده بالكمبيوتر جرافيك)

الكلمة المحفورة على الشاهد فى الحديقة فى مدينة تسوانو. كان مخلصًا للغاية، إذا بدأ فى عمل وانهمك فيه، لا يتركه قبل أن ينتهى منه، وهى إحدى الخصائص الهامة التى يجب أن تتوافر للمدير والتى كان يمتلكها.

إذا سمح لى بالخروج عن الموضوع قليلًا. فلقد كان يامانوبيه ابنا لأسرة «شيميزو» وهى أسرة من الطبقة الوسطى للساموراى فى إقطاعية تسوانو التى كانت تحكمها أسرة «كاميّ»، وكان نصيبها السنوى حوالى مائة جوال من الأرز (الجوال حوالى ١٨٠ كيلو جرامًا). وعندما كان فى سن الثالثة أو الرابعة انتقل من أسرة شيميزو إلى أسرة يامانوبيه ليكون لهم ابنًا بالتبنى. وكانت أسرة يامانوبيه أيضًا من طبقة الساموراى الوسطى، والتى لا يزيد نصيبها كذلك على مائة جوال من الأرز سنويًا.

أذكر الآن قصة «ضباب فوق المرتفع» الشهيرة للكاتب «شيبا ريوتارو». إنها تحكى عن نفس العصر الذى عاش فيه يامانوبيه، لقد ولد فى العام الرابع من كائيه (١٨٥٠م)، أبناء ذلك الجيل يتميزون بتفاؤل غير محدود.

رافق يامانوبيه واحد من أبناء أسرة كاميّ وذهب معه إلى إنجلترا فى العام العاشر من ميچى. وكان يامانوبيه يدرس الاقتصاد، وعندما كان يريد أن يدرس التأمين ويتخصص فيه، رشحه صديقه تسودا تسوكانيه وطلب منه شيبوساوا أن يدرس تقنيات الغزل والنسيج حتى ينتجوا غزلًا حديثًا، اتخذ قراره على الفور وانتقل إلى دراسة الهندسة.

إلا أنـه أيقـن أنـه يجب أن تكون له خبرة العمال، فذهب يبحث عنها فى بلاك بان.

من ذلك أشعر أنه إنسان صريح، وواضح للغاية، يسير مع التيار ولا يعارضه، مسالم للغاية لا يتعلق بالأشياء ولا يربط نفسه بشيء بعينه، وليست له رغبات.

لا يهتم بجمع المال وتكوين ثروة، وأستطيع أن أقول إنه قضى حياته دون أن تكون له رغبات مادية.

وأيضًا هذا المكان سانجينيا الذى يقولون عنه إنه مكان البداية والانطلاق، كان بالنسبة ليامانوبيه مكانًا مليئًا بالأحزان، فقد فقد فيه ابنه الوحيد بعد أن أصيب داخل المصنع ومات فيه. يقولون إنه لم يكن يبدى اهتمامًا أو يكترث للأحداث، ولكن

لابد أن أحزانه لفقد ابنه كانت تلازمه دائمًا، والدليل على ذلك أن مقبرة الابن العزيز «ريوئيتشى» هى الأكبر بين مقابر أسرة يامانوبيه الموجودة فى «تنّوچى».

قصة يامانوبيه وتطوير صناعة الغزل فى اليابان، تقول للأجيال التالية إن مفتاح النجاح ليس فقط فى إدخال الآلات والمصانع، وإنما فى التجديد المجتمعى المتمثل فى اكتساب القدرة والمهارة لتشغيل الآلات وإدارة المصانع.

لم يتوقف شيبوساوا عند الغزل فى أوساكا، بل أخذ يقيم الصناعات والمشروعات الواحد تلو الآخر. لقد بلغت الشركات التى ارتبطت باسمه أكثر من خمسمائة شركة فى مجالات مختلفة مثل السكك الحديد الأهلية، والغاز، والطاقة الكهربية، والورق، والطوب الأحمر. كانت الطريقة التى اتبعها هى نفس الطريقة مع يامانوبيه. يكتشف العنصر البشرى الذى لديه الرغبة والحماسة، ويترك له الإدارة، ويقف فى الخلف يحميه ويسانده.

هكذا كانت اليابان تقوم بإصلاح نظمها الاجتماعية واحدًا بعد الآخر بالإفادة من ثروتها البشرية، وإدخال الرأسمالية الغربية. أنشئت البنوك، وأقيمت الشركات. ولم تكتف فقط بالجوانب المادية مثل السكك الحديدية والتلغراف، بل كانت تقوم فى نفس الوقت بإعداد الأفراد والتنظيمات التى تحركها وتديرها.

فى نفس الفترة قامت شركات ومؤسسات أخرى مثل «ميتسوبيشى» و«ميتسوى».

يشير السيد/ دراكر إلى أنه من بين مجموعة الشركات هذه، نشأ نوع من التواصل البشرى مثل الذى كان يحدث فى المقاطعات فى عصر إيدو.

يقول دراكر:

لم يكتف اليابانيون بالحفاظ فقط على اللغة اليابانية، بل حافظوا أيضًا على التقاليد اليابانية.

فقد تم تحديث الشركات اليابانية تحديثًا كاملًا فى الفترة من ١٨٩٠م إلى ١٩٠٠م، إلا أنها مع ذلك ظلت يابانية خالصة، فقد كانت تحافظ على خصائص نظام المقاطعات فى عصر إيدو (وذلك فى شكل تكوين مجموعات للشركات).

إن أكبر إنجاز حققه شيبوساوا هو استزراع نظام عصر إيدو فى المجتمع الحديث.

وهى الطريقة التى تكونون بها أنتم أيها اليابانيون هيكلكم الاقتصادى اليوم. أى ذلك الشكل الذى يقوم على أساس وجود بنك يتمركز فى وسط مجموعة من الشركات.

فالبنك هنا بمثابة الأمير الحاكم فى النظام الإقطاعى، ويقوم بنفس الدور الذى كان يقوم به.

لقد اختفى الأمراء فى عصر إيدو بعد حرب قصيرة (حرب «بوشِن»(١)) إبان قيام إصلاح ميچى.

وصار هؤلاء الأمراء فى عصر ميچى إما من كبار الملاك وأصحاب ثورة أو من النبلاء. وفقدوا تأثيرهم السياسى.

ربما لم يكن هؤلاء الأمراء سعداء سعادة كبرى بما حدث، ولكنهم كانوا قد توقعوه وحزموا أمرهم. وأعتقد أن ذلك ينطبق على كل الإقطاعيات.

إلا انه حتى فى عصر ميچى ظل مفهوم الإقطاعية، وهيكلها، وطريقة تكوين تنظيماتها الداخلية، نموذجًا للهيكل الاقتصادى على الطراز اليابانى.

فى مجموعة شركات ميتسوى أو ميتسوبيشى، يقوم البنك بدور الأمير، وكما كان الأمراء يقومون بتنظيم المقاطعة، بدأت البنوك بتكوين مجموعة الشركات بحيث تكون كل شركة لها إدارة ذاتية ولكن ليست مستقلة استقلالًا كاملًا.

هكذا، بقيت المفاهيم الأساسية للإقطاعيات فى عصر إيدو فى قلب اليابان الحديثة.

---

(١) حرب بوشن: ١٨٦٨م، قامت بين المعارضين لقيام حكومة جديدة من أتباع حكومة توكوجاوا، والقوات المتحالفة من المقاطعات المؤيدة للتغيير وقيام حكومة جديدة، استمرت المقاومة لقوات الحكومة الجديدة فى أنحاء متفرقة من اليابان، امتدت من مناطق فى غرب اليابان مثل «توبا»، و«فوشيمى»، مرورًا بالشمال فى «أيزو»، وحتى «هاكوداتيه» فى جزيرة هوكايدو فى أقصى الشمال. وانتهت الحرب باستسلام القوات المناهضة أمام قوات الحكومة الجديدة، فقد كانت قلعة إيدو قد فتحت سلميًا، وسلم «الشوجن» مقاليد الحكم طواعية للبلاط الامبراطورى. (المترجم).

بدأت معرفتى باليابانيين عندما كنت أعمل موظفًا بأحد البنوك فى لندن فى ثلاثينيات القرن الماضى. كان هؤلاء اليابانيون عملاء مميزين فى البنك الذى كنت أعمل به.

كان اليابانيون حتى قيام الحرب العالمية الثانية، يجعلون من لندن قاعدة لأعمالهم فى الخارج وليس نيويورك أو كاليفورنيا. فلم تكن نيويورك ولا كاليفورنيا تعامل الشرقيين بطريقة حسنة.

كانت طريقة قيام اليابانيين بأعمالهم مختلفة تمامًا عن طريقة الإنجليز، ولكنها كانت مع ذلك طريقة حديثة تمامًا.

لقد حافظ اليابانيون حتى النهاية على الهيكل الأساسى للمجتمع اليابانى. فقد استزرعوا بنية المجتمع الزراعى فى عصر الإقطاعيات فى المجتمع الحديث.

من المناسب أن نطلق على الشركة فى اليابان اسم «إقطاعية»، فلها فى اليابان اليوم الصفة نفسها. يقال إن اليابانيين ورثوا نظام الأقدمية فى الترقى وتقلد المناصب عن عصر إيدو، وهذا النموذج لا نراه فى تاريخ بلدان أخرى.

من قبل تساءلت: ألا توجد بعض الدول غير الغربية قد تتخذ من اليابان نموذجًا للتحديث؟ ولكنى أعتقد أن ذلك لن يحدث.

ففى منطقة أخرى من العالم إذا أقدموا على التحديث، ينكر الجديد القديم فيهم، ولا يقومون باستخدام الأشياء القديمة.

ونستطيع أن نرى ذلك فى الصين اليوم. ففى ظل النظام الصينى الحديث، لم تعد شنغهاى ولا كوشو من الصين فى شىء. فقد صارت تلك المدن كيانات غريبة بالفعل، ولم يتبق فيها من التقاليد الصينية شىء يذكر.

من مثل هذه المقارنة، نرى أن ميجى أفاد بمهارة من طاقة اليابان التقليدية، وحقق بذلك نجاحًا كبيرًا، ونرى بوضوح أيضًا كيف كان ذلك شيئًا فريدًا.

كان الطلاب اليابانيون الذين كنت أشرف عليهم فى نيويورك فى خمسينيات القرن الماضى، شبابًا فيما بين الثلاثين والخمسة والثلاثين. وقد أرسلتهم منظمات وهيئات مختلفة إلى أمريكا، وطلبت منهم أن يتلقوا تدريبات حتى يصبحوا ممن يتولون مناصب إدارية فى شركاتهم، وتكون لهم القدرة على التواصل والقبول دوليًا. كانوا يعتقدون أنهم موظفون ينتمى كل منهم إلى مجموعة الشركات الكبرى التى تدخل

شركتهم كواحدة منها، ولا ينسبون أنفسهم إلى تلك الشركة الصغيرة التى تدخل فى المجموعة.

فمجموعة الشركات فى اليابان تشكلت لتكون بمثابة الإقطاعية. وخاصة المجموعات الكبيرة منها.

العمال فى اليابان ينتمون إلى مجموعة الشركات الكبرى، وفى بعض الحالات تثبت لديهم معتقدات أنهم يستطيعون الانتقال للعمل فى شركة أخرى داخل المجموعة الواحدة. وهناك أيضًا على سبيل المثال بعض موظفى الشركات الذين يقضون فى أمريكا عامين أو ثلاثة، وحين يعود أحدهم إلى اليابان قد يجد نفسه قد نقل ليعمل هذه المرة فى شركة أخرى فى نفس المجموعة. ولا يحدث ذلك لديه أى فرق فهو عضو فى نفس مجموعة الشركات، ولم يتغير من الأمر شىء.

إن نظام الشركات اليابانية كان حتى وقت قريب يكرس المفاهيم الأساسية للإقطاعية فى عصر إيدو.

الفصل السادس
واقعيـــة ميچـــى

فى العقد الثالث من ميچى حققت اليابان الثورة الصناعية الأولى معتمدة على عجلتين، الغزل والسكك الحديدية. واستقر كيانها كدولة حديثة على الطراز الغربى بوضع «الدستور» وإقامة البرلمان.

وقد أتت جهود التغيير ثمارها بما يتفق والأوضاع الفعلية لليابان حين أبقت على القديم وهى تدخل إليها الجديد بكل إيجابية.

إنها يابان ميچى التى تمكنت من بناء دولة استطاعت أن تقف فى مصاف الدول الغربية فى وقت قصير.

ويحدثنا كل من الدكتور/ دراكر، والسيد/ كاتو، عن الدرس الأكبر الذى يتعلمه الحاضر من أعمال الناس فى ذلك العصر؛ حين فرقوا بوضوح بين ما يستطيعون عمله وما لا يستطيعون، وحددوا أولوياتهم بوضوح وانهمكوا فى حل المشكلات الصعبة.

يقول دراكر:

أهم درس يمكن أن يعطيه ميچى لعصرنا الحالى هو تلك القدرة العالية على التركيز.

لقد استطاع الناس فى ميچى أن يوجهوا الطاقات المختلفة لدى الناس ويجمعوها فى اتجاه واحد، ونجحوا فى أن يظهروا وعى الناس تجاه هدف، محدد، ويجعلوهم يتجهون نحو الجديد. لم يستطع أى بلد آخر أن يحقق ذلك.

يقول السيد/ دراكر إن الناس فى عصر ميچى، وإن كانوا قد أخذوا ميرث إيدو، فليس معنى هذا أنهم قد حافظوا عليه كله. كان القرار فى اختيار ما يأخذ وما يترك يتخذ بوضوح.

يقول دراكر:

ما هى التقاليد اليابانية التى ظل اليابانيون يحافظون عليها حتى فى عصر ميچى؟ وعلى العكس من ذلك ما الذى تخلوا عنه بعد أن بدأ ميچى؟

كان ما تركوه هو النظام السياسى التقليدى الذى كان الحكم فيه لملاك الأراضى فى الإقطاعيات. فقد استبدله اليابانيون بنظام سياسى حديث يقوم على الأحزاب السياسية. ثم صنعوا حكومة حديثة بها رئيس للوزراء.

وعلى الجانب الآخر، أفادوا إلى حد كبير من نظام التعليم، ولم يحدثوا فيه إلا إبدال المنهج الكنفوشى بمنهج غربى حديث.

لى صديق يابانى كان مؤرخًا مشهورًا للغاية قبل خمسين عامًا مضت، كان موضوع أحد مؤلفاته «كنفوشيوس أم ماركس؟».

ويعنى ذلك أن اليابانيين قد استبدلوا كنفوشيوس بماركس أو بآدم سميث. لقد كان تأثير ماركس على اليابان معدومًا أو محدودًا للغاية حتى نهاية حرب الباسيفيك.

يقول السيد/ كاتو إنه من بين الأوجه العديدة للتغيير فى نظم المجتمع اليابانى التى وضع فيها ترتيب واضح للأولويات، كان التغيير فى ثلاثة جوانب هى التى وضعت الأساس لعصر ميچى.

يقول كاتو:

أنا أعتقد أن العصر المسمى بميچى هو نوع من أنواع الثورة. لقد حدث تغيير اجتماعى كبير للغاية. فقد انهار نظام الحكومة العسكرية الذى استمر قرابة مائتين وخمسين عامًا، وقامت دولة ميچى الجديدة.

هناك ثلاث مميزات كبرى. الميزة الأولى «الوحدة» التى هى ميزة الدولة القومية.

كان نظام الإقطاعيات فى عصر إيدو، يقوم على حكومة أسرة توكوجاوا العسكرية والتى على الرغم مما يقال عنها من أن عوامل قوتها كحكومة مركزية كانت قوية

بالمقارنة بالنظام الإقطاعى فى العصور الوسطى فى أوروبا، إلا أنه بالرغم من ذلك فقد كانت الإقطاعيات فيها مستقلة. وبهذا المعنى، فقد كان الوضع فى البلاد بين بين، إذ كانت هناك وحدة للبلاد ككل، إلا أن كل المقاطعات كانت منفصلة عن بعضها. بمعنى أنه إذا قارناها بالدولة القومية الحديثة، كانت اليابان فى نهاية عصر إيدو ما زالت متفرقة الأوصال. ولقد تم توحيدها، تمامًا مثلمًا حدث عند توحيد الدولة القومية فى أوروبا. لقد تم توحيد إنجلترا وفرنسا مبكرًا، ثم حدث بعد ذلك توحيد إيطاليا وألمانيا متأخرًا بعد الدخول فى القرن التاسع عشر.

وفى شكل شديد الشبه من ذلك، أصبحت كل الإقطاعيات دولة واحدة، وأصبحت كيانًا واحدًا مستقلًا على مستوى الدولة، والمستوى المجتمعى أيضًا، لقد صارت دولة ذات إطار عام واضح للغاية.

الميزة الثانية هى إلغاء نظام الطبقات، والمساواة بين فئات الشعب الأربع. فنظام الحكومة العسكرية كان نظامًا طبقيًا. فى نظام الفئات الثابتة، الساموراى يظل ساموراىًا، والفلاحون يظلون فلاحين لا يستطيعون تغيير فئتهم الاجتماعية.

مع ميجى ألغى ذلك النظام، فأصبحت القاعدة هى المساواة، وبناء عليه، لم تعد هناك قيود أو حدود للزواج أو للمهنة أو للقيام بدور اجتماعى، فقد صار الفرد يستطيع الحركة فى حرية.

ذلك هو الإصلاح الاجتماعى فى عصر ميجى، وهو الإصلاح الكبير الثانى، ثم إنه ظاهرة مشتركة مع الدولة القومية الحديثة فى أوروبا.

ثم تأتى الميزة الثالثة، وهى قضية اقتصادية، حيث صارت الحكومة المركزية هى التى تقوم بتحصيل الضرائب.

أى أنها قامت بإصلاح الضرائب على الأراضى. فقد كانت الإقطاعيات فى عصر إيدو هى التى تقوم فى العادة بجباية الضرائب كل مقاطعة على حدة. ثم تقوم بتقديم جزء منها إلى حكومة توكوجاوا المركزية. ولم تكن حكومة توكوجاوا تحصل الضرائب إلا فيما كانت تملكه مباشرة من الأراضى والإقطاعيات. أما فى ميجى، استطاعت الدولة بتعديل نظام الضرائب على الأراضى أن تغير من ذلك، فكان شيئًا عظيمًا للغاية.

وبتلك النقاط الثلاث، تغيرت اليابان إلى دولة اقتصادية موحدة، سياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا. ثم إن إدخال نظم جديدة الواحد تلو الآخر اقتناعًا بضرورة تغيير مثل تلك النظم كان كبيرًا جدًا كمعنى للإصلاح.

وكما يرى السيد/ دراكر، فاليابانيون فى عصر ميچى استوردوا التقنية والمنتجات آنذاك من أوروبا، وتوقفوا عند تقليدها، وركزوا طاقتهم المحدودة فى إصلاح المجتمع. كانت هناك منتجات مستوردة يمكنهم استخدامها كما هى، مثل القاطرة البخارية على سبيل المثال، إلا أنه فى المقابل، كانت هناك آلية الدولة الحديثة مثل الشركات، والتنظيمات وغيرها من آليات النظام الاجتماعى وغير ذلك، مما كان يستوجب أن يقوم به اليابانيون بأنفسهم.

يقول دراكر:

الناس فى ميچى استوردوا كميات كبيرة من التقنيات الحديثة مثل السكك الحديدية والتلغراف. ولم يحاولوا عامدين اختراعها بأنفسهم.

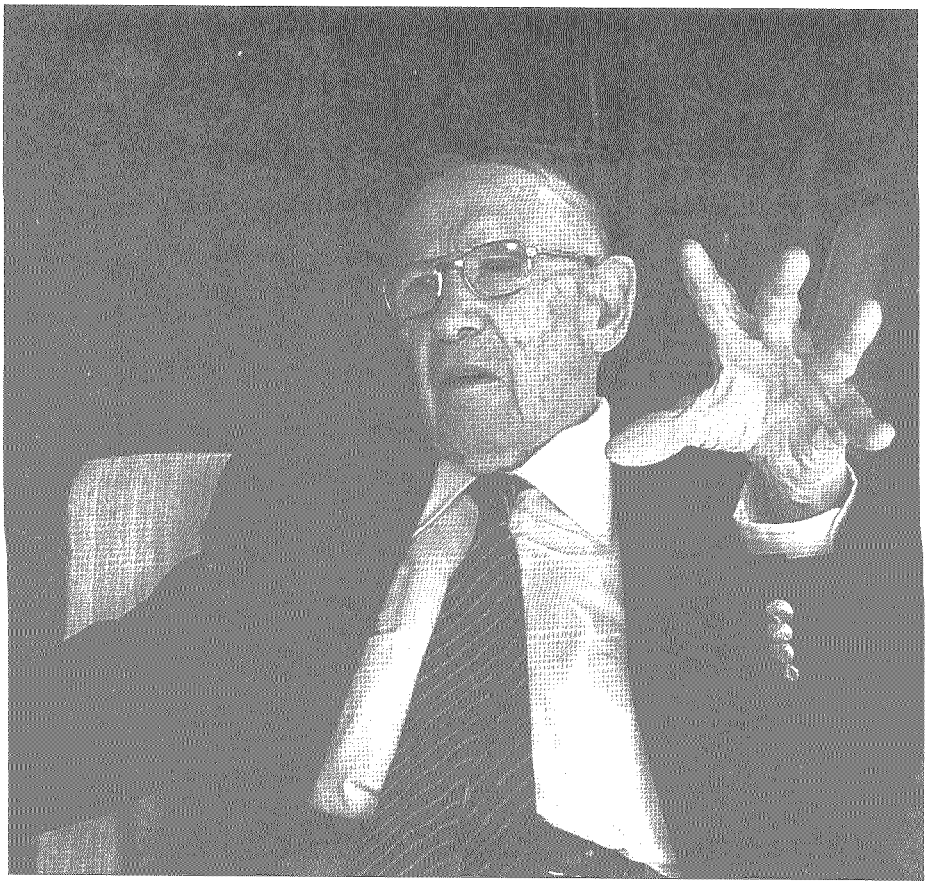
لم تكن التقنية فقط هى التى استوردوها.

فمثلا فكرة تكوين مجموعة من الشركات متمركزة حول أحد البنوك، قد نشأت فى أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر. ربما يظن بهذه الفكرة أنها فكرة يابانية خالصة، لكنها ليست كذلك، فقد استوردتها اليابان من أوروبا فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر.

فأسلوب إنشاء السكك الحديدية أو مجموعة شركات صناعية متمركزة حول مؤسسات مالية يمكننى أن أقول إنه ابتكر فى فرنسا فى الفترة من ١٨٠٠م إلى ١٨٢٠م. وعلى الرغم من أنه اختراع فرنسى، فقد كان نظامه يتفق مع التقاليد اليابانية، لهذا فقد قام اليابانيون فى عصر ميچى باستيراده.

هناك شىء آخر قام اليابانيون فى ميچى بنقله على وجه السرعة. إنه علم الطب.

لقد أثر علم الطب الغربى تأثيرًا كبيرًا على اليابان. فمع قيام ميچى تراجع الطب اليابانى التقليدى (الطب الشرقى) تراجعًا سريعًا.



السيد/ بيتر دراكر يقدر عبقرية اليابانيين تقديرًا عاليًا في إعادة صناعة ما يدخلونه من الخارج ليتناسب مع النظم اليابانية

وحتى بدايات القرن العشرين كان الجيش اليابانى قد أدخل إليه نظامًا ممتازًا للطب الغربى يفضل به أى جيش لأى دولة أخرى.

هذا حديث شخصى أذكره لكم. كان أحد أعمام والدى أستاذًا مشهورًا فى تدريس علوم الطب فى النمسا، وقد أرسل إلى اليابان فى الفترة التى تلت الحرب اليابانية الصينية أو اليابانية الروسية، ودرس نظام العلاج فى الجيش اليابانى. إلى ذلك الحد كان نظام العلاج فى الجيش اليابانى متميزًا.

يقولون إن عدد الجنود الجرحى فى الحرب اليابانية الروسية الذين تلقوا العلاج وأنقذوا يفوق بكثير أمثالهم فى الجيش الروسى إذا ما قارنا بينهما. لقد كان الجيش اليابانى آنذاك يملك أفضل نظام علاجى.

هذا النظام العلاجى استوردته اليابان من الغرب وقامت بإضافة تعديلات عليه. ويمكننى أن أقول إن هذا النظام فى الأساس وضعه نابليون فى فرنسا. وأدخل اليابانيون مثل هذا النظام الغربى واستخدموه ليضعوا لأنفسهم نظامًا يابانيًا.

لقد استورد اليابانيون فى ميجى أيضًا نظام الجيش من بروسيا ومن روسيا.

إنكم أيها اليابانيون عباقرة حقًا فى أنكم تدخلون إلى بلادكم ما ترونه لازمًا، وتقومون بإعادة صناعته ليناسب النظام اليابانى.

هذا الأسلوب فى عصر ميجى لم يكن جديدًا على اليابانيين. فلقد قام اليابانيون فى الماضى بأعمال مشابهة عدة مرات. فكما ذكرت من قبل، قاموا بمثل ذلك فى أوائل عصر توكوجاوا، ونجحوا فى تحقيق ذلك بما يدعو للدهشة فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

ترتيب الأولويات، والتفرقة بوضوح بين ما يستطاع وما لا يستطاع، والبدء بما هو أكثر أهمية.

يقول كاتو إن هذا السلوك للناس فى ميجى وخاصة القادة منهم، ظهر أيضًا فى الجانب الدبلوماسى.

يقول كاتو:

مع إصلاح ميچى، قلنا إن الذين صاروا قادة لليابان خرجوا من الطبقة الدنيا للساموراى. وكانوا فى موقع القلب من حكومة ميچى.

ما يجب أن نتعلمه منهم أنهم كانوا على وعى صحيح للغاية بالظروف الدولية، وكانوا يفرقون تفرقة واضحة بين ما يستطيعونه وما لا يستطيعونه، وتلك قضية مختلفة عن الفرق بين ما يريدون عمله وما لا يريدون. ولم يخلطوا بين الأمرين. فهم لم يقوموا مثلًا باتخاذ قرار فيما إذا كانوا سيقومون بالحرب أو ما إذا كانوا سيعقدون معاهدة سلام بناء على تفكير متفائل، أو تحليل نصف تخيلى. إنما كانوا يفهمون الأوضاع فهمًا صحيحًا للغاية.

فى العام السابع و العشرين من ميچى (١٨٩٤م) اصطدمت اليابان بالواقع القاسى للمجتمع العالمى.

فى هذا العام قام صراع بين اليابان والصين حول الأوضاع الداخلية فى شبه الجزيرة الكورية. ونتيجة لذلك قامت الحرب اليابانية الصينية التى انتصرت فيها اليابان.

فى العام التالى أى العام الثامن والعشرين من ميچى، عقد مؤتمر للسلام فى «شيمونوسيكى»، والذى انتهى بمعاهدة شيمونوسيكى، والتى حصلت اليابان بمقتضاها على تعويض، وضمت إليها تايوان، وشبه جزيرة «ريوتو».

إلا أنه عقب ذلك مباشرة اجتمعت كل من روسيا وألمانيا وفرنسا وتدخلت فى هذه المعاهدة، وطالبت اليابان بإعادة شبه جزيرة ريوتو.

هددت الدول الثلاث باستخدام القوة العسكرية مطالبة اليابان بالقبول.

أعادت اليابان شبه جزيرة ريوتو مضطرة.

بعد ذلك قامت روسيا بوضع يدها على جزء من شبه جزيرة ريوتو التى أرجعتها اليابان، وأنشأت فيها ميناءً عسكريًا وبنت فيها تحصينات.

يقول كاتو:

تدخل الدول الثلاث شىء غير معقول على الإطلاق.

دول لا علاقة لها بالحرب من قريب أو من بعيد، تقحم نفسها فتتدخل فى طريقة إنهاء الحرب، وتتدخل فى أمور التعويضات وغيرها من القضايا، وفوق ذلك تفرض إرادتها إجباريًا تحت التهديد بالقوة العسكرية.

على أية حال قبلت اليابان تلك الطلبات.

فقد كان الفارق فى القوى العسكرية آنذاك كبيرًا للغاية بين الدول الثلاث وبين اليابان التى كانت قد خرجت لتوها من الحرب اليابانية الصينية.

لذلك، فمهما كان التدخل مغضبًا، لم تقاوم اليابان وهى لا تستطيع المقاومة، وهذا فى رأيى كان مسلكًا واقعيًا وعمليًا.

وعلى النقيض من ذلك، فالذين قاموا منذ بداية الثلاثينيات من القرن الماضى بحرب مع الصين استمرت ١٥ عامًا، لم يكونوا يفقهون شيئًا. فبالمقارنة برجال ميجى، كانوا بعيدين عن الواقع؛ بل كانوا واهمين. لذلك فقد فشلوا فشلًا ذريعًا. وقد استمر ذلك الخطأ يتكرر ويتكرر إلى أن ذهب بهم إلى خليج اللؤلؤ (بيرل هاربر)[١].

لو كان قادة ميجى القدامى مكانهم، أعتقد أنهم ما كانوا ليقوموا بمهاجمة خليج اللؤلؤ.

نعم، لا شك فى أن أمريكا كانت تضغط عليهم، ربما كان الوقوع تحت الضغط بالنسبة لهم شيئًا مزعجًا ومغضبًا.

لكن الأمر ليس مسألة رضا أوغضب، كان بإمكانهم تقدير ما سوف يحدث إن هم قاموا بالحرب.

إذا هاجموا بيرل هاربر، ستهاجمهم أمريكا. كان المفترض أنهم يعلمون ذلك جيدًا.

حتى بعد أن ضربوا خليج اللؤلؤ، لم يستطع الجيش اليابانى إنزال جندى واحد على أرض هاواى.

---

(١) خليج اللؤلؤ: أو بيرل هاربر، هو اسم الخليج الذى كانت به القاعدة البحرية الأمريكية على الشاطئ الجنوبى لجزيرة «أواف» فى هاواى، والتى هاجمتها البحرية اليابانية يوم ٨ ديسمبر عام ١٩٤١، وبذلك دخلت اليابان الحرب العالمية الثانية فعليًا؛ والتى يطلق عليها أيضًا «حرب الباسيفيك». (المترجم).

فهم لم يستطيعوا الإبرار على أرض أمريكية، وكان التفكير فى أن أمريكا قد تستسلم دون أن تهبط قواتهم على أرضها تفكيرًا أحمقا.

حتى وإن أغرقوا سفنًا لأمريكا، فستصنع غيرها.

فهى تصنع طائرات ودبابات وسفنًا حربية أكثر من اليابان.

فالمشكلة هى: لماذا بدأوا مثل تلك الحرب التخيلية؟ لذلك فهناك الكثير الذى يجب أن نتعلمه من الواقعيين فى عصر ميچى.

الناس فى عصر ميچى لا يقدمون على فعل مثل تلك الأمور المستحيلة. ثم إنهم كانوا سيتحملون ويصبرون.

هل استعادت الحكومة اليابانية بعد الحرب العالمية الثانية ما كان لميچى من واقعية؟ هذا أمر مشكوك فيه.

والسبب فى أنه أمر مشكوك فيه هو أنها قد أضاعت خبراتها الدبلوماسية مع أوائل ثلاثينيات القرن الماضى. فمنذ أن خرجت من عصبة الأمم، أخذت تفقد خبرتها فى المفاوضات الدبلوماسية المتقنة. ثم حين قامت الحرب، صارت وزارة الخارجية فى النهاية كأنها غير موجودة.

وعندما هزمت، احتلت هذه المرة، وصار جيش الاحتلال من قوات الحلفاء هو المتحكم فى العلاقات الخارجية، ولم يكن لليابان حقوق دبلوماسية. لم يكن لها حق إصدار جوازات السفر، ولا حق إقامة سفارات.

عدم الوجود الدبلوماسى، بدأ منذ منتصف ثلاثينيات القرن الماضى تقريبًا، واستمر حتى نهاية فترة الاحتلال، ولهذه الظروف لم تكن هناك حتى وقت قريب دبلوماسية بمعنى الكلمة. فقد عشنا بدونها بشكل أو بآخر.

فى تلك الأثناء صار عصر إيدو بعيدًا. لقد فقد ذلك النوع من الحس الدبلوماسى الذى تربى من خلال المفاوضات التى كانت تتم بين المقاطعة والأخرى فى عصر إيدو.

كانت دبلوماسية حكومة ميچى ناجحة لأنها كانت تملك ذلك الحس فى بداية

ميجى. إلا أنه بعد ذلك، كانت السياسة الدبلوماسية للحكومات التى تلت ميجى قد افتقدت ذلك الحس لأنها قد استنفدت ميراث ميجى.

فى العام الثامن و الثلاثين من ميجى (١٩٠٥ م) هزمت اليابان روسيا فى الحرب اليابانية الروسية. لقد حققت فى المعركة البحرية فى بحر اليابان انتصارًا كبيرًا، نادرًا أن نراه فى التاريخ.

كان ذلك بعد عشر سنوات من تدخل الدول الثلاث، ونتيجة لتكريس الجهود فى زيادة الاستعدادات الحربية من أجل مواجهة الدول الغربية بالقوة العسكرية.

يحدثنا السيد/ كاتو عن مغزى الحرب اليابانية الروسية.

يقول كاتو:

بعد الدخول فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ظهرت اليابان كأول دولة فى آسيا يتحقق فيها التصنيع بسرعة مذهلة، وكذلك إعداد الجيش الحديث الذى كان وراءه ذلك التصنيع.

وكانت الحرب اليابانية الروسية هى التظاهرة الدرامية نتيجة لذلك.

إذا أردنا أن نفرق بين الحرب كحرب شاملة، والقتال الإقليمى المحدود، فالحرب اليابانية الروسية التى يقولون عنها إنها انتهت بانتصار كبير، إلا أنها كحرب شاملة، لم ننهزم فيها، لكن وصفها بأنها كانت انتصارًا كبيرًا أعتقد أنه وصف مبالغ فيه. فالحقيقة أن الحكومة اليابانية آنذاك كانت ترغب فى الإسراع بالصلح.

لكن من زاوية أنها معركة إقليمية محدودة، وخاصة المعركة البحرية فى بحر اليابان، كانت انتصارًا كبيرًا فارقًا فى تاريخ المعارك البحرية فى العالم. فقد التقى أسطولان فوق بحر ليست فيه أى عوائق دارت بينهما حرب مدفعية، انتصر أحدهما انتصارًا منفردًا، ودمر أحدهما تمامًا. لقد كان انتصارًا لا مرية فيه، اتضح فيه جليًا النصر والهزيمة.

أولًا أعتقد أنه لا يوجد مثيل لما حدث من ذلك الانتصار الذى تحقق فى مثل هذه المعركة الكبيرة بين أسطولين حديثين.

ثانيًا، من الأمور التى لم تحدث منذ بداية العصر الحديث، أن جيش دولة أوروبية كبيرة، ينهزم فى معركة مع جيش دولة أخرى من خارج أوروبا، بل وأن يدمر عن آخره.

أى أنه حسب الزمان والمكان، ظهرت خارج أوروبا قوة عسكرية تستطيع مقاومة الأوروبيين بالقدر الكافى. وهذا له مغزاه فى تاريخ العالم.

كانت الحرب اليابانية الروسية فى الفترة من عام ١٩٠٤ م إلى ١٩٠٥م، وبذلك يمكننا أن نقول إن القرن العشرين بدأ بالحرب اليابانية الروسية.

مع بداية القرن العشرين انهزمت أوروبا عسكريًا على الأقل، وهى التى كانت فى مكانة قاهرة لا تسمح لغيرها بالقبول أو بالرفض.

فإذا اعتقدنا أن ذلك يرمز لبداية القرن العشرين، فمغزى ذلك كبير للغاية.

وكما نعلم، فمع القرن العشرين أخذت مكانة أوروبا تتضاءل، وبدأ تحرير المستعمرات يحدث فى كل مكان.

لقد أحدث انتصار اليابان الدولة الشرقية الصغيرة على روسيا الدولة الأوروبية العظمى هزة فى العالم.

لقد استطاعت اليابان أن تقتحم الدول الكبرى، واستطاعت أن تحقق فى نهاية ميچى أمنيتها الغالية وهى تعديل المعاهدات الظالمة. واستطاعت اليابان أن تحقق هدفها الأول فى أن تحافظ على استقلالها وأن تكون كيانًا على قدم المساواة مع الدول الأوربية وأمريكا.

إلا أن المشكلة قد ظهرت بالفعل بعد أن حققت اليابان هدفها. فلم تستطع أن تصنع لنفسها هدفًا جديدًا، فلم تعد تستطيع إلا أن تتبع المثال السابق.

كيف حدث تغيير فى طبيعة يابان ميچى؟

هذا ما سنحاول التفكير فيه فى الفصل التالى.

الفصل السابع
الحرب اليابانية الروسية
وتغير طبيعة يابان ميجى

كتب السيد/ دراكر فى كتابه «الإدارة» ما يلى:

لقد تقيدت اليابان فى النهاية بالنجاح الذى أحرزته فى عصر ميجى، لقد اختار اليابانيون فى ميجى أولوياتهم على مستوى عال، وكانوا على إدراك كاف بأنهم يؤجلون أهدافا آخرى مهمة أو يجعلونها فى مرتبة ثانية.

إلا أن خلفاءهم لم يفكروا فى ترتيب أولويات أخرى لها قدر عال من الأهمية. وكانت النتيجة أن القوة العسكرية التى لم تكن بالنسبة لليابانيين فى عصر ميجى سوى وسيلة لتحقيق هدفهم وهو المحافظة على استقلال اليابان، صارت فى حد ذاتها هدفًا، ما لبث أن أتى لليابان بالدمار، ودمروا تمامًا معظم ما حققه جيل ميجى من إنجازات عظيمة. («الإدارة» الجزء الأول).

ويرى السيد/ كاتو أيضًا، أنه كانت هناك نقطة تحول هامة لليابان بعد الحرب اليابانية الروسية.

يقول كاتو:

أعتقد أن الحديث عما بعد الحرب اليابانية الروسية أمر هام للغاية. ذلك أن الحرب اليابانية الروسية كانت إحدى المراحل الفاصلة بالنسبة ليابان ميجى.

يمكننى أن أفكر ـ وهذا أحد الافتراضات ـ أنه حتى قبل الحرب اليابانية الروسية، كان الأمر كما يلى:

بدأت انطلاقة اليابان بمبدأ بناء دولة غنية وجيش قوى، لكنها عندما انطلقت كانت دولة صغيرة وضعيفة للغاية، وتغنت بشعار الدولة الغنية والجيش القوى فى ظل ظروف لا تدرى متى تقع فيها تحت الاحتلال.

والجيش القوى فى نقطة البداية كان هدفه دفاعيًا بالدرجة الأولى. وكان هو قوة دفاعها المتواضعة لأنها ترفض أن تستعمر.

كانت هذه الفكرة مستمرة حتى الحرب اليابانية الروسية. إلا أن الحرب كانت نقطة فاصلة، فما إن انتصرت اليابان فى الحرب، حتى صارت بعدها دولة توسعية.

كانت الحرب العالمية الأولى فرصة جيدة، فأرسلت حملة إلى «سانتو» (شاندونج) ثم تلتها الحملة إلى سيبريا. أصبحت توسعية، لم تعد دفاعية، كانت تتحول إلى هجومية. إنه توسع استعمارى.

كان أمرا انقلابيًا. وكانت نتيجته سيئة للغاية.

ثانيًا، وهو أمر متعلق بما سبق، كما قلت آنفًا إنه حتى الحرب اليابانية الروسية كان قادة اليابان يفهمون الواقع فى هدوء بارد، كانوا واقعيين، لكن بعد الحرب، وأثناء ما كان الصخب بالنصر والانتشاء بالانتصار الكبير، كان البعض منهم لا يزال يدرك حقيقة الأمور، لكن الوهم الكبير الخادع كان قد ولد بالفعل، وبدأت الحكايات والأساطير عن البحرية اليابانية التى لا تقهر، والقوات البرية التى لا يقف أمامها عدو.

كانت هزيمة البحرية اليابانية لقوات بحرية تملكها دولة أوروبية كبرى، حادثة تاريخية. لكنه كان الأسطول الروسى، وحسب السياق الأوروبى، فإن أقوى وأكبر بحرية فى العالم ليست البحرية الروسية.

ثم إن القوات البرية اليابانية وإن قلنا إنها هزمت الجيش الروسى، فلم يكن الجيش الروسى فى أواخر عصر روسيا القيصرية بالضرورة فى أوج قوته.

كانت القوة الحربية لألمانيا أو فرنسا آنذاك كبيرة للغاية، وكانت هناك أيضًا أمريكا بعيدًا على الجانب الآخر. لهذا، فالاعتقاد بأن الجيش اليابانى لا يقهر، لم يكن إلا نوعًا من الوهم. لكن الوهم الخادع بالقوات البرية والبحرية اليابانية التى لا تقهر كان يكبر يومًا بعد يوم.

فى أثناء الحرب العالمية الأولى، كانت الدول الأوروبية الكبرى جميعها منشغلة فى ميادين الحروب داخل أوروبا. على جانب الآخر، كانت اليابان تربح الأموال فقط ولم يلحق بها ضرر يذكر.

ألمانيا قد أرسلت بجنودها بعيدًا وكانت تحتل مقاطعة «سانتو» و«تشينتاو»؛ وهاجمتها اليابان هناك، كان مجرد إبعاد لقوات قليلة هناك. واختطفت منهم فقط تلك الأماكن، لم يكن بالأمر الصعب، ثم إنها لم ترتدع من إخفاقها فى إرسال قواتها إلى سيبريا، بل اندفعت فى مغامرة لغزو الصين، ولم يكن لديها رادع ولذلك تضاءلت كثيرًا فرص مراجعة الذات.

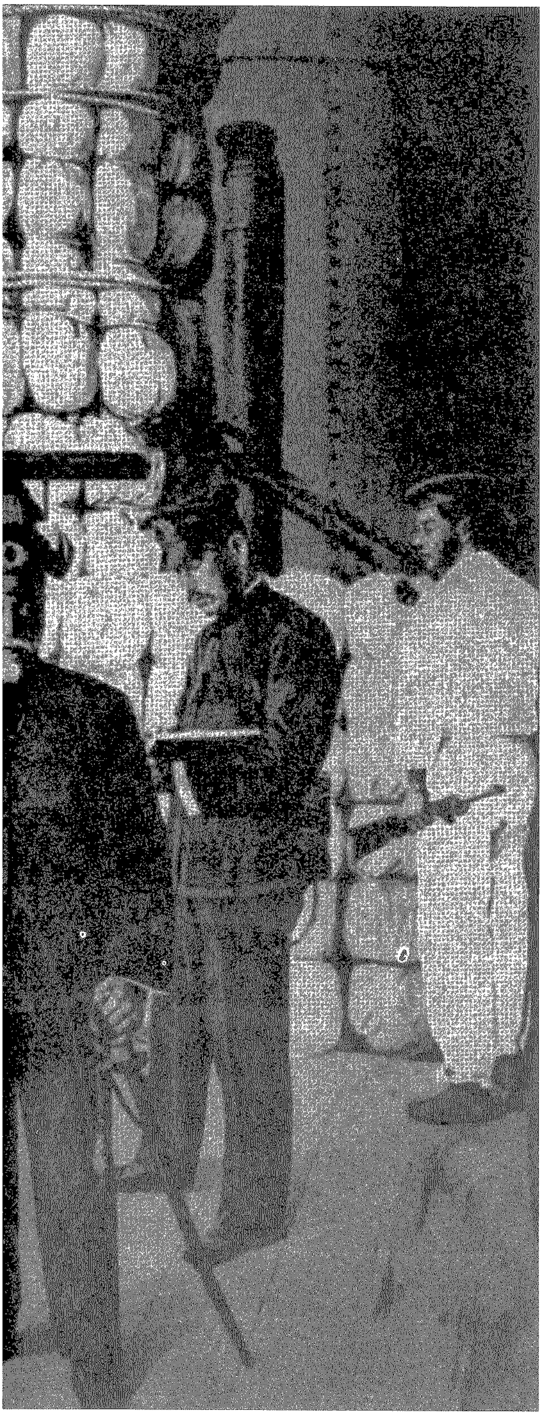
ولذلك فقد فشلت فى حملة سيبريا، ولاقت الجيش الروسى فى «نومونهان» وهزمت هزيمة كبيرة، وعلى الرغم من كل ذلك لم يختف الوهم القائل بأن القوات البرية لا تقهر، ولم يستطيعوا أن يروا الحقيقة بالتعقل الهادئ.

أحد ضباط البحرية اليابانية الكبار، كان على علاقة بمركز قيادة الأسطول، ويعرف جيدًا عن السفن، كان يقول: قبيل معركة المحيط الهادئ، فإن البحرية اليابانية يمكنها أن تقاتل أمريكا، أو تحارب إنجلترا كنظرية عسكرية بحتة. لكن يستحيل عليها حسابيًا أن تقاتل البحرية البريطانية مع البحرية الأمريكية مجتمعة، وإنه يعترض على القيام بمثل تلك المغامرة.

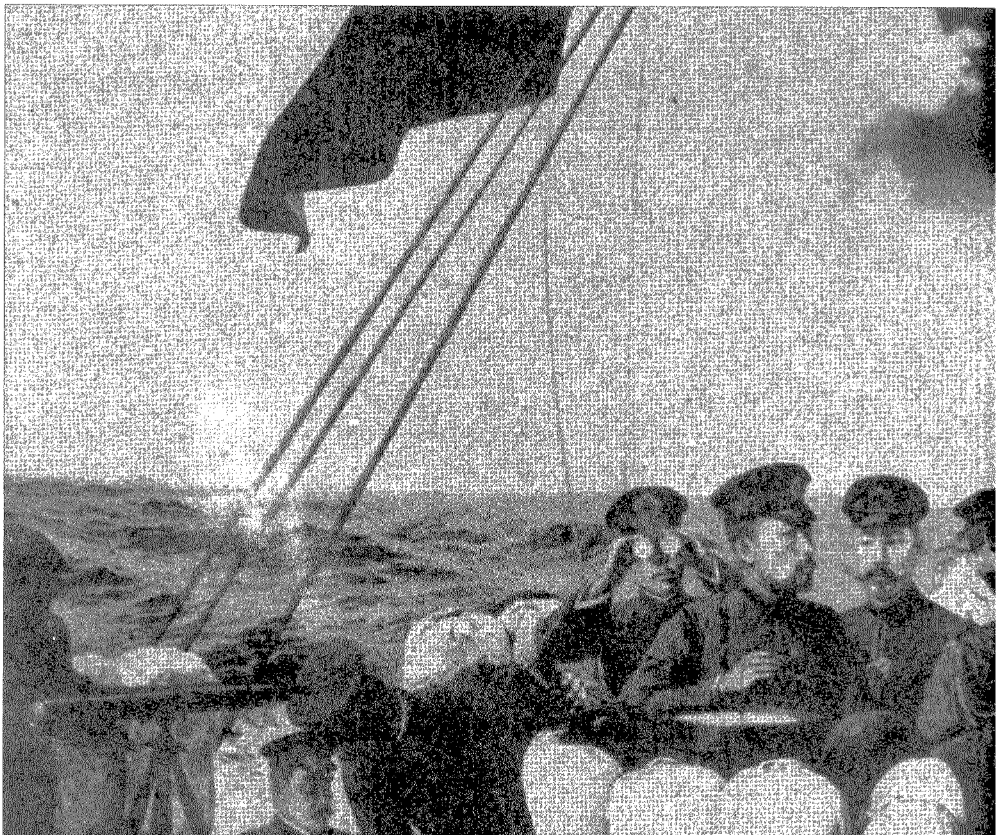
عندما سمعت ذلك الحديث كنت لا أزال طالبًا، لكننى فهمت أنه كان يعتقد بأن هناك احتمالًا كبيرًا للهزيمة بالهجوم على خليج اللؤلؤ، وأنه كان مغامرة خطرة للغاية.

كان هناك فى الجانب الذى يقوم بتموين السفن فى القوات البحرية، من اكتشف أنه بجانب ذلك إذا أخذنا فى الاعتبار القدرة على بناء السفن، فالحرب لن تكون متكافئة بين اليابان ضد إنجلترا وأمريكا مجتمعتين.

لكن حتى هؤلاء الناس على الرغم من أنهم كانوا يقولون إن الوضع ميئوس منه، لم يصلوا إلى الحد الذى يقومون فيه بحشد زملائهم وتحريكهم لإيقاف الحرب. كانوا فى الغالب يدركون ما هم مقدمون عليه، لكنهم لم يقدروا على القيام بذلك.



«توجو هيهاتشيرو» (١٨٤٧ ـ ١٩٣٤): فيلدمارشال، قائد القوات البحرية فى الحرب اليابانية الروسية، استطاع تدمير أسطول البلطيق الروسى فى معركة بحر اليابان، وصار بطلًا قوميًا. أقيمت له جنازة قومية عند وفاته (المترجم)، ويرى فى هذه اللوحة وهو يتولى القيادة على بارجة العلم «ميكاسا» فى المعركة البحرية فى بحر اليابان أثناء الحرب اليابانية الروسية (الثالث من اليمين، صورة من مجموعة محفوظات ميكاسا).



الوهم الكبير المخادع يكبر أكثر وأكثر.

كان يزداد تضخمًا لأنه كانت هناك خلفية أن حرب اليابان حرب مقدسة. إنها حرب مقدسة، وحرب أيضًا للدفاع عن النفس، الحروب فى أى بلد تكون عادة مقدسة. الذين قالوا: «هذه حرب قذرة»، كانوا الفرنسيين فقط.

فى أثناء ذلك، صار القتال فى حد ذاته مقدسًا، وصار من يعترض فى الاجتماعات ويتحدث عن الوسائل الفعلية فى الحرب ويطرح سؤالًا كأن يقول: «هل نستطيع القيام بهذه الحرب؟»، يقال له: «إنه يعوق الحرب المقدسة» أو: «إنه يعارض الحرب المقدسة». ويصبح من يسأل عن الوسيلة الفعلية، كأنه يشكك فى الأهداف ذاتها. ويذهب بهم الأمر فى النهاية إلى التشكك فى ولائه، ويتم التفكير فى إقصائه أو عقابه بالفعل، لكن ما كان يحدث، أنه ما إن يبدأ الاجتماع يصبح من الأفضل تأييد الوهم الكبير. فإذا قال الجميع: «إن اليابان لا يقف أمامها عدو»، يكون من الأسهل لك أن تقول: «نعم، هذا صحيح»، بدلًا من أن تقول: «لا، هذا أمر يدعو إلى الشك قليلًا، إنها أعلى من الدرجة الثانية قليلًا».

سوف تسوء سمعتك إن عارضت رأى الأغلبية. وحتى تحسن من سمعتك من الأفضل والضرورى أن تؤيد رأى الأغلبية.

فى فترة الاقتصاد الفقاعى[1] أيضًا، لم أكن معهم ولكن، ربما اجتمع الجميع وأخذوا يقولون: «الحالة الاقتصادية فى اليابان رائعة»، أو «إن القوة الاقتصادية اليابانية مدهشة»، أو «سوف تهب رياح شرقية على المحيط الهادئ فى النهاية».

«إن اللغة العالمية القادمة، لن تكون الإنجليزية، بل ستكون اليابانية». قالها أستاذ عظيم، آنذاك كان الذين يتعلمون اليابانية عدة عشرات من الآلاف. وكانت أعدادهم فى ازدياد. وقد بدأ العدد من الصفر. لم يكن عدد الذين يتعلمون الإنجليزية فى باريس يزداد بشكل مأساوى، ذلك أن أعداد هؤلاء كانت قد بلغت بالفعل عدة مئات من

---

(١) فترة الاقتصاد الفقاعى: أطلق الاقتصاديون هذه التسمية على فترة الثمانينيات من القرن العشرين فى اليابان، حين تضخم الاقتصاد اليابان تضخمًا كبيرًا، وصارت القيمة الشرائية أضعاف القيمة الحقيقية للأصول. وعندما كانت هناك ضرورة لبيع الأصول، انهارت قيمتها فى البورصات العالمية، وانتهت تلك الظاهرة كما تختفى فقاعات الصابون (المترجم).

الآلاف. لكننى إن قلت لهم ذلك فلن يكون له صدى طيب كمن يسكب الماء على النار.

مثل ذلك المزاج النفسى، يدفع بالوهم الكبير إلى الأمام بمجرد أن يبدأ.

هناك أشياء أخرى، مثل: أنه من الأفضل عندما تتحدث بين الجميع أن تؤيد رأى الأغلبية، وأنه إذا قدمت إلى رئيسك تقريرًا يعجبه سيكون من السهل أن تترقى فى وظيفتك. وسيعجب رئيسك أن تقول له: «إن اليابان لا تقهر». ولن يعجبه أن تقول: إن اليابان يمكن أن تنهزم إن هى دخلت الحرب. قد يتناسب ذلك الموقف مع بعض الأمور. أما فى حالة الدخول فى الحرب، فالأمر مسألة حياة أو موت.

ألا يوجد كثير من مثل هذه الأمور؟ يرغب الكثيرون فى تقديم تقارير يتقربون بها إلى رؤسائهم ويحظون عن طريقها برضاهم. وهذا فى العادة يسرع بهم إلى الوهم الكبير. لذلك فالوهم الكبير يجد له مؤيدين.

نقطة التحول هى الحرب اليابانية الروسية.

بعد الحرب اليابانية الروسية وفى نهاية ثلاثينيات ميجى، كان حى جينزا فى طوكيو يضاهى الأحياء الأوروبية فى تنظيم مبانيه بل ويفوقها. وبلغ فيه الازدحام والصخب كل مبلغ. كانت اليابان تريد أن تحسب كواحدة من الدول الكبرى. لكن غالبية الشعب كانت فقيرة، ومع زيادة الفجوة بين الفقر والغنى، بدأ الاضطراب يدب فى نفوس الناس.

كتب شيبوساوا عن ذلك لاحقًا، يقول:

ألا يوجد كثير من رجال الأعمال اليوم ممن صاروا يهتمون بمكاسبهم فى المقام الأول، ولا يلتفتون لمصلحة الدولة أو المجتمع؟ ما يرونه فقط هو فائدتهم الشخصية لا المجتمع ولا الدولة. لكن بالمقارنة برجال الأعمال فى السنوات الأولى من ميجى، كم سيكون الفارق بينهم فى الأفكار والأفعال؟

فى اعتقادى أنه فى إدارة الأعمال، إذا لم تكن الدولة أو المجتمع نصب أعين المدير، فلن تستطيع تلك الأعمال أن تحافظ على الحد الأدنى اللازم لاستمرارية

الوجود. إذا اقتصر الاهتمام على الفائدة السريعة البادية للعين، وخرج عن نطاق الرؤية لن تتقدم الشركة وتتطور مع الدولة والمجتمع، ولا يجب أن نتوقع أن يكون أساس الشركة الذى قامت عليه قويًا، ولا يرجى لها أن تعيش طويلًا. (من «مائة حديث لسيئن» لشيبوساوا إيئيتشى).

تقدمت الثقافة اليابانية الأصلية بعد قيام ميجى وإرجاع الحكم للامبراطور، فقد ظهرت تلك الجزيرة المنعزلة فى الشرق الأقصى أخيرًا على وجه الأرض وصارت اليابان. لكنها فى الواقع ما زالت مجرد كلمة مكتوبة بالمداد الأسود على سطح الكرة الأرضية ليس إلا. لكن إذا أصبحت من الدول الخمس الكبرى، أو صارت بعد مؤتمر واشنطون دولة تنهض بمسئولية العالم مع إنجلترا وأمريكا، وازدادت سلطة الدولة مع نجاحها فى إدارة شئون البلاد سيتغير الأمر. لكن لكل أمر من الأمور وجهين. فلا مفر من أن يشوب الخير بعض الضرر. فى الخمسين عامًا التى تلت إصلاح ميجى، قطعت البلاد شوطًا طويلًا فى مجال التقدم والذى صاحبه بعض الصعوبات، فعندما يسرع الإنسان فقط فى سبيل الرغبة فى المعرفة، ويفقد مبادئ أخلاقية، مثل الوفاء ورد الجميل، والشجاعة، والإقدام على فعل الخير، أو احترام الكبير والعطف على الصغير، أى أن طريق الأخلاقيات كالوفاء، والثقة، وبر الوالدين، والحنو على الأصغر، كان قد تركه الجميع ومضوا. وكان نتيجة لذلك ازدياد تيار الاستخفاف والاستهانة والسطحية والضحالة. ووصل الحال إلى أقصاه حين يعم تيار الأنانية، حين يعتقد البعض أنه طالما كان هو فى حالة طيبة، فلا يهم ما يحدث للآخرين، لم يأخذوا محاسن الغرب فحسب، بل أخذوا منه مساوئه واحتذوا بها وزادوا عليها، إن هذا هو واقع بلادنا اليوم. (من «مجموعة تعاليم الأستاذ سيئن»).

الفصل الثامن
حتى نتجاوز ميچى

الآن وبعد مائة عام من الحرب اليابانية الروسية، تبدو اليابان فى وضع مشابه لما كانت عليه آنذاك. فهى محملة بالمشكلات مثل الانهيار الاقتصادى، واتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء. بل إنها لا تستطيع أن تحدد لنفسها هدفًا جديدًا، بل وتشترك معها فى أنها لا تستطيع أن ترتب أولوياتها.

يقول السيد/ دراكر الذى ظل يتأمل نجاح اليابان فى ميچى ثم فى فترة النمو الاقتصادى السريع فى عصر شووا، إن مستقبل اليابان يتوقف على مدى قدرتها على التخلص من القيم القديمة وتحقيق تغيير اجتماعى جرىء كما فعلت فى الماضى، ثم لكى يحدث هذا، أولًا لابد أن تدرك أنها الآن فى القلب من تغيرات سريعة تحدث على مستوى الكرة الأرضية ككل، وأنه من الضرورى أن تحلل الأوضاع الراهنة.

يقول دراكر:

لابد أن نتغير جميعًا. اليابان والدول المتقدمة الأخرى لابد لها من التغير.

إن حفيدى يتقن استخدام الكمبيوتر أفضل من أى واحد فى الأسرة. إنه يعتبر خبيرًا فى الكمبيوتر. فى جيل أحفادنا أو أبنائهم يستخدمون الكمبيوتر من الصف الرابع الابتدائى فى عمل واجبات الحساب المنزلية. لكننا نحن ما زلنا لا نستطيع مجاراة ذلك العصر.

هذه الظاهرة حدثت أيضًا فى الماضى البعيد. فى الوقت الذى بدأ فيه التليفون ينتشر، كان جيل والدىَّ يخاف من التليفون، وسيلة الاتصال الجديدة آنذاك. فى البداية كانت إدارة التليفون مهمة يوكل بها إلى الأطفال.

كان ذلك فى ثمانينيات القرن التاسع عشر. كان أبى فى ذلك الوقت فى الثانية عشر أو الثالثة عشر، وكان يكتسب مصروفه من ذهابه إلى بيوت عديدة وإدارته لتليفوناتهم. كان بين هؤلاء الناس محامون، ولكن حتى هؤلاء الذين حصلوا على تعليم عال كانوا يخشون التليفون.

كان من المعتاد فى ذلك الوقت استئجار خدم فى المنازل. لكن معظم هؤلاء الخدم كانوا فلاحين قد قدموا من الريف، وكان معظمهم يخافون من التليفون. فكانوا إذا دق جرس التليفون يصرخون وينطلقون هاربين.

عند استئجار الخدم، كان يتم تقديمهم عن طريق وسطاء متخصصين، فإذا أردنا اختيار من يستطيع الرد على التليفون كان علينا أن ندفع ٢٥ بالمائة زيادة على الأجر المعتاد.

حتى فى ذلك العصر، لم يكن لدى الأولاد أى خوف من التليفون، تمامًا مثل حفيدى الذى لا يخشى الكمبيوتر.

نحن الآن فى قلب هذا التغيير.

كثير من المشكلات التى تعانى منها الدول المتقدمة الآن، بدأت فيها منذ القرن التاسع عشر، ويمكن أن نقول ذلك أيضًا عن اليابان.

يا ترى ما المشكلات التى تركها ميجى لليابانيين المعاصرين؟ إنها تلك النظريات الاجتماعية والاقتصادية، والفلسفية التى شكلت فى عصر ميجى، وما زالت باقية إلى الآن، وهى نتاج لنظرة عالم قديم. ونظرة العالم القديم هذه هى النظرة القائلة بأن هناك جانبًا فيه الحكومة، وعلى الجانب الآخر ذلك الفرد الذى يبذل روحه فى العمل.

من ناحية أخرى، كان مجتمع المنظمات الذى تحتاج فيه كل الأعمال الهامة إلى الإدارة بالضرورة، قد بدأ يتشكل فى الفترة من نهاية ميجى إلى أوائل شووا، واكتمل تكوينه منذ ثلاثين أو أربعين عامًا. نحن نواجه تلك الحقيقة، وعلى الرغم من أننا نعيش بالفعل فى مثل ذلك المجتمع، إلا أننا ما زلنا لا نملك النظريات الاقتصادية ولا الاجتماعية ولا الفلسفة التى تتناسب معه.

لقد أشرت إلى وجود مثل ذلك المجتمع منذ أربعين عامًا. وكتبت كثيرًا من المقالات والأبحاث.

يقولون إننى الذى اكتشفت مفهوم الإدارة. إننى لم أخترعه، ولا يزيد الأمر على أننى اكتشفت، إلا أن الجميع اليوم يدركون أهمية الإدارة.

فى المجتمع المعاصر الذى تعيش فيه منظمات متعددة، صارت القدرة على ممارسة الإدارة بمهارة من العناصر الهامة الحاسمة. وذلك ما يسمونه بالمجتمع الجديد، ومع ذلك فإن النظريات الأساسية التى لدينا، كلها فى حالتها التى لا تتناسب إلا والمجتمعات القديمة.

عندما نرتب قضايا اليابان المعاصرة التى يشير إليها السيد/ دراكر، نقسمها إلى الأربع قضايا التالية.

(١) قلة السكان (Shrinking Population).

(٢) زيادة عدد كبار السن (Aging Workforce).

(٣) المنافسة العالمية الجديدة (New Competition).

(٤) التعليم (Education).

ونحاول فيما يلى أن نرى فحوى ما يشير إليه السيد/ دراكر عن كل قضية من تلك القضايا الأربع.

أولًا، ماذا عن قلة السكان؟ يتحدث السيد/ دراكر عن وسائله لحل هذه المشكلة من خلال ربطها بالموافقة على دخول المهاجرين.

يقول دراكر:

قلة السكان وانخفاض نسبة المواليد مشكلات تعانى منها كل الدول المتقدمة. فى هذه النقطة لا يوجد أى فرق بين اليابان وألمانيا وأمريكا.

الفارق بينها فى طريقة معالجة تلك المشكلة.

تحاول الدول الغربية فى أوروبا وأمريكا، الخروج من هذه المشكلة عن طريق المهاجرين.

فعلى سبيل المثال توجد أعداد كبيرة من الناس من أصول تتحدث الإسبانية فى

أمريكا. وفى ألمانيا توجد أعداد كبيرة من الأتراك. وفى إنجلترا توجد أعداد كبيرة ممن جاءوا من جزر الهند الغربية.

والمشكلة الحالية فى الدول الغربية، هى: كيف يدمجون هؤلاء الناس فى مجتمعاتهم؟

على الجانب الآخر، لم تقبل اليابان مهاجرين من قبل. ولأنها ليس لديها تاريخ فى قبول مهاجرين لفترة طويلة، فقبول المهاجرين ربما يكون أمرا صعبًا للغاية.

الدول الغربية اعتادت على المهاجرين وتتآلف معهم، ليس فى أمريكا فقط، بل وفى أوروبا أيضًا.

ولنأخذ مثالًا على ذلك.

كانت ڤيننا عاصمة إمبراطورية النمسا والمجر. فى التعداد الحكومى لعام ١٩١٠م، كان أكثر من سبعين بالمائة من الناس لم يكن أجدادهم لجيلين سابقين من مواليد ڤيينا، بمعنى أن أكثر من سبعين بالمائة كانوا من المهاجرين.

نعم، المدن الأوروبية لها مثل ذلك التاريخ. وكان الأطفال فى تلك الأثناء يتحدثون الألمانية فى المدرسة ويتحدثون التشيكية فى المنزل.

المشكلة بالنسبة لليابان، هى أنه حتى تحاول اليابان الحفاظ على مكانتها الاقتصادية، لابد لها من قبول وإدخال أعداد هائلة من المهاجرين. فإذا حدث ذلك، ربما سيصاب النظام اليابانى بصدمة كبيرة.

يبدو أن اليابان سيكون عليها مواجهة مشكلة المهاجرين، دون أن تكون لها تجربة تذكر فى مواجهة المهاجرين.

وكما نعلم فأمريكا دولة دعمت سكانها بالمهاجرين، بل وتزيد من أعدادهم.

فإذا حدث وفقدت المهاجرين إليها، ستصبح تمامًا مثل اليابان المعاصرة تعانى من مشكلة الزيادة العددية المتسارعة لكبار السن، فنسبة المواليد لدى السيدات الأمريكيات الأصل ربما فى نفس المعدل مع مثيلاتهن فى اليابان إن لم تكن أقل. فالزيادة السكانية فى أمريكا ترجع كلية إلى الجيل الأول من الأمهات من المهاجرين.

وحتى فى غرب أوروبا كانت الأوضاع نفسها.

وفى إنجلترا، تنخفض نسبة المواليد عن أمريكا واليابان، ولكن المهاجرين وخاصة المهاجرين من جزر الهند الغربية يدعمون الزيادة السكانية فيها. إنهم ينجبون أربعة أو خمسة أطفال على الأكثر وثلاثة على الأقل.

وفى ألمانيا يدعم الأتراك الزيادة السكانية.

وبناء عليه فاليابان فقط هى الاستثناء بين الدول المتقدمة.

فى الوقت الراهن تطلب اليابان ثروتها البشرية فى المهاجرين المؤقتين، لا فى المهاجرين الدائمين.

وعلى الناحية الأخرى، عندما ننظر إلى أمريكا هذه فنجد أنها تقبل أعدادًا هائلة من المهاجرين من متحدثى اللغة الإسبانية. فعلى الساحل الشرقى تقبل مهاجرين من منطقة البحر الكاريبى، ومن المكسيك على ساحلها الغربى.

وإذا نظرنا إلى أوروبا، نجد فيها المهاجرين الأتراك، والآن يزداد المهاجرون من بولندا ومن دول أوروبا الشرقية.

وأنا فى الأصل كما تعلمون من مواليد النمسا. وقد ولدت فى ڤيينا التى كانت عاصمة لإمبراطورية شعوب متعددة، ونشأت هناك.

وكان من لهم أجداد وجدات من مواليد ڤيينا حوالى عشرين بالمائة فقط. وكان الآخرون كلهم من المهاجرين.

أما أنا، فقد كان أجدادى من مواليد براغ عاصمة التشيك الحالية، أما الآخرون فكانوا من مواليد النمسا أو من أصل بولندى، وكان ذلك أمرًا عاديًا جدًا.

كان عدد سكان ڤيينا فى عام ١٨٤٨ م حوالى مائتى ألف نسمة. وبعد ستين عامًا عندما ولدت أنا، تضخمت ليصل عدد سكانها إلى مليونين ونصف مليون نسمة، وكان الجانب الأكبر منهم من المهاجرين الذين قدموا إليها لتوهم.

كان القرن التاسع عشر هو القرن الذى حدثت فيه الهجرات السكانية على نطاق واسع من الريف إلى المدن فى كل المجتمعات الغربية فى كل مكان. وانتهت هذه الظاهرة مع نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ م، وبانهيار إمبراطورية النمسا

والمجر. ثم منذ خمسينيات وستينيات القرن الماضى ظهرت مرة أخرى ظاهرة مماثلة تمامًا لما حدث فى القرن التاسع عشر.

إلا أن اليابان هى الدولة المتقدمة الوحيدة التى لم تتلق تلك الموجات من المهاجرين.

الدول الغربية اعتادت على المهاجرين وتتآلف معهم. ليس هناك ثمة مشكلة فى ذلك. بل نستطيع أن نقول إنها مشكلة تقليدية.

فى ألمانيا حاليًا صار الجيل الثالث من الأتراك يتزوجون من الألمان متخطين بذلك الاختلاف القومى.

واليابان هى الدولة الوحيدة التى لم تقبل دخول المهاجرين إليها، ولكن اليابان ستواجه مشكلة كبرى، إذ كيف ستتمكن من دعم السكان والاقتصاد فى الثلاثين عامًا المقبلة دون أن تدخل إليها مهاجرين؟

لم يكن لدى اليابان منذ خمسين أو ستين عامًا خلت مثلما كان لدى أوروبا وأمريكا من تقاليد تسمح بقبول المهاجرين وإدماجهم فيها.

إن سكان المدن لا يتزايدون فقط من تلقاء أنفسهم. فزيادة السكان فى المدن تعتمد على تدفق الناس إليها من قرى الريف وهذه حقيقة تشترك فيها كل الدول.

لم تعد توجد اليوم فى الدول المتقدمة قرى زراعية فى الريف تحوى زيادة سكانية. وبناء عليه فالتدفق البشرى الذى يزيد عدد السكان لابد أن يعتمد على البشر القادمين من خارج البلاد.

ويتم ذلك باستمرار فى الدول الغربية لأكثر من ألف سنة.

من بين أصدقائى، صديقة ألمانية، حاولت أن تبحث عن جذور عائلتها، وعادت بالتاريخ مائتى عام للوراء. كان أسلافها قد جاءوا إلى ألمانيا من بولندا ومن تشيكوسلوفاكيا ومن روسيا. وهذا الأمر شىء عادى فى أوروبا.

لكن لا توجد مثل تلك التقاليد فى اليابان.

المشكلة التى تواجهها اليابان هى: هل تستمر فى المحافظة على السياسة اليابانية التقليدية وتبعد القادمين الأجانب أم لا؟

إذا استمرت فى إبعاد الأجانب، ستتسبب فى الركود الاقتصادى، وستتوقف الزيادة السكانية أو يحدث انخفاض فى عدد السكان.

وإن لم تستمر فى إبعاد المهاجرين، سيتحتم عليها أن تتعلم كيف تستقبلهم وكيف تجعلهم يندمجون فيها.

لم تفعل اليابان ذلك لفترات طويلة. وذلك هو ما أعتقد أنه الاختلاف بين اليابان وبين الدول المتقدمة الأخرى، وأنه المشكلة الخاصة التى فرضت على اليابان وحدها.

اليابان فقط هى التى استطاعت أن تمضى فى طريقها إلى الآن دون أن تدخل إليها مهاجرين. إلا أن انخفاض عدد السكان فى اليابان يقابله فى الخارج دول يزداد عدد سكانها زيادة سريعة.

ولا أدرى إلى متى يمكن لليابان أن تستمر دون قبول لمهاجرين.

ليس فى اليابان تلك التقاليد التى تجعل القادمين الجدد إليها يتأقلمون معها. وهذه مشكلة صعبة حقًا.

أتمنى أن توفق اليابان فى ذلك. فمشكلة المهاجرين هذه بالنسبة لليابان مشكلة صعبة، وسوف تصبح هى المشكلة الرئيسية تدريجيًا.

القضية الثانية هى زيادة عدد كبار السن. يتناول السيد/ دراكر هذه القضية من منطلق رفع سن التقاعد الوظيفى.

يقول دراكر:

هناك مشكلة أخرى تعانيها اليابان مثلما تعانى منها الدول المتقدمة الأخرى. وهى: كيف تتعامل مع زيادة أعداد كبار السن فى السكان؟

يمكننى أن أقول إن هذه فى العادة مشكلة سياسية.

هل تعلمون أن تحديد سن التقاعد الوظيفى فى ألمانيا بخمسة وستين عامًا لم يحدث إلا مصادفة؟

فى نهاية القرن التاسع عشر، ابتكر «بسمارك» سن التقاعد ليكون إستراتيجية انتخابية. طرح بسمارك سؤالًا عن أثر المشكلة السكانية فى أوروبا آنذاك، قال:

ـ يا بروفيسور، ما هى السن التى إذا حددناها للتقاعد الوظيفى تعفينا من دفع أموال المعاشات؟

أجاب البروفيسور:

ـ خمسة وستون عامًا.

غرق بعدها بسمارك فى نوبة من الضحك، فقد كان هو نفسه قد وصل إلى تلك السن.

هكذا تحدد سن الخامسة والستين كسن للتقاعد الوظيفى.

هنا فى أمريكا، فى نهاية ثلاثينيات القرن الماضى أو بعدها بقليل، تم إدخال نظامى سن التقاعد الوظيفى، والتأمين الاجتماعى. فى تلك الأثناء، يقال إن المسئول عن إدخال النظام اقترح أن يتوافق سن التقاعد مع معدل متوسط الأعمار.

لم يستطع الرئيس «روزڤلت» أن يفهم ذلك الاقتراح. كان يفهم جيدًا شئون المواطنين، لكنه لم يكن كذلك فيما يختص بالأرقام.

ولذلك السبب ظل سن التقاعد ثابتًا حتى وقتنا هذا.

تقف الدول المتقدمة أمام أحد خيارين: إما أن تجعل سن التقاعد ثابتًا، أو أن تغيره ليكون له نظام مرن يتماشى مع متوسط العمر.

الدول الأوروبية على وشك أن تتقدم خطوة فى هذا الاتجاه. وحتى عام ٢٠٢٥م من الممكن جدًا أن يحدث ارتفاع فى سن التقاعد حتى سن الثانية أو الثالثة والسبعين.

وإلا ستفلس البلاد ويحدث التضخم. وكما تعلمون، إن أفلست البلاد يحدث التضخم.

القضية الثالثة التى يطرحها السيد/ دراكر هى زيادة حدة المنافسة العالمية مع ميلاد دول صناعية جديدة مثل الصين والهند وغيرهما، والقلق من تدنى قدرة اليابان التنافسية نتيجة لذلك.

يقول دراكر:

تظهر تنافسية جديدة من قبل دول نامية تتخذ من النمو على الطريقة اليابانية مثالًا يحتذى.

بدأت الهند أن تكون دولة مصدرة. وكذلك كل من بولندا ودول أوروبا الشرقية، وروسيا والصين.

وأعتقد أن هذا تحدٍ كبير تواجهه اليابان. وهو تحدٍ كبير لأمريكا أيضًا، لكن المعنى بالتحدى هنا هى اليابان بالتحديد.

وليس بالماضى البعيد، ذلك الذى كانت فيه اليابان تعتبر وجودًا يصعد لمنافسة الدول الكبرى الأخرى.

بالمقارنة بتلك الفترة، الأمر الجديد الوحيد والشديد الأهمية، هو قدرة أى شخص على الحصول على المعلومات، وذلك لظهور الإنترنت، وإدخال الكمبيوتر.

بإدخال الكمبيوتر تتغير تقنيات الإنتاج تغييرًا جذريًا أكثر من الفترة التى بدأ فيها نظام الإنتاج بكميات كبيرة.

ظهرت بالفعل فى اليابان مصانع مستقبلية. ولا تستطيع أن تلمح إنسانًا فى مواقع التصنيع.

فموقع التصنيع هو المكان الذى أحدث فيه الكمبيوتر تجديدًا.

لم تكن اليابان حتى وقت قريب فى حاجة للتنافس مع الدول النامية. تعلمت اليابان فى مرحلة مبكرة أنه من الأفضل حتى تتفوق فى المنافسة أن تقوم بالقليل مما قامت به الدول المتقدمة الأخرى وتنفذه بشكل أفضل.

وبهذا المعنى لم يكن القيام بالتجديد ضروريًا. فالتجديد يحتاج إلى تكلفة كبيرة، والمخاطرة فيه كبيرة أيضًا؛ لكن اليابان لم يكن عليها القيام بذلك.

ربما كان النجاح الأكبر فى السوق المحلية اليابانية وليس فى التصدير متمثلًا فى «إيتو يوكادو»[1]. ويوكادو الآن يمارس تجارة التجزئة على أوسع نطاق فى العالم.

(١) إيتو يوكادو: من أشهر مجموعات المحلات التجارية فى اليابان (المترجم).

السر فى ذلك النجاح يرجع إلى دراسة تجارة التجزئة الأمريكية والحصول على التراخيص اللازمة.

لم تعد مثل هذه الطرق مجدية. فهناك الآن دول أخرى تحاول عمل نفس الشىء.

والذى يدعو للعجب أنه ولوقت طويل لم تحاول أى دولة أخرى أن تقوم بمثل ما قامت به اليابان. لكن فى الوقت الحالى يقوم بذلك البولنديون، والروس، والأوكرانيون، والصينيون، والهنود أيضًا.

اليابان الآن معرضة لمنافسة تزداد ضراوة مع كثير من الدول النامية. ثم إن هذه الدول لها من القوة مثل الذى كانت لليابان من قبل. إنها قوة امتلاك ثروة بشرية كبيرة تلقت تعليمًا متخصصًا.

مائتا مليون من الهنود الذين يتخذون من اللغة الإنجليزية لغة رئيسية لهم، يتلقون تعليمًا حديثًا. وكذلك بولندا وروسيا مع قلة العدد إلا أنهم مثل الهند. ثم إن مثل تلك البلاد على وشك أن تصبح منافسًا لليابان.

ويبدو أن اليابان قد استطاعت التعامل بنجاح مع مثل تلك المنافسات حتى الآن. كانت اليابان على مدار الثلاثين عامًا الماضية الدولة المستثمرة الرئيسية فى الصين.

لكن المكانة المتميزة التى ظلت اليابان تحتلها منذ خمسينيات وستينيات القرن الماضى، لكونها الدولة الوحيدة من خارج الدول الغربية، التى نجحت فى تحقيق الحداثة، باتت على وشك أن تفقدها.

ربما ستكون الهند أو الصين المنافس الرئيسى. وفى الوقت نفسه ستكون هذه المنافسة فرصة كبيرة لتستثمر اليابان وتقوم بالتنمية فى دول أوروبا الشرقية التى قامت حديثًا، وفى روسيا والصين.

القضية الأخيرة والأكبر التى يشير إليها السيد/ دراكر هى نظام التعليم.

يقول دراكر:

يشكل نظام التعليم مشكلة كبيرة الآن فى اليابان. لكن نظم التعليم صارت مشكلة فى كل الدول المتقدمة وليس فى اليابان فقط.

فالنظم الحالية مستمرة فى تعليم الناس أمور تتعلق بوظائف ومهن عصور ماضية. إلا أن القضية هى أننا لا ندرى ما الذى نفعله غير ذلك.

لا أحد يعرف كيف نعلم الناس من أجل أعمال مستقبلية أو من أجل عالم الغد.

أمـر واحـد فقط أخذ يتضح لنا شيئًا فشيئًا. وهو أن الجدل الجاف حول واقع التعليم والذى ظل يتكرر فى الغرب منذ أكثر من مائة عام وحتى الآن، قد صار رثًا مبتذلًا.

هذا الجدال عبارة عن أن هناك من يسمونهم أصحاب النزعة الإنسانية، ويقولون إن التعليم يهدف إلى إعطاء علامات وإرشادات فى طريق الحياة، وعلى الجانب الآخر، هناك من يمكن أن نسميهم أصحاب نظرية الأولوية للتوظيف والعمل، والذين يقولون إن التعليم يهدف إلى أن يكسب الناس عيشهم ووسيلتهم للحياة.

كان جدلًا عقيمًا، وكان شديد الحدة أيضًا.

لقد صار مثل ذلك الجدل من أمور الماضى، إلا أن ماهية التعليم الجديد لم تزل غير معلومة. ونحن مازلنا غير قادرين على أن نفهمها جيدًا، ذلك أننا الآن فى قلب ثورة ثقافية كبرى.

هذا الأمر لا يختلف فى ديسلدورف عنه فى ديترويت.

الدول المتقدمة قد حققت محوًا كاملًا للأمية. فيما يتعلق بالتعليم، تمتلك الدول المتقدمة وحدها محو الأمية الكامل. فى أى دولة يلتحق الناس بالمدرسة حتى سن السابعة عشر أو الثامنة عشر.

سوف تشهد السنوات المقبلة تغييرًا كبيرًا فى طرق التعليم.

واليابان أيضًا ليست استثناء من ذلك.

ويرى السيد/ دراكر أن مشكلة التعليم فى اليابان مرتبطة فى الواقع بمشكلة أخرى صعبة، ألا وهى قلة عدد المواليد وارتفاع مستوى العمر، وإعادة توظيف من أحيلوا إلى التقاعد.

ويقول إن الطريق إلى حل المشكلة يكمن فى الطريقة التى يمكن بها إعادة تعليم العمال من كبار السن الذين تم رفع سن تقاعدهم عن العمل. وهو موضوع يتعلق

بمثال لما فعلته يابان ميجى التى بالتعليم أعادت استخدام العنصر البشرى من عصر إيدو.

يقول دراكر:

أعداد الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات والمعاهد المتوسطة فى اليابان، تأتى بعد أمريكا من حيث الكثرة. وكذلك عدد الفتيات اللاتى يتلقين تعليمًا بعد التخرج فى المدرسة الثانوية يلى أمريكا من حيث الكثرة العددية. لا يمكننا أن نعطى لمثل هؤلاء عملًا على خط تجميع فى مصنع. فهناك تغيير كبير يحدث فى تركيب القوى العاملة.

وعلاوة على ذلك، فأعداد الذين تقاعدوا وصاروا يحصلون على معاشات تتزايد باطراد.

مثل أولئك الناس سواء كانوا يعملون فى مؤسسات عامة أم فى شركات بالقطاع الخاص، قد بدأوا الآن يعملون بطريقة تختلف تمامًا عما كانوا عليه من قبل. فهم يعملون نصف العام، ويستريحون النصف الآخر، ليذهبوا فى رحلات أو ما شابه ذلك.

فى حالات كثيرة يصبح هؤلاء الناس موظفين مؤقتين، لماذا يختارون أن يكونوا موظفين مؤقتين؟ ربما لأنهم ليسوا فى حاجة إلى المعاش، أو لأنهم يحصلون على معاشاتهم بالفعل.

ما يعنى مثل هؤلاء الناس هو مدى حرية الوقت الذى يكونون فيه ملزمين بالعمل، وقيمة الأجر الذى سيتلقونه فى المقابل.

هو نوع من العمال مختلف تمامًا عما ألفناه حتى الآن.

وسوف يزداد الاعتماد من الآن فصاعدا على مثل هؤلاء العمال. فى الدول المتقدمة تستمر أعداد الشباب فى الانخفاض بين السكان، وخاصة فى اليابان لأنها لا تقبل بدخول الأجانب لتعالج النقص فى السكان.

وربما لن تقبل اليابان مهاجرين فى المستقبل.

ولذلك، فلابد أن نخرج بإستراتيجية عمالية جديدة، وإستراتيجية اجتماعية جديدة، وإستراتيجية تعليمية جديدة.

فى مجال التعليم، سيكون مجال تعليم الراشدين (التعليم مدى الحياة)، مجالًا آخذا فى النمو باطراد.

يشير السيد/ دراكر إلى أن أمريكا قد سبقت اليابان فى مسألة إعادة تعليم الراشدين فى المجتمع. وحتى فى اليابان فى الآونة الأخيرة أنشئت عدة مراحل للدراسات العليا للكبار العاملين فى المجتمع، وتتجه نحو الاهتمام بإعادة التعليم إلا أن ذلك ما زال غير كاف.

وكما شاهدنا مثال يامانوبيه فى الفصل الرابع من هذا الكتاب، تعاملت اليابان فى عصر ميچى مع التغير الذى حدث فى ذلك العصر من خلال استيعاب أعداد كبيرة ممن كانوا كبارًا بالغين بالفعل للمعارف الجديدة. قد يكون تعلم ذلك المثال من ميچى الآن أحد الحلول المقترحة. كما يمكننا القول إن هذه وسيلة للتعامل مع قلة المواليد وارتفاع متوسط الأعمار، وانخفاض القوى العاملة بين السكان.

عندما تحاول اليابان المعاصرة أن تولد من جديد، فلن يقتصر ما يمكنها أن تتعلمه من ميچى على مجرد طرق للإفادة من العنصر البشرى. أين يا ترى تلك الدلالات التى يمكن بها الإفادة من تعاليم ميچى، وتحقيق تغييرات أكبر؟

فى الكتابين الثانى والثالث من هذه السلسلة، سوف نختصر القضية فى مجالات منفصلة، ثم نبحثها بتفصيل أكثر. لكننا فى هذا المجلد الأول الذى يقع منها موقع المقدمة نود أن نختتمه برسالة إلى اليابان المعاصرة يقدمها العالمان المتخصصان.

هل ستتمكن اليابان من إحداث التغيير مرة أخرى؟ الإشارات الدالة على هذه الإجابة موجودة فى داخل «ميچى».

يقول كاتو:

كان لدى يابان ميچى الروح الاستقلالية. ثم إن معرفة ذلك الأمر ومعرفة الثقافة اليابانية معرفة عميقة أمران مرتبطان بعضهما ببعض، فمعرفة الثقافة اليابانية معرفة عميقة تعنى القدرة الحقيقية على الترجمة، أو هى شرط لفهم الثقافات الأجنبية فهمًا عميقًا. وذلك ينسحب أيضًا على اللغات الأجنبية. فلا يمكن فهم اللغات الأجنبية بعمق دون معرفة اللغة اليابانية.

الاعتقاد فى المقدرة على فهم لغة أجنبية دون معرفة اللغة اليابانية هو خيال ووهم، ففى الواقع من لا يتقن اليابانية، من غير الوارد أن يفهم الإنجليزية بحق.

فمثلًا، من لا يستطيع الكتابة باللغة اليابانية، لن يستطيع ترجمة الجملة الإنجليزية أو الفرنسية. لهذا، فأهم شيء هو معرفة الثقافة اليابانية معرفة جيدة، وأن تحرث حقلك دون أن تكون رافضًا للآخر، ولا أن تكون هجوميًا أو توسعيًا.

يقول فوكوزاوا يوكيتشى: استقلال الفرد استقلال للبلد؛ وأعتقد أن ذلك يعنى أنه حتى يستقل البلد، لابد من أن يستقل الفرد.

استقلال البلد هو أن تستقل اليابان فى داخل المجتمع الدولى. وحتى يتحقق ذلك، يجب على كل فرد فى الشعب اليابانى ألا ينظر حوله يمنة ويسرة ويستطلع الأحوال حوله قبل أن يتكلم، بل يجب عليه أن يقول ما يؤمن هو به، ثم تكون عنده القدرة والاستعداد المسبقين لتحمل مسئولية ذلك.

وبدون ذلك لن تكون اليابان مستقلة كدولة فى المجتمع الدولى. هكذا قال فوكوزاوا.

أعتقد أن الفرد الذى يتخذ قراره بحرية، ثم يتحمل نتيجة قراره هو فرد مستقل، والدولة التى تتخذ قراراتها فى حرية، وتتحمل مسئولية ما ينتج عن ذلك، هو بلد مستقل.

إن لم يكن ذلك، فلن يستطيع إلا أن ينظر يمينًا ويسارًا ثم يسعى ليوافق رأى الجميع. وأعتقد أن هذا ليس مدعاة فخر لليابانيين.

يقول دراكر:

أهم درس يعطيه لنا العصر المسمى بميجى، هو أنه قام بتنشيط طاقات أناس عديدين، ونجح فى توجيهها.

كانت دول أوروبا التى صارت دولًا متقدمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر جميعها تمتلك تلك الخاصية. واليابان صارت دولة متقدمة على الرغم من أنها ليست دولة غربية، وهى وجود فريد فى أنها ما زالت مستمرة فى الحفاظ على تلك المكانة حتى الآن.

لم يستطع أحد منذ عصر ميجى وحتى الآن، تحقيق ما حققه ذلك العصر من حشد البلاد والانهماك فى قضايا جديدة، ثم حل تلك القضايا بنجاح باهر.

لقد تعلم اليابانيون كيف يفكرون تفكيرًا على المستوى العالمى، ويفكرون تفكيرًا محليًا فى نفس الوقت.

طريقة التفكير تلك ما زالت أمرًا صعبًا للغاية بالنسبة للشركات فى الدول الغربية، وللشركات الأمريكية بصفة خاصة.

كثير من الشباب اليابانى يعرفون جيدًا أمورًا عديدة عن الدول الأجنبية بالمقارنة بالشباب الأمريكى.

أنا أعتقد أن أهم ما حدث فى الاقتصاد العالمى فى الثلاثين أو الأربعين عامًا الأخيرة، هو نجاح اليابان فى توقع المنافسة والتحدى الجديد اللذين وضعهما أمامها عدد من الدول التى قلدت وبشكل كبير نموذج النجاح اليابانى مثل الهند والصين وغيرهما، وتعاملها مع ذلك.

وعلى الرغم من هذه المنافسة الجديدة، لم تكتف اليابان بالاستمرار فى الحفاظ على مكانتها بالنسبة للاقتصاد العالمى، بل إنها تعمل على تقوية تلك المكانة والارتقاء بها.

وهذه نتيجة رائعة.

إذا نظرت إلى اليابان ليس فقط بالمقياس المعتاد لحجم الصادرات، بل بمقياس قوة الترابط الاجتماعى وهو المقياس الأكثر أهمية، أعتقد أنها دولة نجحت فى ذلك أيَّما نجاح.

إن اليابان هى الدولة الوحيدة التى تستمر فى احتلال مكانة هامة فى الاقتصاد العالمى دون أن تصير دولة غربية كاملة. والهند والصين لا تستطيعان اتباع تلك الطريقة.

هكذا استطاعت اليابان فى ميجى، ثم فى شووا أن تحقق نجاحًا كبيرًا، لكنى أتمنى أن تحقق اليابان من الآن فصاعدًا نجاحًا مثل الذى حققته حتى الآن.

تعقـيب

هذا الكتاب هو الطبعة المنشورة لمقدمة سلسلة البرامج الخاصة «ميچى» لهيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية (NHK) والتى كانت بعنوان «الآن، ماذا نتعلم من ميچى؟».

كان قوام البرنامج لقاء حواريًا طويلًا مع عالم الاقتصاد الأمريكى السيد/ بيتر دراكر، والناقد اليابانى السيد/ كاتو شوئيتشى.

كانت زيارتنا لمنزل السيد/ دراكر فى كليرمونت بولاية كاليفورنيا فى أمريكا فى أحد الأيام الخريفية من شهر نوفمبر للعام السادس عشر من «هيسيه» (٢٠٠٤ م).

هذا العالم الشهير معروف عنه أنه من محبى اليابان، والذى أتاح لنا الكثير من وقته الثمين وقابلنا بدفء ومودة.

عام ١٩٠٩ م الذى ولد فيه السيد/ دراكر يقابل العام الثانى و الأربعين من ميچى. ولذلك يمكننا أن نقول عن السيد/ دراكر إنه «من مواليد ميچى».

كثير «من مواليد ميچى» من اليابانيين يشيعون حولهم مناخًا خاصًا من البساطة والصلابة. والسيد/ دراكر أيضًا، شخصية وادعة متواضعة ولكنه يشعرنا فى الوقت نفسه أن لديه نوعًا من أنواع السلوك المتماسك الصلب الذى لدى اليابانيين «من مواليد ميچى». فى شخصيته ما يذكرك بتاريخه، فقد ترك النمسا موطنه الأصلى مقاومة للنازية، وبعد هجرته إلى أمريكا، أعلن احتجاجه مرارًا على دكتاتورية نهج ستالين.

فى إحدى غرف مقهى فى حى «سيتاجايا» بطوكيو كانت المرة الأولى التى

استمعنا فيها إلى حديث السيد/ كاتو شوئيتشى من أجل اللقاء. هذه المرة فى أحد أيام الشتاء التى تلقى فيها الشمس بأشعتها الدافئة فى شهر ديسمبر للعام السادس عشر من هيسيه. ثم بعد ذلك رجوناه أن يجرى معنا حديثًا طويلًا أمام كاميرا التليفزيون، فتفضل بالحديث إلينا عن «معنى أن نعيد النظر فى ميچى الآن».

استجاب السيد/ كاتو للحوار الطويل معتمدًا على معلوماته العميقة المنتظمة المرتبة وتجاربه الثرية، وكان مثل السيد/ دراكر لا يبدى تعبًا أو إرهاقًا.

لم يجتمع الاثنان معًا فى مكان واحد ولم تدر بينهما مناقشات، ولكن «ميچى» موضوع الحوار جعلهما كما لو كانا وكل منهما فى أحد أطراف الأرض، ولكن يتحدثان معًا حول نفس الموضوع وكأنهما يتباريان الرأى والحجة. كما لو كان الأمر بدا كنوع من المناظرة على اتساع رقعة الكرة الأرضية.

عندما أعدنا ترتيب آرائهما مرة أخرى، فوجئنا بكثير من النقاط المشتركة.

وفى الوقت ذاته، تختلف طريقة الحديث، وزاوية التناول وإلقاء الضوء حتى عند الحديث عن نفس الموضوع. لذلك فقد أصبح الفهم من كل الزوايا لموضوع ما ممكنا، مثل الذى يبحث عن مزايا ذلك الموضوع فى صفحتى المرآة.

إن لقاء هذين العالمين اللذين يمثلان شرق الأرض وغربها، والذى شكل لدينا ظاهرة تخليق معدن مخلط مدهش، إنما هو نوع من الدهشة، وتجربة يرقص لها القلب.

من البديهى أن يكون للتليفزيون مميزاته، وللكتاب ما لا يمكن أن يكون فى غيره.

والبرنامج التليفزيونى «NHK Special» لابد أن يحشد معلومات صحيحة فى وقت محدود بخمسين دقيقة. ونتيجة لذلك، فله ميزة هى أنه يستطيع أن يطلق رسالته إلى العصر الحالى فى تحديد ودقة. لكن العجز يظهر تلقائيًا عند نقل تفاصيل دقيقة متشعبة لظاهرة ما.

وفى المقابل، فى حالة الكتاب، من الممكن حسب الموضوع استيعاب تفاصيل كثيرة للحديث دون نقصان، والمضى بعمق فى النقاش إلى أدق الجوانب.

فى هذا الكتاب، عمدنا إلى تصنيف يتيح لكل من السيدين بيتر دراكر، وكاتو شوئيتشى أن يستفيضا فى الحديث عن ميچى حتى نصل إلى مثل ذلك الحس الدقيق.

نود أن نتقدم بالشكر إلى السيد/ دراكر، والسيد/ كاتو اللذين سمحا لنا بإجراء الحوار معهما وتحويله إلى كتاب مطبوع.

أما عن فحوى الحديث، فلطبيعة اللقاءات التليفزيونية لابد أن يحدث نوع من التكرار وخلل فى ترتيب النقاش مما استدعى أن نقوم بترتيبه وتنسيقه، وستكون سعادتنا بالغة لو تفهمتم ذلك.

وفيما يخص اللقاء مع السيد/ دراكر، فلا يسعنا إلا أن نشكر للسيد/ نوجوتشى شوچى، المقيم فى أمريكا حسن تعاونه ورعايته لنا. فلولا تعاونه معنا وثقة السيد/ دراكر وزوجته التى أولياها إياه، لم يكن لهذا المشروع أن يظهر إلى الوجود. وننتهز هذه الفرصة لنعرب له مجددًا عن شكرنا وامتناننا.

كما نتقدم بخالص الشكر لكل السادة والسيدات الذين تعاونوا معنا وتحدثوا إلينا، وقدموا لنا العديد من الوثائق وهم كثر، والذين قد لا تتسع مساحة الصفحات لذكر أسمائهم جميعًا.

برنامج هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية «ميچى» هو فى الأصل سلسلة كانت تبدأ كما ذكرنا فى مقدمة الكتاب بناء على فكرة هى «فلنرهف السمع إلى صوت أناس من ميچى». لكن انتهى بنا الأمر إلى أن نضيف إلى هذا الكتاب ونضع رؤية أهل المعرفة الذين يعيشون عصرنا ويراقبون خطوات اليابان بشكل مستمر.

اليابان الآن وهى فى فترة تغيير كبير مثلما كانت فى ميچى، نتمنى أن تستشعر الكلمات التى أطلقها مثقفون حكماء قل أن يوجد أمثالهم مستشرفين المستقبل.

مشـروع «ميچـى»

هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية

المراجع الرئيسية

-Peter F. Drucker, Managing in Turbulent Times

-Peter F. Drucker, Innovation and Entrepreneurship

-Peter F. Drucker, Management Challenges for the 21st Century

-Peter F. Drucker, Managing In The Next Society

-Peter F. Drucker, Management: Tasks, Responsibilities, Practices

- ب . ف . دراكر، «الإدارة» جزءان، دار بريزيدنت للنشر.

- كاتو شوئيتشى، «الأعمال المختارة لكاتو شوئيتشى» الجزء الثانى: «التغير والاستمرارية فى الأدب اليابانى»، دار هيبونشا.

- كاتو شوئيتشى، «الأعمال المختارة لكاتو شوئيتشى» الجزء الخامس: «الثقافة والمجتمع فى اليابان المعاصرة»، دار هيبونشا.

- مارویاما ماساؤ / كاتو شوئيتشى، «الترجمة والعصر الحديث فى اليابان»، مكتبة إيوانامى.

- شيبوساوا إيئيتشى، «المذكرات الخاصة».

- شيبوساوا إيئيتشى، «سجل ذكريات سيئن».

- شيبوساوا إيئيتشى، «مائة حديث لسيئن».

- تحرير دار ريومون مؤسسة شيبوساوا سيئن التذكارية، «أرشيف مذكرات شيبوساوا إيئيتشى».

- تحرير دار ريومون مؤسسة شيبوشاوا سيئن التذكارية، «بيان زمنى لأعمال ومشروعات شيبوساوا إيئيتشى».

- تحرير دار ريومون، «مجموعة تعاليم الأستاذ سيئن».

- تحرير دار ريومون مؤسسة شيبوساوا سيئن التذكارية ، «مجموعة تعاليم شيبوساوا إيئيتشى»، لجنة الإصدارات الوطنية.

- تحرير دار وثائق تاريخ شيبوساوا، «الكتب المصورة المعرضية».
- مدونات شيبوساوا إيئيتشى، «حكايات طويلة فى ليالى ممطرة» شوجاكوكان.
- إيشيكاوا ياسوچيرو، «مشهد جبل وحيد - يامانوبيه تاكيؤ»، مكتبة يومانى.
- فوكوزاوا يوكيتشى، «مذكرات المدارس فى كيوتو».
- أوكيموتو تسونيكيتشى، «مقاطعة تسوانو»، لجنة إصدار سلسلة تاريخ تسوانو.
- إيواتانى كينزو، «أناس تفخر بهم تسوانو»، لجنة إصدار سلسلة تاريخ تسوانو.
- تحرير متحف تاريخ المدارس فى مدينة كيوتو، «مدارس كيوتو: زيارة للتاريخ».
- هيئة تحرير تاريخ شركة تويو للغزل، «تاريخ تويوبو فى مائة عام» جزءان.
- إشراف أوداجاوا ماسارو / ناكامورا سيشى، «المواد الخام: تاريخ الإدارة فى اليابان»، يوهيكاكو.

حقوق استغلال الصور

غلاف

شيبوساوا إيئيتشى: أرشيف شيبوساوا، هيئة الإذاعة والتلفزيون اليابانية (تركيب الصورة).

الفصل الثانى

- المنهج الدراسى الذى أصدرته محافظة كيوتو فى العام الرابع من ميچى: متحف تاريخ المدارس فى مدينة كيوتو.

الفصل الثالث

- كراسة الكلمات التى وضعها يامانوبيه تاكيؤ: شركة تويو للغزل.

الفصل الرابع

- شيبوساوا إيئيتشى: أرشيف شيبوساوا.

- يامانوبيه تاكيؤ: أرشيف شيبوساوا.

- المنهج الدراسى للمدارس الابتدائية التى بنيت فى محافظة كيوتو فى أوائل عصر ميچى: متحف تاريخ المدارس فى مدينة كيوتو.

- شيبوساوا إيئيتشى فى نهاية عصر إيدو: أرشيف شيبوساوا.

- إيتو هيروبومى، وأوكوما شيجينوبو، وإينوويه كاؤرو: أرشيف شيبوساوا، هيئة الإذاعة والتلفزيون اليابانية (تركيب الصورة).

- سوجيؤرا يوزورو، شيبوساوا إيئيتشى، مايچيما هيسوكا: السيد / إيشيجورو كيشو، هيئة الإذاعة والتلفزيون اليابانية (تركيب الصورة).

- شيبوساوا إيئيتشى ويامانوبيه تاكيؤ: أرشيف شيبوساوا، شركة تويو للغزل، هيئة الإذاعة والتلفزيون اليابانية (تركيب الصورة).

الفصل السابع

ـ توجو هيهاتشيرو يتولى القيادة على بارجة العلم «ميكاسا»: مجموعة محفوظات ميكاسا.

* حقوق استغلال الصور الأخرى ـ والتى لم تذكر فى اللائحة أعلاه ـ مملوكة لهيئة الإذاعة والتلفزيون اليابانية.

تصميم شكل الأمواج: يامازاكى نوبونارى (ydoffice).

* شكر خاص للسيد/ يامازاكى نوبونارى (ydoffice) لتعاونه.

عن المترجم

عصام رياض حمزة، أستاذ الدراسات اليابانية بجامعة القاهرة، تخرج فى أول دفعة لقسم اللغة اليابانية وآدابها بجامعة القاهرة عام ١٩٧٨.

أكمل دراساته العليا فى جامعة أوساكا باليابان وحصل منها على درجة دكتوراه الآداب عام ١٩٩١. له عشرات البحوث والدراسات فى الفكر والثقافة والآداب اليابانية، وكذلك فى حوار الحضارات، وقضايا التحديث فى اليابان والعالم العربى، وله العديد من الترجمات إلى اليابانية والعربية.

ميجي

قوى بشرية قادت التغيير

«ميجي» كلمة لها وقع خاص فى قلوب اليابانيين، فعندما يسمعها اليابانى تتداعى إلى ذاكرته مخيلات شتى. فقد كانت فترة حافلة بالحراك السياسى والاجتماعى، وغنية بالتجارب الإنسانية، مزدحمة بالتيارات الثقافية القادمة من الخارج. فترة قد يراها البعض زاخرة ببناء صروح الدولة اليابانية الحديثة الفتية، ونقطة انطلاقها لتتبوأ مركز الريادة فى آسيا القرن التاسع عشر، وقد يراها البعض ولاسيما فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حقبة سيطرت فيها النزعة العسكرية وبدأت فيها اليابان سلسلة حروبها فى آسيا.

وعن طريق هذا الكتاب نقف على مقومات النهضة اليابانية الحديثة، ونتعرف على الوسائل والطرق التى استطاع بها اليابانيون بناء دولتهم والمضى قدما فى طريق التحديث دون أن يفقدوا هويتهم الثقافية، بل إنهم قد أفادوا من تراثهم الثقافى الذى أدخلوا إليه العديد مما أنتجته الحضارة الغربية، ولكن بطرق وأساليب تناسب مجتمعهم، بل وتحقق لهم ما كانوا يرمون إليه من طموحات كانوا يضعونها فى مشروعهم لبناء يابان غنية اقتصاديا، قوية عسكريا، حتى يمكنها الحفاظ على استقلالها، ولا تقع فريسة للاستعمار الأوروبى.

من مقدمة المترجم

6 221102 022255

دار الشروق
www.shorouk.com